البحر المديد في تفسير القرآن المجيد
ابن عجيبة
سورة المائدة

@{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىا عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ... }

أي: بالعهود التي عَهِدْتُ إليكم أن تحفظوها، وهي حفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ الأديان، وحفظ الأبدان، وحفظ اللسان، وحفظ الإيمان، ثم مرَّ معها على الترتيب، فما ذكره هناك مُستوفَى، لم يُعِدْ منه هنا إلا أصله، وما بقي هناك في أصل من الأصول الستّة كمّلهُ هنا، ولمّا ذكر فيما تقدّم في أول السورة حُكْم الأموال باعتبار المِلك، ولم يتكلم على ما يحلّ منها وما يحرم، تكلم هنا على ذلك، فقال:

{...أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىا عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ }

قلت: إضافة { بهيمة الأنعام }: للبيان، كثوب خزّ، إي: البهيمة من الإنعام، و { غير مُحِلِّي الصيد }: حال، قال الأخفش: من فاعل { أوفوا } ، وفيه معنى النّهي، وقال الكسائي: من ضمير { لكم }، كما تقول: أُحِلّ لكم الطعام غير مُفسِدين فيه، فإن قُلتَ: الحال قيد لعامِلها، والحِلِّيَّة غير خاصّة بوقت حُرمَة الصيد؟ قلت: لمّا كانت الحاجة إليها في ذلك الوقت أكثر، خصّ الحِلِّيَّة به ليكون أدعى للشكر، ويؤخَذ عموم الحِلِّيَّة من سورة الحج.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { أُحِلَّت لكم بهيمة الأنعام } أي: الأنعام كلها، وهي الإبل والبقر والغنم، { إلا ما يُتلَى عليكم } بعدُ في قوله:
{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ... }
[المَائدة:3] الآية، حال كونكم { غير مُحِلِّي الصيد } في حال الإحرام، ومعنى الآية في الجملة: أُحِلَّت الأنعام كلها إلا ما يُتلى عليكم من الميتة وأخواتها، لكن الصيد في حال الإحرام حرام عليكم، { إن الله يحكم ما يريد } من تحليل أو تحريم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربّكم، من مجاهدة ومُكابَدة، فمَن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكمْ بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بهِمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكَوِّن كانت الأكوان معكم. إلا ما يُتلَى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، " فإن سوابق الهِمَم لا تخرق أسوار

الأقدار " ، غير مُتَعَرِّضين لشهود السّوى وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم.

@قال ابن جزيّ: نزلت عام الفتح حين ظفر المسلمون بأهل مكة، فأردوا أن يستأصلوهم بالقتل؛ لأنهم كانوا قد صدّوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية، فنهاهم الله عن قتلهم؛ لأن الله عَلِمَ أنهم يؤمنون. هـ. ثم نسخ ذلك بقوله:
{ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }
[التوبَة:5].

ثم قال تعالى: { وتعاونوا على البرّ والتقوى } كالعفو، والإغضاء، ومتابعة الأمر، ومُجانَبة الهوى. وقال ابن جزيّ: وصية عامّة، والفرق بين البرّ والتقوى؛ أن البرّ عامّ في الواجبات والمندوبات، فالبرّ أعمّ من التقوى. هـ. { ولا تعاونوا على الإثم والعدوان } كالتشفّي والانتقام. قال ابن جُزَيّ: الإثم: كل ذنب بين الله وعبده، والعدوان: على الناس. هـ. { واتقوا الله إن الله شديد العقاب }؛ فانتقامه أشد.

الإشارة: قد أمر الحق ـ جلّ جلاله ـ بتعظيم عباده، وحِفظ حُرمتهم كيفما كانوا، " فالخلق كلّهم عِيال الله، وأحبّ الخلق إلى اللهِ أنفعُهُمْ لِعِياله " ، فيجب على العبد كفّ أذاه عنهم وحمل الجفا منهم، وألاَّ ينتقم لنفسه ممَّن آذاه منهم، ولا يحمله ما أصابه منهم على أن يعتدي عليهم ولو بالدعاء، بل إن وسَع الله صدره بالمعرفة قابلهم بالإحسان، ودعا لعدوّه بصلاح حاله؛ حتى يأخذ الله بيده، وهذا مقام الصّديقيَة العظمى والولاية الكبرى، وهذا غاية البرّ والتقوى الذي أمر الله ـ تعالى ـ بالتعاون عليه، والاجتماع إليه، دون الاجتماع على الإثم والعدوان، وهو الانتصار للنفس والانتقام من الأعداء، فإن هذا من شأن العوامّ، الذين هم في طرف مقام الإسلام. والله تعالى أعلم.

@{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذالِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذالِكُمْ فِسْقٌ... }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { حُرِّمَت عليكم الميتة } أي: ما ماتت حَتْفَ أنفها بلا ذكاه، { والدم } المسفوح، أي: المهروق، وكانت الجاهلية يصبّونه في الأمعاء، ويشوونها، ورُخِّصَ في الباقي في العروق بعد التذكية، { ولحم الخنزير } ، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة، بخلاف الشعر المجزوّ، { وما أُهِلَّ لغير الله به } أي: رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير الله، كقولهم: باسم اللاّت والعزّى، وكذا ما تُرِكَ عليه اسم الله عَمْدًا، عند مالك { والمنخنقة } بحبل وشبهه حتى ماتت، { والموقوذة } أي: المضروبة بعصا أو بحجر أو شبهه، من: وقذته وقذًا: ضربته، { والمتردية } أي: الساقطة من جبل أو في بئر وشبهه فماتت، { والنطيحة } التي نطحتها أخرى

فماتت، فإن لم تمت؛ فإن كان في المصران الأعلى فكذلك، لا في الأسفل أو الكرش.

{ وما أكل السّبع } أي: أكل بعضه وأنفذ مقتله، والسبّع: كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنّمر والثعلب والنّمس والعُقاب والنّسر { إلاّ ما ذكّيتم } أي: إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. قاله البيضاوي. وقال ابن جُزَيّ: قيل: إنه استثناء منقطع، وذلك إذا أُريد بالمنخنقة وأخواتها: ما مات من ذلك بالخنق وما بعده، أي: حُرِّمَت عليكم هذه الأشياء، لكن ما ذكّيتم من غيرها فهو حلال، وهذا ضعيف، وقيل: إنه استثناء متصل، وذلك إن أُريد بالمنخنقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته. والمعنى: إلا ما أدركتم حياته من هذه الأشياء، فهو حلال، واختلف أهل هذا القول؛ هل يُشتَرَط أن يكون لم تنفذ مقاتله، أم لا؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالكًا ـ رحمه الله ـ، وأما مَن لم تُشرِف على الموت من هذه الأسباب، فذكاتها جائزة باتفاق. هـ.

{ و } حُرِّمَ عليكم أيضًا: { ما ذُبِحَ على النُّصُب } ، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعدُّون ذلك قُرْبَة، وليست بالأصنام؛ لأن الأصنام مُصَوّرة، والنُّصُب غير مُصَوَّرة، وقيل: { على } بمعنى اللام، أي: وما ذُبِحَ للنُّصُب، والمراد كلّ ما ذُبحَ لغير الله.

{ وأن تستقسموا بالأزلام } أي: تطلبوا ما قسم لكم في الأزل من المقادير بالأزلام، جمع زلم ـ بضم الزاي وفتحها ـ وهي الأقداح على قدر السهام. وكانت في الجاهلية ثلاثة، قد كُتب على أحدها: افعل، على الآخر: لا تعفل، وعلى الثالث: مهمل، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمرًا جعلها في خريطة، وأدخل يده وأخرج أحدها، فإن خرج له الذي فيه " افعل "؛ فعل ما أراد، وإن خرج الذي فيه " لا تفعل " ، تركه. @وإن خرج المهمل أعاد الضرب، ويقاس عليه كل ما يدخل في علم الغيب، كالقريعة والحظ والنصبة والكهانة، وشبهها.

{ ذلكم فسق } ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة، أو إلى الاستقسام بالأزلام، وإنما كان فسقًا؛ لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد الله به، وفيه تجسس على سر الملك، وهو حرام، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة، في أمور مخصوصة كتمييز الأنصبة في القسمة، وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقترع بين نسائه " ، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب، دون الاطلاع على علم الغيوب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حرمت عليكم يا معشر المريدين طلب الحظوظ والشهوات، وما تموت به قلوبكم من الانهماك في الغفلات، وتناول ما أعطِيكم لغير وجه الله، وقبضتموه من غير يد الله، بأن نظرتم حين قبضه إلى الواسطة، وغفلتم عن المعطي حقيقة، فمقتضى شريعة الخواص: إخراجه عن الملك، وحرمان النفس من الانتفاع به، كما وقع لبعض الأولياء، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة، ونزلتم إليه بالإذن، دون قصد الشهوة والمتعة، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية. والله يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه. آمين.

ولمَا حرم الله تعالى هذه الاشياء حصل للمشركين الإياس من موافقة المسلمين لهم في دينهم، فلذلك ذكره الحق تعالى بإثر تحريمها، فقال:

{... الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً... } يقول الحقّ جلَ جلاله: { اليوم } الذي أنتم فيه، وهو يوم الجمعة، ويوم عرفة في حجة الوداع، { يئس الذين كفروا من دينكم } أن يبطلوه، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم في أمورهم كلها، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين، قيل: إنه وقف معه صلى الله عليه وسلم في هذه الحجة: مائة ألف وأربعة عشر ألفًا، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر، وما يتصل به من الأزمنة الآتية، { فلا تخشوهم } أن يظهروا عليكم، { واخشون } وحدي؛ فأمرهم بيدي.

{ اليوم أكملتُ لكم دينكم } بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد، { وأتممتُ عليكم نعمتي } بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، وبالفتح والتمكين، بهدم منار الكفر، ومحو علل الملحدين، { ورضيتُ لكم الإسلام دينًا } أي: اخترته لكم من بين الأديان، الذي لا نرتضي غيره، ولا نقبل سواه.

الإشارة: إذا حصل المريد على أسرار التوحيد، وخاض بحار التفريد، وذاق حلاوة أسرار المعاني، وغاب عن شهود حس الأواني، وحصل له الرسوخ والتمكين في ذلك، أيِسَ منه الشيطان وسائر القواطع، فلا يخشى أحدًا إلا الله، ولا يركن إلى شيء سواه، وأمِنَ من الرجوع في الغالب، إلا لأمر غالب،

@وَاللهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ }
[يُوسُف:21]. ولذلك قال بعضهم: (والله ما رجع من رجع إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع).

والوصول هو التمكين فيما ذكرنا، فإذا حصل على كمال المعرفة، ووقف على عرفة المعارف، فقد كمل دينه واستقام أمره، وظهرت أنواره، وتحققت أسراره، وما بقي إلا الترقي في الأسرار أبدًا سرمدًا، والسير في المقامات كسير الشمس في المنازل، ينتقل فيها من مقام إلى مقام، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف، وتارة ما يوجب الرجاء، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم، وتارة ما يوجب التوكل، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقة، ولا يقف مع مقام ولا مع حال؛ لأنه خليفة الله في أرضه، وقد قال تعالى:
{ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ }
[الرحمن:29]، هذا هو التلوين بعد التمكين. والله تعالى أعلم.

{... فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قال البيضاوي: هو متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي. هـ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فمن اضطر } إلى تناول شيء من هذه المحرمات { في مخمصة } أي: مجاعة، حال كونه { غير متجانف } أي: مائل للإثم وقاصد له، بأن يأكلها تلذذًا أو متجاوزًا حد الرخصة، قيل: هو سد الرمق، وقال ابن أبي زيد: يأكل

منها ويتزود، فإن استغنى عنها طرحها. هـ. فإن تناولها للضرورة { فإن الله غفور } له { رحيم } به؛ حيث أباحها له في تلك الحالة.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدنيا كلها كالميتة، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشربًا وملبسًا ومركبًا، حتى يتحقق له الوصول، فما بقي لأحد حينئذٍ ما يقول، وعلامة الوصول: هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه، إن افتقر اغتنى في فقره، وإن ذل عز في ذله، وإن فقد وجد في فقده، وهكذا في تقلبات الأحوال لا يتضعضع ولا يتزلزل، ولو سقطت السماء على الأرض. والله تعالى أعلم.

@{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } * { الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِيا أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

{ يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ... }

قلت: لم يقل ماذا أحل لنا؛ لأن { يسألونك } بلفظ الغيبة، وكلا الوجهين شائع في أمثاله. قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يسألونك } يا محمد عن الذي { أُحل لهم } من المآكل، بعد الذي حرم عليهم من الخبائث، فقل لهم: { أحل لكم الطيبات } وهو عند مالك: ما لم يدل دليل على تحريمه من كتاب ولا سنة، وعند الشافعي: ما يستلذه الطبع السليم ولم يقّر عنه، فحرم الخنافس وشبهها، { و } أحل لكم صيد { ما علّمتم من الجوارح } أي: الكواسب، وهي الكلاب ونحوها، مما يصطاد به ويكسب الصيد على أهله، من سباع وذوات أربع، وطير، ونحوها، حال كونكم { مُكلبين } أي: معلمين لها الاصطياد، أي: مؤدبين لها، { تُعلمونهن مما علمكم الله } من الحيل وصدق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة من الله لابن آدم. وحد التعليم عند ابن القاسم: أن يفهم الجارح الإشلاء والزجر، وقيل: الإشلاء؛ أي: التسلط ـ فقط، وقيل؛ الزجر فقط، وقيل: أن يجيب إذا دُعي.

{ فكلوا مما أمسكن عليكم } ولم يأكل منه، لقوله صلى الله عليه وسلم: " وإن أكَلَ، فلاَ تَأكُل؛ فَإنَّما أمسكَ عَلَى نَفسِه " وهو مذهب الشافعي، وقال مالك: يؤكل مطلقًا لما في بعض الأحاديث: " وإن أكلَ فكُل " ، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سَباع الطير؛ لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر.

{ واذكروا اسم الله عليه } أي: على ما علمتم عند إرساله، ولو لم ير المرسل عليه، وكذا عند الرمي المحدد ونحوه، فإن سمي على شيء مُعين ووجد غيره لم يؤكل، أو التبس مع غيره، وإن سمي على ما وجد أكل الجميع، ولا بد من نية الذكاة عند الإرسال أو الرمي، واختلف في حكم التسمية، فقال الظاهرية: أنها واجبة

مطلقًا، فإن تركت عمدًا أو سهوًا لم تؤكل عندهم، وقال الشافعي: مستحبة، حملاً للأمر على الندب، فإن تركت عمدًا أو سهوًا أكلت عنده.

وجعل بعضُهم الضمير في { عليه } ، عائدًا على الأكل، فليس فيها على هذا أمر بالتسمية على الصيد، ومذهب مالك: أنه إن تركت التسمية عمدًا لم تؤكل، وإن تركت سهوًا أكلت، فهي عنده واجبة بالذكر ساقطة بالنسيان، وهذا الخلاف جار في الذكاة كلها.

{ واتقوا الله } في اجتناب محرماته، { إن الله سريع الحساب } ، فيؤاخذكم على ما جلّ ودق.

{ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أُتوا الكتاب حل لكم } فيتناول الذبائح وغيرها، ويعم أهل الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ نصارى بني تغلب، وقال: (ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر). @ولا يلحق بهم المجوس في ذلك، وإن ألحقوا بهم في الجزية، لقوله صلى الله عليه وسلم " سُنوا بهم سُنةَ أهلِ الكِتاب، غير ألا تنكحوا نساءهم، ولا تأكلوا ذبائحهم " وكذلك المرتد مطلقًا لا تؤكل ذكاته.

قال ابن جزي: وأما الطعام، فهو على ثلاثة أقسام: أحدها: الذبائح، قد اتفق العلماء على أنها مرادة في الآية، فأجازوا أكل ذبائح اليهود والنصارى، واختلفوا فيما هو محرم عليهم في دينهم، على ثلاثة أقوال: الجواز، والمنع، والكراهة، وهو مبني على: هل هو من طعامهم أم لا؟ فإن أريد بطعامهم ما ذبحوه، جازت، وإن أريد ما يحل لهم، مُنع والكراهة توسط بين القولين. الثاني: ما لا محاولة لهم فيه، كالقمح والفاكهة، فهو جائز لنا اتفاقًا. والثالث: ما فيه محاولة كالخبز وتعصير الزيت وعقد الجبن، وشبه ذلك مما يمكن استعمال النجاسة فيه، فمنعه ابن عباس؛ لأنه رأى أن طعامهم هو الذبائح خاصة، وأجازه الجمهور. لأنه رأوه داخلاً في طعامهم، وهذا إذا كان استعمال النجاسة فيه محتملاً، أما إذا تحققنا استعمال النجاسة فيه؛ كالخمر والخنزير والميتة، فلا يجوز أصلاً، وقد صنف الطرطوشي في تحريم جبن النصارى، وقال: إنه يُنجس البائع والمشتري والآلة؛ لأنهم يعقدونه على أنفحه الميتة. هـ.

{ وطعامكم حِلٌّ لهم } ، فلا بأس أن تُطعموهم من طعامكم، وتبيعوه لهم، وأما ما حرم عليهم، فلا يجوز بيعه منهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يسألونك أيها العارف الرباني ماذ أحل للفقراء من الأعمال والأحوال، قل لهم: أحل لكم الطيبات، أي: الخالص من الأعمال، والصافي من الأحوال، والتلذذ بحلاوة المشاهدة والمكالمة، وما اصطادت لكم أنفسكم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بقدر تزكيتها وتربيتها، فكلوا مما أمسكن عليكم، أي: تمتعوا بما أتت به لكم من أبكار الحِكَم وعرائس الحقائق، فإن أتت شيء من علوم الحس، فاذكروا اسم الله عليه ينقلب معاني، واتقوا الله أن تقفوا مع شيء سواه، { إن الله سريع الحساب }؛ فيحاسبكم على الخواطر والطوارق إن لم تعرفوا فيها. اليوم أحل لكم الطيبات، أي: حين دخلتم بلاد المعاني ورسختم فيها، أحل لكم التمتع بالمشاهدات والمناجات، وطعام العلوم الظاهرة حِلٌّ لكم تتوسعون بها، وطعامكم حل لهم، أي: وتذكيركم بما يقدرون عليه حِلٌّ لهم؛ لأن العارف الكامل يُسير كل واحد على سيره، ويتلون معه بلونه، يُقره في بلده ويحوشه إلى ربه. نفعنا الله بذكره. آمين.

ثم تكلم على ما بقي من حفظ الأنساب، وهو جواز نكاح الكتابية؛ إذ لم يتكلم عليه في سورة النساء، فقال:

{.
@.. وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِيا أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: وأحل لكم { المحصنات } أي: الحرائر { من المؤمنات } دون الإماء، إلا لخوف العنت، أو العفيفات دون البغايا، فإن نكاحها مكروه، { و } أحل لكم { المحصنات } أي: الحرائر { من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم } ، فأحل الله نكاح اليهودية والنصرانية الحُرتين دون إمائهم، { إذا أتيتموهن أجورهن } أي: أعطيتموهن مهورهن. فلا يجوز نكاح الكتابية إلا بصداق شرعي. حال كونكم { محصنين } ، أي: متعففيين عن الزنى بنكاحها، { غير مسافحين } أي: مجاهرين بالزنى، { ولا متخذي أخدان } أي: أصحاب تُسرون معهن بالزنى، والخدن: الصاحب، يقع على الذكر والأنثى. والمعنى: أحللنا لكم نكاح الكتابيات، توسعة عليكم لتتعففوا عن الزنى سرًّا وجهرًا.

ولما نزل إباحة الكتابيات قال بعض الناس: كيف أتزوج من ليس على ديني؟ فأنزل الله: { ومن يكفر بالإيمان } أي: بشرائع الإيمان { فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين } ، ومن الكفر به إنكاره والامتناع منه.

الإشارة: قد تقدم أن علوم الحقائق أبكار، لأنها عرائس مخدّرة، مهرها النفوس، وما سواها من العلوم ثيبات وإماء؛ لرخص مهرها، فإذا اتصل العارف بعلوم الحقائق ورسخ فيها؛ أحل له أن ينكح المحصنات من علوم الطريقة ـ وهي مبادىء التصوف، أي: التفنن فيها مع أهلها على وجه التركيز أو التعليم، والمحصنات من علوم الشريعة إذا أعطاها مهرها؛ من الإخلاص وقصد التوسع بها وتعليمها لأهلها، وهذه العلوم كلها مشروعة، والمشتغل بها متوجه إلى الله تعالى،
{ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ }
[البقرة:60]، فمن كفر بها فقد حبط عمله، وهو عند الله من الخاسرين.

@{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـاكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

قلت: { إذا قمتم }: أردتم القيام، كقوله:
{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ }
[النّحل:98]، حذف الإرادة للإيجاز، وللتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، وقوله: { برؤوسكم } الباء للإلصاق، تقول: أمسكتُ بثوب زيد، أي: ألصقت يدي به، أي: ألصقوا المسح برؤوسكم، أو للتبعيض،

وهذا سبب الخلاف في مسحه كله أو بعضه، فقال مالك: واجب كله، وقال الشافعي: أقل ما يقع عليه اسم الرأس، ولو قلّ. وقال أبو حنيفة: الربع.

{ وأرجلكم } ، مَن نَصَبَ عطف على الوجه، ومن خفض فعلى الجوار، وفائدته: التنبيه على قلة صبَّ الماء، حتى يكون غسلاً يقرب من المسح. قاله البيضاوي: ورده في المُغني فقال: الجوار يكون في النعت قليلاً، وفي التوكيد نادرًا، ولا يكون في النسق؛ لأن العاطف يمنع من التجاور، وقال الزمخشري: لمّا كانت الأرجل بين الأعضاء الثلاثة مغسولات، تغسل بصب الماء عليها، كان مظنة الإسراف المذموم شرعًا، فعطف على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها، وجيء فيهما بالغاية إماطة لظن من يظن أنها ممسوحة؛ لأن المسح لم يضرب له غاية في الشريعة. هـ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } إذا أردتم القيام { إلى الصلاة } وأنتم محدثون { فاغسلوا وجوهكم } من منابت شعر الرأس المعتاد إلى الذقن، ومن الأذن إلى الأذن، { وأيديكم إلى المرافق } أي: معها، { وامسحوا برؤوسكم } أي: جميعها أو بعضها على خلاف، { وأرجلكم إلى الكعبين } العظمين الناتئين في مفصلي الساقين، فهذه أربعة فرائض، وبقيت النية لقوله:
{ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ }
[البَيِّنَة:5]، ولقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: " إنما الأعمال بالنيات " والدلك؛ إذًا لا يسمى غسلاً إلا به، وإلا كان غمسًا، والفور؛ لأن العبادة إذا لم تتصل كانت عبثًا. ولمّا عطفت بالواو، وهي لا ترتب، علمنا أن الترتيب سنة.

{ وإن كنتم مرضى } لم تقدروا على الماء { أو على سفر } ولم تجدوه، أو في الحضر؛ و { جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء } بالجماع أو غيره { ولم تجدوا ماء فتيموا صعيدًا طيبًا فامسحوا بوجوهكم } أي: جميعه { وأيديكم منه } ، وقيد الحضر بفقد الماء دون السفر؛ لأن السفر مظنة إعوازه، فالآية نص في تيمم الحاضر الصحيح للصلوات كلها. قال البيضاوي: وإنما كرره، ـ يعني مع ما في النساء ـ ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. هـ.

ثم قال تعالى: { ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج } حتى يكلفكم بالطهارة في المرض أو الفقد من غير انتقال للتيمم، { ولكن يريد ليطهركم } أي: ينظفكم بالماء أو بدله، أو يطهركم من الذنوب، فإن الذنوب تذهب مع صب الماء في كل عضو، كما في الحديث، { وليتم نعمته عليكم } بشرعه، ما هو مَطهَرَةٌ لأبدانكم، ومَكفَرَة لذنوبكم { ولعلكم تشكرون } نعمه فيزيدكم من فضله.
@الإشارة: كما أمر الحقّ جلّ جلاله بتطهير الظاهر لدخول حضرة الصلاة، التي هل محل المناجاة ومعدن المصافاة، أمر أيضًا بتطهير الباطن من لوث السهو والغفلات، فمن طهر ظاهره من الأوساخ والنجاسات، ولوّث باطنه بالوساوس والغفلات، كان بعيدًا من حضرة الصلاة؛ إذ لا عبرة بحركة الأبدان، وإنما المطلوب حضور الجنان.

قال القشيري: وكما أن للظاهر طهارةً فللسرائر طهارة، فطهارة الظاهر بماء السماء، أي: المطر، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل، ويجب غسلُ الوجه عند القيام إلى الصلاة، ويجب ـ في بيان الإشارة ـ صيانة الوجه عن التبذل للأشكال عن طلب خسائس الأغراض، وكما يجب مسحُ الرأس، يجب صونه عن التواضع لكل أحد ـ أي: في طلب الحظوظ والأعراض ـ وكما يجب غسل

الرجلين في الطهارة الظاهرة، يجب صونها ـ في الطهارة الباطنة ـ عن التنقل فيما لا يجوز. هـ.

وقال عند قوله: { وإن كنتم جُنبًا فاطهروا }: وكما يجب طهارة الأعلى، أي: الظاهر، فيقتضي غسل جميع البدن، فقد يقع للمريد فترة ـ توجب عليه الاستقصاء في الطهارة الباطنية ـ فذلك إذا لم يجد المريد مَن يفيض عليه صَوبَ همته، ويغسله ببركات إشارته، اشتغل بما يُنشر له من اقتفاء آثارهم، والاسترواح إلى ما يجد من سالف سِيرتهم، ومأثور حكياتهم. هـ.

قلت: محصل كلامه أن من سقط على شيخ التربية، كان كمن وجد الماء فاستعمل الطهارة الأصلية الحقيقية، ومن لم يسقط على شيخ التربية، كان كالمستعمل للطهارة الفرعية المجازية؛ وهي التيمم، وإلى ذلك أشار الغزالي، لما سقط على الشيخ، ولامه ابن العربي الفقيه على التجريد، فقال:

قّد تَيَمَّمت بالصَّعِيدِ زَمَانًا والآن قّد ظَفِرتَ بالمَاء
مَن سَرَى مطبقَ الجُفُونِ وأضحى فَاتِحًا لا يردُّها للعَمَاء

ثم قال: لمَّا طَلَعَ قمرُ السَّعَادةِ في ملك الإرَادَة وأشرقت شمسُ الوُصوُلِ على أُفقِ الأُصُول:

تَرَكتُ هَوَى لَيلَى وسُعدَى بمعزلٍ ومِلتُ إلى عَلياءِ أول مَنزلِ
فنادَتني الأوطانُ أهلاً ومرحَبًا إلا أيها السَّارِي رُوَيدَكَ فانزِلِ
غَزَلْتُ لهم غَزلاً رقِيقًا فلم أجِد لِغزلِي نَسَّاجًا فَكسَّرتُ مِغزَلِي

@{ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { واذكروا نعمة الله عليكم } بالهداية والعز والنصر، { و } اذكروا { ميثاقه الذي واثقكم به } حين بايعتم نبيه في بيعة العقبة وبيعة الرضوان على الجهاد وإظهار الدين، وعلى السمع والطاعة المنشط والمكره، حين { قلتم } له: { سمعنا وأطعنا } فيما تأمرنا به في عسرنا ويسرنا، في منشطنا ومكرهنا، { واتقوا الله } في نقض العهود، { إن الله عليكم بذات الصدور } أي: خفياتها، فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم، والمقصود: الترغيب في الجهاد الذي هو من كمال الدين.

الإشارة: يقال للفقراء الذين مّن الله عليهم بصحبة شيوخ التربية، وأخذوا عنهم العهد ألا يخالفوهم: اذكروا نعمة الله عليكم، حيث يسَّر لكم من يُسَيّركم إلى حضرة ربكم، ويعرفكم به، وغيركم يقول: إنه معدوم، أو خفي لا يعرفه أحد، وهذا الكنز الذي سقطتم عليه، قلَّ من وجده، واذكروا أيضًا ميثاقه الذي واثقه عليكم ألا تخالفوهم، ولو أدى الأمر إلى حتف أنفكم.

كان شيخ شيوخنا ـ سيدي العربي بن عبد الله، يقول: الفقير الصادق، هو الذي إذا قال له شيخه: ادخل في عين الإبرة، يقوم مبادرًا يُحاول ذلك، ولا يتردد. وقال أيضًا: (صاحبي هو الذي نقتله بشعرة)، وقد تقرر أن من قال لشيخه: لِمَ، لا يفلح، وهذا أمر مقرر في علم التربية؛ كما في قضية الخضر مع سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ. واتقوا الله في اعتقاد مخالفتهم سرًا؛ { إن الله عليم بذات الصدور } فإن

الاعتراض سرًا أقبح؛ لانه خيانة، فليبادر المريد بالتوبة منه ويغسله من قلبه. والله تعالى أعلم.

@{ يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىا أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىا وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } * { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } * { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُوْلَـائِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }

قلت: { وعد }: يتعدى إلى مفعولين، وحذف هذا الثاني، أي: وعدهم أجرًا عظيمًا، دل عليه الجملة بعده.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا }؛ عَامٌّ أريد به خاص، وهم أولو الأمر منهم، الذين يلُون الحكم بين الناس، وما تقدم في سورة النساء باقٍ على عمومه، أي: { كونوا قوامين } على من تحت حكمكم، راعين لهم؛ فإنكم مسؤولون عن رعيتكم، وكونوا مخلصين { لله } في قيامكم وولايتكم، { شهداء } على أنفسكم بالعدل، تشهدون عليها بالحق إن توجه عليها، ولا تمنعكم الرئاسة من الإنصاف في الحق، إن توجه عليكم، أو على أقاربكم وأصدقائكم، ولا على عدوكم { ولا يجرمنكم } أي: ولا يحملنكم { شنئان قوم } أي: شدة بغضهم لكم، { على ألا تعدلوا } فيهم، فتمنعوهم من حقهم، أو تزيدوا في نكالهم، تشفيًا وغيظًا.

{ اعدلوا هو } أي: العدل { أقرب للتقوى } ، قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبيَّن أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبيَّن أنه مقتضى الهوى. فإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما بالك مع المؤمنين؟. هـ. { واتقوا الله }؛ ولا تراقبوا سواه، { إن الله خبير بما تعملون } فيجازي كلاًّ على عمله، من عدل أو جور.

ثم ذكر ثواب من امتثل، فقال: { وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم } ، وأفضل الأعمال: العدل في الأحكام. قال عليه الصلاة والسلام: " المُقسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِن نُورٍ يومَ القيامة " .. الحديث، هو من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

ثم ذكر وعيد ضدهم، فقال: { والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم } كما هو عادته تعالى، يشفع بضد الفريق الذي يذكر أولاً، وفاءً لحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم. وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى:
{ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ }
[النِّسَاء:58] وتكميل لها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أمر الحق جل جلاله شيوخ التربية أن يعدلوا بين الفقراء في النظرة والإمداد، ولا يحملهم سوء آدب أحدهم، أو قلة محبته وصدقه، أن يبعده أو يمقته؛ لأن قلوبهم صافية، لا تحمل الكدر، فهم يحسنون إلى من أساء إليهم من العوام، فضلاً عن أصحابهم؛ فهم مأمورون بالتسوية بينهم في التذكير والإمداد. والله تعالى يقسم بينهم على قدر صدقهم ومحبتهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " إنما أنا قاسمٌ والله مُعطي " أي: إنما أنا أُبين كيفية التوصل إلى الحق، والله ـ تعالى ـ

يتولى إعطاء ذلك لمن يشاء من خلقه، فالأنبياء والأولياء مثلهم في بيان الطريق بالوعظ والتذكير، كمن يُبين قسمة التركة بالقلم، والحاكم هو الذي يوصل إلى كل واحد من الورثة ما كان يَنُوبُه في التركة، كذلك المذكِّر والمربي، بين المقامات، والله يعطي ذلك بحكمته وفضله. والله تعالى أعلم.

@{ يَا أَيُّهَآ الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين أمنوا اذكروا نعمة الله عليكم } بحفظه إياكم من عدوكم؛ { إذ هَمَّ قوم } أي: حين هَمَّ الكفار { أن يبسطوا إليكم أيديهم } بالقتل، { فكفّ أيديهم عنكم } ، ولما كانت مصيبة قتل النبي صلى الله عليه وسلم ـ لو قُتل ـ تَعُمُّ المؤمنين كلهم، خاطبهم جميعاً، وهي إشارة إلى ما همت به بنو قريظة، من قتله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أتى بني قريظة، ومعه الخلفاءُ الأربعة؛ يَستَعينهم في دية رجلين مسلمين، قتلهما عَمرو بن أمية الضمري، خطأ، يظنهما مشركَين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قد آن لنا أن نعينك فاجلس حتى تطعم، فأجلسوه، وهموا بقتله، فعمد عَمرُو بن جُحَاش إلى رَحى عظيمةٍ ليَطرحَها عليه، فأمسَكَ اللهُ يده، ونزل جِبرِيلُ فأخبَرُه، فخَرَج النَّبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولحقه أصحابُه، وهذا كان سبب قتلهم في غزوة بن قريظة.

وقيل: نزلت في قضية غَورث، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ببطن نخلة حاصرًا لغطفان، فقال رجل منهم: هل لكم في أن أقتل محمدًا فأفتك به؟ قالوا: وددنا ذلك، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم متقلدًا سيفه، فَوجد النبي صلى الله عليه وسلم نازلاً تحت شجرة قد تفرق أصحابه عنه، وقد علق سيفه في الشجرة، فسله الأعرابي، وقال: من يمنعك مني؟ وفي رواية: وجد النبي صلى الله عليه وسلم نائمًا فاستل السيف، فما استيقظ النبي إلا والسيف في يد الأعرابي، فقال: من يمنعك من يا محمد؟ فقال: " الله " ، فأسقطه جبريل من يده، وأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " وأنت، من يمنعك مني؟ " فقال: كن خير آخذ، فعفى عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. زاد البيضاوي: أنه أسلم.

وقيل نزلت في صلاة الخوف حين همَّ المشركون أن يُغِيرُوا على المسلمين في الصلاة. فالله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: { واتقوا الله } فلا تشهدوا معه سواه، وتوكلوا عليه يكفكم أمر عدوكم، { وعلى الله فليتوكل المؤمنون } فإنه يكفيكم أمرهم جلبًا ودفعًا، من توكل على الله كفاه.

الإشارة: ما جرى على النبي صلى الله عليه وسلم من قصد القتل والإذاية يجري على خواص ورثته، وهم الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ والعلماء الأتقياء، فقد هَمَّ قوم بقتلهم وسجنهم وضربهم، وإجلائهم من أوطانهم، فكف الله أيديهم عنهم، وكفاهم شرهم، لمّا صححوا التوكل عليه، وأخلصوا الوجهة إليه، ومنهم من لحقه شيء من ذلك، كما لحق بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ زيادة في شرفهم وكرامتهم، جمع الله لهم بين مقام الشهادة والصديقية، { والله ذو الفضل العظيم }.

@{ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِيا إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذالِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ } * { فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىا خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

قلت: النقيب: هو كبير القوم والمقدَّم عليهم، ينقب عن أحوالهم ويفتش عليها. والخائنة: إما مصدر؛ كالعاقبة واللاغية، أو اسم فاعل، والتاء للمبالغة، مثل: رواية ونسَّابة وعلاَّمة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل } على أن يجاهدوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وينصروه، ويلتزموا أحكام التوراة، { وبعثنا منهم اثني عشر نقيبًا } اخترناهم وقدمناهم، على كل سبط نقيبًا ينقب عن أحوال قومه، ويقوم بأمرهم، ويتكفل بهم فيما أمروا به.

رُوِي أن بني إسرائيل لمَّا خرجوا عن فرعون، واستقروا بأوائل الشام، أمرهم الله تعالى بالمسير إلى بيت المقدس، وهي في الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، وقال: إني كتبتها لكم دارًا وقرارًا، فأخرجوا إليها، وجاهدوا مَن فيها من العدو، فإني ناصركم. وقال لموسى عليه السلام: خذ من قومك اثني عشر نقيبًا، من كل سبط نقيبًا، يكون أمينًا وكفيلاً على قومه بالوفاء على ما أمروا به. فاختار موسى النقباء، فسار بهم حتى إذا دنوا من أرض كنعان، وهي أريحا، بعث هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم بما يرون، فلما قربوا من الأرض المقدسة رأوا أجرامًا عظامًا وبأسًا شديدًا، فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم، إلا كالب بن يوقنا ـ من سبط يهوذا ـ ويوشع بن نون ـ من سبط إفراثيم بن يوسف ـ ثم { قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين } إلى آخر ما يأتي من قصتهم. وأما ما ذكره الثعلبي هذا، وغيره، من قصة عوج بن عناق، فقال القسطلاني: هي باطلة من وضع الزنادقة، فلا يجوز ذكرها في تفسير كتاب الله الصادق المصدوق.

{ وقال الله } لبني إسرائيل: { إني معكم } بالنصر والمعونة؛ { لئن أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة وآمنتم برُسلي } التي أرسلتُ بعد موسى { وعزرتموهم } أي: نصرتموهم وقويتموهم، { وأقرضتم الله قرضًا حسنًا } بالإنفاق في سُبُل الخير، { لأكفّرنّ عنكم سيئاتكم } أي: أستر عنكم ذنوبكم فلا نفضحكم بها، { ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك } العهد المؤكد، المعلَق عليه هذا الوعد العظيم، { فقد ضلّ سواء السبيل } أي: تلف عن وسط الطريق، تلفًا لا شبهة فيه ولا عذر معه، بخلاف من كفر قبل أخذ العهد؛ فيمكن أن تكون له شبهة، ويتوهم له معذرة.

ثم إن بني إسرائيل نقضوا المواثيق التي أُخذت عليهم، فكفروا وقتلوا الأنبياء، قال تعالى: { فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم } أي: طردناهم وأبعدناهم، أو مسخناهم، { وجعلنا قلوبهم قاسية } أي: يابسة صلبة لا ينفع فيها الوعظ والتذكير، أو رديَّة مغشوشة بمرض الذنوب والكفر.

ثم بيَّن نتيجة قوة قلوبهم فقال: { يُحرفون الكلم عن مواضعه } لفظًا أو تأويلاً. ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب الله وتحريفه، { ونسوا حظًا مما ذُكروا به } أي: تركوا نصيبًا واجبًا مما ذُكروا به من التوراة، فلو عملوا بما ذكَّرهم الله في التوراة ما نقضوا العهود وحرّفوا كلام الله من بعد ما علموه، لكن رَين الذنوب والأنهماك في المعاصي، غطت قلوبهم فقست ويبست، { ولا تزال } يا محمد { تطلع على خائنة } أي: خيانة { منهم } أو على طائفة خائنة منهم، لأن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم، فلا تزال ترى ذلك منهم { إلا قليلاً منهم } لم يخونوا، وهم الذين أسلموا منهم، { فاعف عنهم واصفح } حتى يأتيك أمر الله فيهم، أو إن تابوا وآمنوا، أو إن عاهدوا والتزموا الجزية، { إنَّ الله يحبّ المحسنين } إلى عباده كيفما كانوا.
@ومن الإحسان إليهم: جبرهم على الإيمان بالسيف وسوقهم إلى الجنة بسلاسل الامتحان.

الإشارة: قد أخذ الله على هذه الأمة أن يلتزموا أحكام القرآن، ويحافظوا على مراسم الإسلام والإيمان ويجاهدوا نفوسهم في تحصيل مقام الإحسان، وبَعث من يقوم ببيان شرائع الإسلام والإيمان، ومن يعرف الطريق إلى مقام الإحسان، وقال الله لهم: { إني معكم } بالنصر والتأييد، لئن أقمتم شرائع الإسلام، وحققتم قواعد الإيمان وعظمتم من يعرفكم بطريق الإحسان، لأغطين مساوئكم، ولأمحقن دعاويكم، فأوصلكم بما منى إليكم من الكرم والجود، ولأدخلنكم جنة المعارف تجري من تحتها أنهار العلوم وأنواع الحِكَم، فمن لم يقم بهذا، أو جحده فقد ضل عن طريق الرشاد، ومن نقض عهد الشيوخ المعرفين بمقام الإحسان، فقد طرد وأبعد غاية الإبعاد، وقسا قلبه، بعد اللين. وقد ذكرنا في تفسير الفاتحه الكبير معنى النقباء والنجباء وسائر مراتب الأولياء، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@{ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَىا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىا يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: وأخذنا أيضًا عهدًا وميثاقًا من النصارى، الذين سموا أنفسهم نصارى؛ ادعاء لنصرة عيسى عليه السلام ولم يقوموا بواجب ذلك عملاً واعتقادًا، أخذناه عليهم بالتزام أحكام الإنجيل، وأن يؤمنوا بالله وحده لا شريك له، ولا صاحبة ولا ولد، وأن يؤمنوا بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن أدركوه ويتبعوه، { فنسوا حظًا مما ذُكروا به } أي: نسوا ما ذكرناهم به، وتركوا حظًا واجبًا مما كلفوا به، { فأغرينا } أي: سلطنا { بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة } ، فهم يقتتلون في البر والبحر، ويتحاربون إلى يوم القيامة، فكل فرقة تلعن أختها وتكفرها، أو بينهم وبين اليهود، فالعداوة بينهم دائمة، { وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون } بالجزاء العقاب.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن من نقض العهد مع الله؛ بمخالفة ما أمره به أو نهاه عنه. أو مع أولياء الله، بالانتقاد عليهم وعدم موالاتهم، ألقى الله في قلب عباده العداوة والبغضاء له، فيبغضه الله، ويبغضه عبادُ الله، ومن أوفى بما أخذه الله عليه من العهد بوفاء ما كلفه به، واجتناب ما نهاه عنه، وتودد إلى أوليائه، ألقى الله في قلب عباده المحبة والوداد، فيحبه الله، ويحبه عباد الله، ويتعطف عليه أولياء الله، كما في الحديث: " إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريلُ، إنَّ اللهَ يحبّ فلانًا فأَحِبَّه، فيُحِبَّهُ

جبرِيلُ. ثم يُنَادِي في الملائكة: إن اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فأحِبُّوه. فيُحِبُّه أهلُ السَّمَاءِ، ثم يُلقَى له القَبولُ في الأرض " .. الحديث.

@{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } * { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

قلت: الضمير في: { به } ، يعود إلى النور والكتاب، ووحَّدَه؛ لأن المراد به شيء واحد، لأن النور هو الكتاب المبين، أو لأنهما جنس واحد.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أهل الكتاب } اليهود والنصارى { قد جاءكم رسولنا } محمد صلى الله عليه وسلم { يُبين لكم كثيرًا مما كنتم تُخفون من الكتاب } كصفة محمد صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم التي في التوراة، وكبشارة عيسى بأحمد التي في الإنجيل، { ويعفو عن كثير } مما تخفونه وتحرفونه، فلم يخبر به، ولم يفضحكم، حيث لم يؤمر به، أو عن كثير منكم، فلا يؤاخذه بجرمه وسوء أدبه معه.

{ قد جاءكم } يا أهل الكتاب { من الله نور وكتاب مبين } ، عطف تفسير، فالنور هو الكتاب المبين، أو النور: محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ والكتاب المبين: القرآن؛ لأنه الكاشف لظلمات الشك والضلال، والواضح الإعجاز والبيان، { يهدي به الله من اتبع رضوانه } أي: من اتبع رضى الله بالإيمان به، والعمل بما فيه، { سُبل السلام } أي: طريق السلامة من العذاب، أو طرق الله الموصلة إليه، { ويخرجهم من الظلمات إلى النور } من ظلمات الكفر، إلى نور الإسلام { بإذنه } أي: بإرادته وتوفيقه، { ويهديهم إلى صراط مستقيم } أي: طريق توصلهم إليه لا عوج فيها.

الإشارة: قد أطْلَع الله علماء الباطن على مقامات علماء الظاهر وأحوالهم وجل مساوئهم، ولا سيما من كان عالمًا بالظاهر ثم انتقل إلى علم الباطن، كالغزالي وابن عباد وغيرهما. فقد تكلم الغزالي في صدر الإحياء مع علماء الظاهر، ففضح كثيرًا من مساوئهم. وكذلك ابن عباد في شرح الحكم، وعفوًا عن كثير ـ فهم على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخواص ورثته، لأنهم حازوا الوراثة كلها، كما في المباحث:

تَبِعَةُ العَالِمِ في الأقوَال والعَابِدِ الزَّاهِدِ في الأفعَال
وفِيهما الصُّوفِيُّ في السباق لَكنَّه قَد زَادَ بالأخلاَق

فالولي نور من نور الله، وسر من أسراره، يُخرج به من سبقت له العناية من ظلمات الحجاب إلى نور الشهود، ويهدي به من اصطفاه لحضرته تعالى طريق الوصول إليه. وبالله التوفيق.

@{ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم } ، والقائل بهذه المقالة هي الطائفة اليعقوبية من النصارى، كما تقدم. وقيل: لم يصرح بهذه المقالة أحدٌ منهم. ولكن لزمهم حيث قالوا بأن اللاهوت حل في ناسوت

عيسى ـ مع أنهم يقولون الإله واحد، فلزمَهم أن يكون هو المسيح، ولزمهم الاتحاد والحلول؛ فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحًا لجهلهم، وتقبيحًا لمعتقدهم.

ثم رد عليهم بقوله: { قل فمن يملك من الله شيئًا } أي: من يمنع من قدرته وإرادته شيئًا، { إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا } ، وبيان الرد عليهم: أن المسيح مقدورٌ ومقهور، قابل للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو معزول عن الألوهية. ثم أزال شبهتهم بحجة أخرى فقال: { ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما } ، يتصرف فيهما كيف شاء، { يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير }؛ فقدرته عامة؛ فيخلق من غير أصل؛ كالسماوات والأرض، ومن أصل؛ كخلق ما بينهما، وينشىء من أصل ليس هو جنسه؛ كآدام وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه، إما من ذكر وحده؛ كحواء، أو من أنثى وحدها: كعيسى، أو منهما؛ كسائر الناس. قاله البيضاوي:

الإشارة: قد رُمي كثير من الأولياء المحققين بالاتحاد والحلول؛ كابن العربي الحاتمي، وابن الفارض، وابن سبعين، والششتري والحلاج، وغيرهم ـ رضي الله عنهم عنهم ـ وهم بُرءاء منه. وسبب ذلك أنهم لما خاضوا بحار التوحيد، وكُوشفوا بأسرار التفريد، أو أسرارِ المعاني قائمة بالأواني، سارية في كل شيء، ماحية لكل شيء، كما قال في الحِكَم: " الأكوان ثابتة بإثباته ممحوه بأحدية ذاته " فأرادوا أن يعبروا عن تلك المعاني فضاقت عبارتهم عنها؛ لأنه خارجة عن مدارك العقول، لا تدرك بالسطور ولا بالنقول. وإنما هي أذواق ووجدان؛ فمن عبَّر عنها بعبارة اللسان كفَّر وزندق، وهذه المعاني هي الخمرة الأزلية التي كانت خفية لطيفة، ثم ظهرت محاسنها، وأبدت أنوارها وأسرارها، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات، فمن عرفها وكوشف بها. اتحد عنده الوجود، وأفضى إلى مقام الشهود. وهي منزهة عن الحلول والاتحاد، إذ لا ثاني لها حتى تحل فيه أو تتحد معه، وقد أشرت إلى هذا المعنى في تائيتي الخمرية، حيث قلت:

تَنَزَّهت عن حُكمِ الحلول في وَصفِها فليسَ لها سِوَى في شَكلِه حَلَّتِ
تَجَلَّت عَرُوسًا فيِ مَرَائي جَمَالِها وأرخَت سُتُور الكِبرِياءِ لِعِزَّتِي
فَمَا ظَاهِرٌ في الكَونِ غيرُ بهائها وما احتَجَبَت إلا لَحجبِ سَرِيرتِي

فمن كوشف بأسرار هذه الخمرة، لم ير مع الحق سواه. كما قال بعضُ العارفين: (لو كُلفتُ أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده). ولو أظهرها الله تعالى للكفار لوجدوا أنفسهم عابدة لله دون شيء سواه، وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض على لسان الحقيقة:

فما قَصَدُوا غيرَه وإن كان قَصدهُم سِوَاي وإن لم يُظهِروا عَقدَ نِيّه

والنصارى ـ دمرهم الله في مقام الفرق والضلال ـ حملهم الجهل والتقليد الرديّ على مقالاتهم التي قالوا في عيسى عليه السلام.

@{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىا نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله } أي: أولاد بنيه؛ فاليهود يقولون: نحن أولاد عزير، والنصارى يقولون: نحن أشياع عيسى. أو: فينا أبناء الله ونحن أحباؤه، أو: نحن مقربون عند الله كقرب الولد من والده. وهذه دعوى

ردَّها عليهم بقوله: { قل } لهم: { فلِمَ يعذبكم بذنوبكم } ، وهل رأيتم والدًا يُعذب ابنه، وقد عذبكم في الدنيا بالمسخ والقتل والذل، وقد اعترفتم أنه يعذبكم بالنار أيامًا معدودة، { بل أنتم بشر ممن خلق } أي: ممن خلقه الله، { يغفر لمن يشاء } بفضله؛ وهو من آمن منهم بالله ورسوله، { ويعذب من يشاء } بعدله؛ وهو من مات منهم على كفره، فأنتم كسائر البشر يعاملكم معاملتهم، لا مزية لكم عليهم، { ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما } كلها سواء في كونها ملكًا وعبيدًا الله ـ سبحانه ـ { وإليه المصير } ، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى.

الإشارة: قوله تعالى: { فلِمَ يعذبكم بذنوبكم } أي: فلو كنتم أحباءه لما عذبكم؛ لأن الحبيب لا يعذب حبيبه، حُكي عن الشبلي رضي الله عنه أنه كان إذا لبس ثوبًا جديدًا مزقه، فأراد ابن مجاهد أن يعجزه بمحضر الوزير فقال له: أين تجد في العلم فساد ما ينتفع به؟ فقال له الشبلي: أين في العلم:
{ فَطَفِقَ مَسْحَا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ }
[صٓ:33]؟ فسكت، فقال له الشبلي: أنت مقرىء عند الناس، فأين في القرآن: إن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فسكت ابن مجاهد، ثم قال: قل يا أبا بكر، فقرأ له الشبلي قوله تعالى:
{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَآؤُاْ اللهِ وَأَحِبَّآؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم }
[المَائدة:18]، فقال ابن مجاهد: كأني والله ما سمعتها قط. هـ.

وفي الحديث: " إذا أحَبَّ اللهُ عبدًا لاَ يضُرُّه ذَنبٌ " ، ذكره في القوت. وفي المثل الشائع: (من سبقت له العناية لا تضره الجناية). وفي الصحيح " لعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أهلِ بَدرٍ فَقَالَ: افعَلُوا مَا شِئتم فَقَد غَفَرتُ لَكم " ، وسببه معلوم، وفي الوقت عن زيد بن أسلم: (إن الله ـ عز وجل ليحب حتى يبلغ من حبه له أن يقول له: اصنع ما شئت فقد غفرت لك). وفي القصد للشيخ أبي الحسن الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ قال: يبلغ الولي مبلغًا يقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. هـ.

وليس معناه إباحة الذنوب، ولكنه لمّا أحبه عصمه أو حفظه، وإذا قضى عليه بشيء ألهمه التوبة، وهي ماحية للذنوب، وصاحبها محبوب، قال تعالى: { إن الله يحب التوابين }. والله تعالى أعلم.

@{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىا فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: جملة { يُبين }: حال، أي: جاءكم رسولنا مبينًا لكم، و { على فترة }: متعلق بجاء، أي: جاءكم على حين فترة وانقطاع من الوحي، و { أن تقولوا }: مفعول من أجله، أي: كراهية أن تقولوا.

يقول الحقّ جلَ جلاله: { يا أهل الكتاب }؛ اليهود والنصارى { قد جاءكم رسولنا } محمد صلى الله عليه وسلم { يُبين لكم } ما اختلفتم فيه، أو ما كنتم من أوامر الدين، أو مطلق البيان. جاءكم { على } حين { فترة من الرسل } وانقطاع من الوحي، أرسلناه كراهية { إن تقولوا } يوم القيامة: { ما جاءنا من بشير ولا نذير

} ، فتعتذروا بذلك، { فقد جاءكم بشير ونذير } فلا عذر لكم، { والله على كل شيء قدير } فيقدر على الإرسال من غير فترة، كما في أنبياء بني إسرائيل؛ فقد كان بين موسى وعيسى ألف نبي، وبينهما ألف وسبعمائة سنة، وعلى الإرسال على الفترة، كما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم. كان بينهما ستمائة سنة، أو خمسمائة سنة وتسع وستون سنة. قاله البيضاوي:

والذي في الصحيح: أن الفترة ستمائة سنة، وفي الصحيح أيضًا عنه ـ عليه الصلاة السلام ـ: " أنا أولى النَّاس بعِيسَى في الأُولى والآخرة وليس بَينَنَا نبي " وهو يرد ما حكاه الزمخشري وغيره: أن بينهما أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب، وهو خالد بن سِنان العبسي؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم. قاله المحشي.

الإشارة: ظهور أهل التربية بعد زمان الفترة، وخمود أنوار الطريقة وأسرار الحقيقة، حجة على العباد، ونعمة كبيرة على أهلِ العشق والوداد، من انتكب عنهم لقي الله بقلب سقيم، وقامت بهم الحجة عليهم عند الملك الكريم، ومن اتبعهم وحطَ رأسه لهم فاز بالخير الجسيم، والنعيم المقيم؛ حيث لقي الله بقلب سليم، وقد ظهروا في زماننا هذا بعض اندراس أنوار الطريقة، وخمود أسرار الحقيقة، فجدد الله بهم الطريقة، وأحيا بهم أسرار الحقيقة، منهم شيخنا أبو المواهب صاحب العلوم اللدنية والأسرار الربانية، البحر الفياض، سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، وشيخه القطب الواضح، والجبل الراسخ، شيخ المشايخ، مولاي العربي الدرقاوي الحسني، أطال الله بركاتهما للأنام، فقد تخرج على أيديهما الجم الغفير من الأولياء، وليس الخبر كالعيان. وبالله التوفيق.

@{ وَإِذْ قَالَ مُوسَىا لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكر { إذ قال موسى لقومه }: يا بني إسرائيل { اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء } يسُوسُونكم، كلما مات نبي خلفه نبي، فقد شرفكم بهم دون غيركم، إذ لم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء، { وجعلكم ملوكًا } أي: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان.

وقيل: لمّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا.

{ وآتاكم ما لم يُؤت أحدًا من العالمين } من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها، أو المراد عالمي زمانهم، وعن أبي سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كَانَ بنو إسرَائيل إذا كَانَ لأحَدِهم خَادِمٌ وامرَأة يُكتَب مَلِكًا " وقال ابن عباس: (من كان له بيت وخادم وامراة فهو مَلِك)، وعن أبي الدرداء قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم " مَن أصبَحَ مُعَافًى في بَدَنِه، آمنًا في سِربِه، عِندَه قُوتُ يَومِه، فكأنما حِيزَت له الدنيا بحذافيرها، يكفيكَ منها، يا ابنَ آدم، ما سَدَّ

جوعَتَكَ، وَوَارَ عَورَتك، فإن كان بيتٌ يُوارِيك فذاك، وإن كانت دابة فبخ بخ، فلق الخبز، وماء الجر وما فَوق الإزار حِسَابٌ عليك ".

وقال الضحاك: (كانت منازلهم واسعة، فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعًا وفيه ماء جارٍ، فهو مالك). وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم، وأول من سخر لهم الخدم من بني آدم. هـ.

الإشارة: كل من رزقه الله من يأخذ بيده ومن يستعين به على ذكر ربه، فليذكر نعمة الله عليه، فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة. وكل من ملك نفسه وهواه، وأغناه الله عما سواه، فهو ملك من الملوك. وكل من خرجت فكرته عن دائرة الأكوان، واتصل بفضاء الشهود والعيان، فقد آتاه الله ما لم يؤت أحدًا من العالمين. وقد كُنتُ ذات يوم جالسًا في الجامع الأعظم من مدينة تطوان، فانتبعت فإذا مصحف إلى جنبي، فقال لي الهاتف: انظر تجد مقامك، فأعرضت عنه، فأعاد عليَّ الهاتف ثلاث مرات، فرفعته، ونظرت، فإذا في أول الورقة: { وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين } ، فحمدت الله تعالى وأثنيت عليه.

@{ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَىا أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } * { قَالُوا يَامُوسَا إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّا يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ } * { قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } * { قَالُواْ يَامُوسَا إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } * { قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } * { قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }

قلت: { فتنقلبوا }: منصوب بأن في جوب النهي، أو عطف على المجزوم، و { ما داموا }: بدل من { أبدًا }؛ بدل بعض، و { أخي } يحتمل النصب عطف على { نفسي } ، أو رفع عطف على { أن } مع اسمها، أو مبتدأ حُذف خبره، أو جر عطف على ياء المضاف، على مذهب الكوفيين.

يقول الحقّ جلّ جلاله: حاكيًا عن موسى ـ عليه السلام ـ: { يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة }؛ أرض بيت المقدس، قدسها الله، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين. وفي مدحها أحاديث كثيرة. وقيل: الطور وما حوله، أو دمشق وفلسطين، أو الشام، { التي كتب الله لكم } أي: التي كتب الله في اللوح المحفوظ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم، { ولا ترتدوا على أدباركم } أي: لا ترجعوا مدبرين هاربين خوفًا من الجبابرة، أو: لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان، وعدم الوثوق بالله، { فتنقلبوا خاسرين } الدنيا والآخرة. رُوِي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا، وقالوا: ليتنا متنا بمصر، تعالوا نجعل علينا رأسًا ينصرف بنا إلى مصر، ثم { قالوا يا موسى إن فيها قومًا جبارين } أقوياء متغالبين، لا طاقة لنا بمقاومتهم، وهم قوم من العمالقة، من بقية قوم عاد، { وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها } بأمر سماوي، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرها، { فإن يخرجوا منها فإنا داخلون } فيها.

{ قال رجلان }؛ كالب بن يوقنّا، ويوشع بن نون ـ ابن آخت موسى وخادمه ـ { من الذين يخافون } الله، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى، وعليه قراءة { يُخافان } بضم الياء، { أنعم الله عليهما } بالإسلام والتثبت، قالا: { ادخلوا عليهم الباب } أي: باب المدينة، أي: باغِتوهم بالقتال، { فإذا دخلتموه فإنكم غالبون } أي: ظاهرون عليهم، فإنهم أجسام لا قلوب فيها. يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قِبل موسى، أو من قوله تعالى: { التي كتب الله لكم } ، أو من عادته سبحانه في نصر رسله وأوليائه، وما عَهِدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه. ثم قال: { وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين } به، ومصدقين لوعده.

{ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها } ، وهذا من تعنتهم وعصيانهم، وأشنعُ منه قولهم: { فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } ، قالوه استهزاء بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وانظر فضيلة الأمة المحمدية، وكمال أدبها مع نبيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الحديبية لأصحابه حين صُد عن البيت: إني ذاهب بالهدي فناحِرُه عند البيت، فقال المقداد بنُ الأسود: أما والله ما تقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { فاذهب أنت وربك فقَاتلا إنا هآهنا قاعدون } ، ولكن نقاتل عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك من خلفك، ولو خُضت البحر لخضناه معك، ولو تسنَمت جبلاً لعلوناه معك، ولو ذهبت بنا إلى بَرك الغماد لتبعناك، فلما سمعها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تابعوه على ذلك فَسُرَ صلى الله عليه وسلم وأشرق وجهه.
@ولما سمع موسى مقالة قومه له غضب، ودعا ربه فقال: { ربّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي } أي: لا أثق إلا بنفسي وأخي، ولا قدرة لي على غيرهما، والرجلان المذكوران، وإن كانا موافقين له، لكنه لم يوثق عليهما، لما كبد من تلوّن قومه، ثم دعا عليهم فقال: { فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين } أي: احكم بيننا وبينهم بما يستحق كل واحد منا ومنهم، أو بالتبعيد بيننا وبينهم، وتخليصنا من صحبتهم.

رُوِي أنه لما دعا عليهم ظهر فوقهم الغمام، وأوحى الله إليه: يا موسى إلى متى يعصي هذا الشعب؟ لأهلكنهم جميعًا، فشفع فيهم موسى عليه السلام فقال الله تعالى له: قد غفرت لهم بشفاعتك، ولكن بعد ما سَميتَهم فاسقين، ودعوت عليهم، بي حلفت لأحرمنَّ عليهم دخول الأرض المقدسة، وذلك قوله تعالى: { قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض } يحتمل أن يكون " أربعين " متعلقًا بمحرمة، فيكون التحريم عليهم مؤقتًا غير مؤبد فيوافق ظاهر قوله: { التي كتب الله لكم }.

ويؤيد هذا ما رُوِي أن موسى ـ عليه السلام ـ لما خرج من التيه، سار بمن بقي معه من بني إسرائيل، ويوشع على مقدمته، ففتح بيت المقدس، فبقي فيها ما شاء الله، ثم قبض. ويحتمل أن يكون " أربعين " متعلقًا ب { يتيهون } ، فيكون التحريم مؤبدًا، وعلى هذا لم يبق أحد ممن دخل التيه إلا يوشع وكالب، ولم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال له: { اذهب أنت وربك... } ، بل كلهم هلكوا في التيه، وإنما دخلها أشياعهم.

رُوِي أن موسى عليه السلام لما حضره الموت في التيه أخبرهم بأن يوشع بعده نبي، وأن الله أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع، وقاتل الجبابرة وكان القتال يوم الجمعة، فبقيت منهم بقية، وكادت الشمس أن تغرب ليلة السبت، فخشي أن يعجزوه، فقال: اللهم اردد الشمس عليَّ، وقال للشمس: إنك في طاعة الله وأنا في

طاعته، فوقفت مثل يوم حتى قتلهم، ثم قتل ملوك الأرمانيين، وقتل مِن ملوك الشام أحدًا وثلاثين ملكًا، فصارت الشام كلها لبني إسرائيل، وفرَّق عماله في تواحيها، وبقيت بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة يتيهون في الأرض في ستة فراسخ، بين فلسطين وأيلة، متحيرين، يسيرون من الصباح إلى السماء جادين في السير، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، ثم يسيرون بالليل كذلك فيصبحون حيث ارتحلوا، وكان الغمام يظلهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى، وماؤهم من الحجر الذي يحمله موسى، واختلف في الكسوة، فقيل: أبقى الله كسوتهم معجزة لموسى، وقيل: كساهم مثل الظفر. @والأكثر أن موسى وهارون كانا معهم زيادة في درجاتهما، وكان عقوبة لقومهما وأنهما ماتا فيه، مات هارون أولاً ودفنه أخوه في كهف، وقيل: رُفع على سرير في قبة، ثم مات موسى ـ عليه السلام ـ ودفن بقرب من الأرض المقدسة، رمية بحجر، كما في الحديث، ثم دخل يوشع الأرض المقدسة بعد ثلاثة أشهر. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى لموسى عليه السلام: { فلا تأس } أي: لا تخزن، { على القوم الفاسقين } ، خاطبه الحق تعالى بذلك لمَّا ندم على الدعاء عليهم، فقال له: أنهم أحق بذلك لفسقهم وعصيانهم.

الإشارة: يقول الحقّ جلّ جلاله للمتوجهين إليه من المريدين: ادخلوا الحضرة المقدسة التي كتب الله لكم، إن دمتم على جهاد أنفسكم، وصدقتم في طلب ربكم، وبقيتم في تربية شيوخكم، ولا ترتدوا على أدباركم بالرجوع عن صحبة شيوخكم من الملل مع طول الأمل، فتنقلبوا خاسرين، فإن حضرتي محفوفة بالمكاره، والطريقة الموصلة إليها مرصودة للقواطع والعوائق، فإن كان ممن لم يكتب له فيها نصيب، قال: لن ندخلها أبدًا ما دام القواطع فيها، ورجع على عقبيه، يتيه في مهامه شكوكه وأوهامه، وإن كان ممن سبقت له العناية وحقت به الرعاية قال: { ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين } ، فيبادر إلى قتل نفسه، من غير تأن ولا خوف ولا فزع، فحضرة التحقيق لا ينالها إلا الشجعان، ولا يسكنها إلا الأكابر من أهل العرفان وإلى ذلك أشار صاحب العينية بقوله:

وإيَّاك جَزعًا لا يَهُولُكَ أمرُهَا فَمَا نَالَهَا إلا الشُّجاعُ المُقّارعُ

وقال الورتجبي في قوله تعالى: { لا أملك إلا نفسي وأخي }: من بلغ عين التمكين ملك نفسه وملك نفوس المريدين؛ لأنه عرفها بمعرفة الله، وقمعها من الله بسلطان سائس قاهر، من نظر إليه يفزع من الله، ولا يطيق عصيانه ظاهرًا وباطنًا، فأخبر عليه السلام عن محلّ تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحادًا، بحيث إنه إذا حكم على نفسه صار نفس أخيه مطمئنة طائعة لله بالانفعال. قال صلى الله عليه وسلم: " المؤمنون كنفس واحدة ".

@{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ } * { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيا أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } * { إِنِّيا أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ } * { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ }

قلت: الضمير في { عليهم }: لبني إسرائيل؛ لتقدم شأنهم، ولاختصاصهم بعلم قصة بني ابني آدم، ولإقامة الحجة عليهم بهمهم ببسط اليد إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { واتل عليهم } أي: على بني إسرائيل؛ إذ الكلام كان معهم، أو على جميع الأمة، أو على جميع الناس، إذ هو أول الكلام على بقية حفظ الأبدان ـ { نبأ ابني آدم } وهو قابيل وهابيل { بالحق } أي: تلاوة ملتبسة بالحق، أو نبأ ملتبسًا بالحق موافقًا لما في كتب الأوائل.

{ إذ قرّبا قربانًا فتُقبل من أحدهما } وهو هابيل، { ولم يتُقبل من الآخر } وهو قابيل، وسبب تقريبهما القربان أن آدم ـ عليه السلام ـ كان يُولد له من حواء توأمان في كل بطن: غلام وجارية، إلا شيئًا، فإنه ولد منفردًا، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين، بين ذكر وأنثى، في عشرين بطنًا، أولهم قابيل، وتوأمته أقليما، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده، وولد ولده، أربعين ألفًا، ورأى فيهم الزنا وشُرب الخمر والفساد، وكان غشيان آدم لحواء بعد مهبطهما إلى الأرض، وقال ابن إسحق عن بعض العلماء بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة، قبل أن يصيب الخطيئة، فحملت في الجنة بقابيل وتوأمته، ولم تجد عليهما وحمًا ولا غيره، وحملت في الأرض بهابيل وتوأمته، فوجدت عليهما الرحم والوصب والطلق والدم.

وكان آدم إذا كبر ولده يزوج غلام هذا البطن بجارية بطن آخر، فكان الرجل يتزوج أيّ أخواته شاء إلا تَوأمَته، لأنه لم يكن نساء يومئذٍ، فأمر الله تعالى آدم أن يزوج قابيل لِودَاء توأمة هابيل، وينكح هابيل أقليما أخت قابيل، وكانت أحسن الناس، فرضي هابيل وسخط قابيل، وقال: أختي أحسن، وهي من ولادة الجنة، وأنا أحق بها، فقال له أبوه: لا تحل لك، فأبى، فقال لهما آدم: قربًا وقربانًا، فأيكما قُبل قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل صاحب زرع، فقرَّب حِملاً من زرع رديء، وأضمر في نفسه: لا أُبالي قُبل أو لا، لا يتزوج أختي أبدًا، وكان هابيل صاحب غنم، فقرّب أحسن كبش عنده، وأضمر في نفسه الرضا لله تعالى، وكانت العادة حينئذٍ أن تنزل نارٌ من السماء فتأكل القربان المقبول، وإن لم يقبل لم تنزل، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فحسده، وقال له: { لأقتلنك } ، حسدًا على تقبل قربانه دونه، فقال له أخوه: { إنما يتقبل الله من المتقين } الكفر، أي: إنما أُوتيت من قبل نفسك بترك التقوى، لا من قِبلي، فِلمَ تقتلني؟

قال البيضاوي: وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره، ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظًا، لا في إزالة حظه، فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي.
@ وفيه نظر: فإن تقوى المعاصي ليست شرطًا في قبول الأعمال بإجماع أهل السنة، إلا أن يحمل على تقوى الرياء والعجب. انظر الحاشية.

ثم قال له أخوه هابيل: { لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يَدِيَ إليك لأقتلك إني أخاف الله ربّ العالمين } أي: لئن بدأتني بالقتل لم أبدأك به، أو لم

أدفعك عني، وهل تركه للدفع تورع، وهو الظاهر أو كان واجبًا عندهم، وهو قول مجاهد؟ وأما في شرعنا: فيجوز الدفع، بل يجب، قاله ابن جزي. وقال البيضاوي: قيل: كان هابيل أقوى منه، فتحرج عن قتله، واستسلم له خوفًا من الله، لأن الدفع لم يُبح بعدُ، أو تحريًا لِمَا هو الأفضل. قال صلى الله عليه وسلم: " كُن عبدَ الله المقتُول، ولا تكُن عبدَ الله القاتل " وإنما قال: { ما أنا بباسط } في جواب { لئن بسطت }؛ للتبري من هذا الفعل الشنيع، والتحرز من أن يوصف به، ولذلك أكد النفي بالباء. هـ.

ثم قال له هابيل: { إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار } أي: إني أريد بالاستسلام وعدم الدفع أن تنقلب إلى الله ملتبسًا بإثمي، أي: حاملاً لإثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك بيدك إليّ، ونحوه قوله صلى الله عليه وسلم: " المُستَبَّان ما قَالاَ فَعَلى البادِىء منهما مَا لَم يَعتَدِ المَظلُومُ " أو بإثم قتلى وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، أو بسائر ذنوبي فتحملها عني بسبب قتلك لي؛ فإن الظالم يجعل عليه يوم القيامة ذنوب المظلوم ثم يطرح في النار، ولذلك قال: { وذلك جزاء الظالمين } ، يحتمل أن يكون من كلام هابيل، أو استئناف من كلام الله تعالى، أي: جزاؤهم يوم القيامة أن يحملوا أوزار المظلومين، ثم يطرحون في النار، كما في حديث المفلس.

ولم يرد هابيل بقوله: { إني أريد } ، أنه يُحب معصية أخيه وشقاوته، بل قصد بذلك الكلام أنه إن كان القتل لا محالة واقعًا فأريد أن يكون لك لا لي، والمقصود بالذات: ألا يكون له، لا أن يكون لأخيه. ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته. وإرادة عقاب العاصي جائزة. قاله البيضاوي.

{ فطوّعت له نفسه قتل أخيه } أي: سهلت له ووسِعته ولم تضق منه، أو طاوعته عليه وزينته له، { فَقتله فأصبح من الخاسرين } دينًا ودنيا، فبقي مدة عمره مطرودًا محزونًا. قال السدي: لما قصد قابيلُ قتل هابيل، راغ هابيل في رؤوس الجبال، ثم أتاه يومًا من الأيام، فوجده نائمًا فشدخ رأسه بصخرة فمات، وقال ابن جريج: لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل؟ فتمثل له إبليس، وأخذ طيرًا فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وقابيل ينظر، فعلمه القتل، فوضع رأس أخيه على حجر ثم شدخه بحجر آخر.
@وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة، وقبره قيل: عند عقبة حراء، وقال ابن عباس: عند ثور وقال جعفر الصادق: بالبصرة، في موضع المسجد الأعظم.

الإشارة: قد تضمنت هذه الآية من طريق الإشارة ثلاث خصال، يجب التحقق بها على كل مؤمن متوجه إلى الله تعالى: أولها: التطهير من رذيلة الحسد، لاذي هو أول معصية ظهرت في السماء والأرض، وقد تقدم الكلام عليه في النساء، الثانية: التطهير من الشرك الجلي والخفي، والتغلغل في التبري من الذنوب التي توجب عدم قبول الإعمال، ويتحصل ذلك بتحقيق الإخلاص، والثالثة: عدم الانتصار للنفس والدفع عنها إلا فيما وجب شرعًا، فقد قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)؛ فلا ينتصر لنفسه ولو بالدعاء، فإما أن يسكت، أو يدعوا لظالمه بالرحمة والهداية، حتى يأخذ الله بيده اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم، حيث قال " اللهم اغفِر لِقَومي فَإنَّهُم لا يَعلَمُونَ ".

@{ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـاذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ }

قلت: { ليريه } أي: يعلمه، وضمير الفاعل يعود على " الله " أو الغراب، و { كيف }: حال من الضمير في { يُواري } والجملة مفعول ثان ليرى، أي: ليعلمه الله، أو الغراب، كيفية مواراة أخيه، و { يا ويلتا }: كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، كيا حسرتا ويا أسفا، و " أصبح " هنا بمعنى صار.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض } أي: يحفر فيها، { ليريه } أي: الله، أو الغراب، { كيف يُواري } أي: يستر { سوءة أخيه } أي: جسده؛ لأنه مما يستقبح أن يرى، وخصت بالذكر لأنها أحق بالستر من سائر الجسد، فعلّم اللهُ قابيل كيف يصنع بأخيه؛ لأنه لم يدر ما يصنع به، إذ هو أول ميت مات من بني آدم، فتحير في أمره، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدُهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه، ثم ألقاه في الحفرة وغطاه بالتراب.

قال قابيل لما رأى ذلك: { يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي } فأهتَدِي إلى ما اهتدى إليه، فحفر لأخيه ودفنه { فأصبح من النادمين } على قتله، لِما كابد فيه من التحير في أمره، وحَملِه على رقبته سنة أو أكثر، وتلمذة الغراب له، واسوداد لونه، وتبرّي أبويه منه، إذ رُوِي أنه لما قتله أسود وجهه، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنتُ عليه وكيلاً. فقال: بل قتلته؛ فلذلك اسود جسدك، وتبرأ منه، ومكث بعد ذلك مائة سنة لم يضحك، وعدم الظفر بما فعله من أجله. قاله البيضاوي، فانظره مع ما سيأتي عن الثعلبي.

واختلف في كفره؛ فقال ابن عطية: الظاهر أنه لم يكن قابيل كافرًا، وإنما كان مؤمنًا عاصيًا، ولو كافرًا ما تخرج أخوه من قتله، إذ لا يتحرج من قتل كافر؛ لأن المؤمن يأبى أن يقتل موحدًا، ويرضى بأن يُظلَمَ ليجازي في الآخرة. ونحو هذا فعل عثمان رضي الله عنه لما قصد أهل مصر قتله مع عبد الرحمن بن أبي بكر، لشُبهةٍ، وكانوا أربعة آلاف، فأراد أهل المدينة أن يدفعوا عنه، فأبى واستسلم لأمر الله. قال عياض: منعه من الدفع إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ذلك سَبَقَ به القدر. حيث بشره بالجنة على بلوى تصيبه، كما في البخاري، ونقل عن بعض أهل التاريخ: أن شيثًا سار إلى أخيه قابيل، فقاتله بوصية أبيه له بذلك، متقلدًا بسيف أبيه. وهو أول من تقلد بالسيف، فأخذه أخاه أسيرًا وسلسله، ولم يزل كذلك حتى قبض كافرًا. هـ.

قلت: ولعل تحرّج أخيه من قتله؛ لأنه حين قصد قتله لم يُظهِر كفره، وظهر بعد ذلك، فلذلك قاتله أخوه شيت بعد ذلك وأسره، وذكر الثعلبي: أن قابيل لما طرده أبوه، أخذ بيد أخته أقليمًا، فهرب بها إلى أرض اليمن، فأتاه إبليس فقال له: إنما أكلت النار قربان هابيل، لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أنت أيضًا نارًا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار، وهو أول من عبد النار.
@فهذا صريح في كفره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا كان الحق جل جلاله يدل العصاة من عباده إذا تحيروا على ما يزيل حيرتهم، فكيف لا يدل الطائعين إذا تحيروا على ما يزيل شبهتهم، إذا فزعوا إليه والتجأوا إلى حماه؟! فكل من وقع في حيرة دينية أو دنيوية وفزع إلى الله تعالى،

مضطرًا إليه، فلا شك أن الله تعالى، مضطرًا إليه، فلا شك أن الله تعالى يجعل له فرجًا ومخرجًا من أمره، إما بواسطة أو بلا واسطة. كن صادقًا تجد مرشدًا، { فَلَوْ صَدَقُواْ اللهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ } [محَمَّد:21]. والله تعالى أعلم.

@{ مِنْ أَجْلِ ذالِكَ كَتَبْنَا عَلَىا بَنِيا إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ بَعْدَ ذالِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ }

{ مِنْ أَجْلِ ذالِكَ كَتَبْنَا عَلَىا بَنِيا إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً... }

قلت: { من أجل ذلك }: يتعلق بكتبنا، فيوقف على ما قبله، وقيل: بالنادمين، فيوقف على { ذلك } ، وهو ضعيف، قاله ابن جزي، وأصل { أَجْل }: مصدر أجُل يأجل، كأخذ يأخذ، أجلاً، أي: جنا جناية، استعمل في تعليل الجنايات، ثم اتسع فيه، فاستعمل في كل تعليل.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { من أجل ذلك } القتل الذي صدر من قابيل لأخيه هابيل، وما نشأ عنه من التجرؤ على الدماء والمفاسد، حيث سَنَّه أولاً ولم يكن يعرفه أحد، فاقتدى به من بعده، { كتبنا على بني إسرائيل } في التوراة الذي حكمه متصل بشريعتكم، { أنه من قتل نفسًا بغير نفس } أي: في غير قصاص، وبغير فساد في الأرض، كقطع الطريق والكفر، { فكأنما قتل الناس جميعًا } من حيث إنه هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجرأ الناس عليه.

وفي البخاري عن ابن مسعود قال: قال صلى الله عليه وسلم: " لا تُقتَلُ نَفسٌ مسلمةٌ بغير حق إلاَّ كَانَ على ابنِ آدَمَ الأولِ كِفلٌ من دَمِها، لأنَّهُ أوَّلُ من سَنَّ القَتل " أو من حيث إن قتل الواحد والجميع سواء في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم، أو يكون الناس خصماءه يوم القيامة؛ لأن هتك حرمة البعض كالكل؟

{ ومن أحياها } أي: تسبب في حياتها بعفو أو منع من القتل، أو استقباء من بعض أسباب الهلكة؛ كإنقاذ الغريق والحريق وشبه ذلك، { فكأنما أحيا الناس جميعًا }؛ أعطِي من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعًا، وفي البخاري: " من أحياها ـ أي مَن حَرَّمَ قتلَها إلا بحق حيى الناس منه جميعًا " قال ابن جزي: والقصد بالآية تعظيم قتل النفس والتشديد فيه، ليزدجر الناس عنه وكذلك الثواب في إحيائها كثواب إحياء الجميع لتعظيم الأمر والترغيب فيه. هـ. فما كتبه الله على بني إسرائيل هو أيضًا شرع لنا. قال أبو سعيد: (والذي لا إله إلا هو دم بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا).

وإنما خصّهم بالذكر؛ لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ عليهم بسبب طغيانهم، ولتلوح مذمتهم. انظر ابن عطية. وعنه صلى الله عليه وسلم: " مَن سَقَى مؤمنًا شربَة ماء والماءُ موجودٌ، فكأنما أعتقَ سبعين رقبة، ومَن سقَى في غيرِ مَوطِنِه فكأنَّما أحيا الناس جميعًا ".

الإشارة: كل من صدَّ نفسًا عن إحياء قلبها وعوّقها عن من يعرفها بربها فكأنما قتلها، ومن قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا؛ لأن المؤمنين كلهم كالجسد الواحد، كما في الحديث، ومن أحياها بأن أنقذها من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ لأن الأرواح جنس واحد، فإحياء البعض كإحياء الكل.
@وبهذا يظهر شرف مقدار العارفين، الدالين على الله، والدعاة إلى معرفة الله، الذين أحيا الله بهم البلاد والعباد، وفي بعض الأثر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " والذي نفسُ محمدٍ بيده لئن شئتُم لأُقسِمَنَّ لكم: إنَّ أحبَّ عبادِ اللهِ إلى الله الذين يُحَبِّبُون اللهُ إلى عبادهِ، ويحببون عبادَ اللهِ إلى اللهِ، ويمشُون في الأرضِ بالنَّصيحَة ".

وهذه حالة شيوخ التربية: يحببون الله إلى عباده؛ لأنهم يطهرون القلب من دنس الغفلة حتى ينكشف لها جمال الحق فتحبه وتعشقه، ويذكرون لهم إحسانه تعالى وآلاءه فيحبونه، فإذا أحبوه أطاعوه فيحبهم الله ويقربهم، والله تعالى أعلم. وقال الورتجبي: فيه إشارة لطيفة من الحق سبحانه أن النية إذا وقعت من قبل النفس الأمارة في شيء، وباشرته، فكأنما باشرت جميع عصيان الله تعالى؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت، لأنها أمارة بالسوء، ومن السوء خلقت، فالجزاء يتعلق بالنية. وكذلك إذا وقعت النيبة من قبل القلب الروحاني في خير، وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات؛ لأنه لو قدر لفعل. قال صلى الله عليه وسلم " نيةُ المؤمن أبلغُ مَن عَمله ".

وفيه إشارة أخرى أن الله سبحانه خلق النفوس من قبضة واحدة مجتمعة، بعضها من بعض وصرُفها مختلفة، وتعلقت بضعها من بعض من جهة الاستعداد والخلقة. فمن قتل واحدًا منها أثرَّ قتلها في جميع النفوس عالمة بذلك أو جاهلة، ومن أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده، ووصف جلاله وجماله، حتى تحب خالقها، وتحيا بمعرفته، وجمال مشاهدته، فأثِر حياتها وتزكيتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس. وفيه تهديد لأئمة الضلاَلة، وعز وشرف وثناء حسن لأئمة الهدى. انتهى كلامه.

وقوله في النفس الأمارة: (من السوء خلقت)، فيه نظر؛ فإن النفس هي الروح عند المحققين، فما دامت الطينية غالبة عليها، وهي مائلة إلى الحظوظ والهوى، سميت نفسًا، فإن كانت منهمكة سميت أمارة، وإن خف عثارها، وغلب عليها الخوف، سميت لوامة، فإذا انكشف عنها الحجاب، وعرَفت ربها، واستراحت من تعب المجاهدة، سميت روحًا، وإن تطهرت من غبش الحس بالكلية سميت سرًا، وأصلها من حيث هي نورٍ رباني وسر لاهوتي. ولذلك قال تعالى فيها:
{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِي }
[الإسرَاء:85]، فالسوء عارض لها، لا ذاتي، فما خلقت إلا من نور القدس. والله تعالى أعلم.

ثم عاتب بني إسرائيل على سفك الدماء والإفساد في الأرض، بعد ما حرم ذلك عليهم في التوراة، فقال:

{...وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ بَعْدَ ذالِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولقد جاءتهم } أي: بني إسرائيل، { رُسلنا بالبينات } أي: بالمعجزات الواضحات، { ثم إن كثيرًا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون } بسفك الدماء وكثرة المعاصي.
@قال البيضاوي: أي: بعدما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل إتيان تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدًا للأمر وتجديدًا للعهد، كي يتحاموا عنها، كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها، والإسراف: التباعد عن حد الاعتدال في الأمر. هـ.

الإشارة: قد قيض الله لهذه الأمة المحمدية من يقوم بأمر دينها، ظاهرفا وباطنًا، وهم ورثته في الظاهر والباطن، وفي الخبر: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، فلكل زمان رجال يقومون بالشريعة الظاهرة وهم العلماء، ورجال يقومون بالحقيقة الباطنة، وهم الأولياء، فمن قصر في الجهتين قامت عليه الحجة، ولله الحجة البالغة، فمن أسرف أو طغى أدبته الشريعة وأبعدته الحقيقة. وبالله التوفيق.

@{ إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُوۤاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذالِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } * { إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قلت: سبب نزل الآية عند ابن عباس: قوم من اليهود كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبيل. وهو مناسب لما قبله، وقال جماعة: نزلت في نفر من عُكل وعُرينَة، أظهروا الإسلام بالمدينة، ثم خرجوا وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم وأخذوا إبله، فبعث في إثرهم، فأُخذوا، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، فماتوا، ثم حُكمُها جارٍ في كل محارب، والمحاربة عند مالك: هي حمل السلاح على الناس في بلد أو في خارج عنه، وقال أبو حنيفة: لا يكون المحارب إلا خارج البلد، { فسادًا }: منصوب على العلة، أو المصدر، أو على حذف الجار.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إنما جزاء الذين يحاربون الله } حيث حاربوا عباده، فهو تغليظ ومُبالغة، { و } يحاربون { رسوله } كما فعل العُرَينيون أو غيرهم، { ويسعون في الأرض فسادًا } بالفساد كإخافة الناس، ونَهب أموالهم. قال ابن جزي: هو بيان للحرابة، وهي درجات؛ فأدناها: إخافة الطريق، ثم أخذ الأموال، ثم قتل النفس.

فجزاؤهم { أن يُقتلوا أو يُصلبوا } ، فالصلب مضاف للقتل، فقيل: يقتل ثم يصلب، إرهابًا لغيره، وهو قول أشهب، وقيل: يصلب حيًا ويُقتل في الخشبة، وهو قول ابن القاسم، { أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف } ، فيقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن عاد قطعت يده اليسرى ورجله اليمنى، وقطع اليد من الرسغ، الرجل من المفصل كالسرقة، { أو يُنفوا من الأرض } أي: ينفوا من بلد إلى بلد، ويسجنوا فيه حتى تظهر توبتهم. وقال أبو حنيفة: يسجن في البلد بعينه. ومذهب مالك: أن الإمام مخير في المحارب بين ما تقدم، إلا أنه قال: إن كان قتل فلا بد من قتله، وإن يقتل فالأحسن أن يؤخذ فيه بأيسر العقاب.

أولئك المحاربون { لهم خزي في الدنيا }: ذل وفضيحة، { ولهم في الآخرة عذاب عظيم } لعظم ذنوبهم. ظاهره أن العقوبة في الدنيا لا تكون كفارة للمحاربين بخلاف سائر الحدود. ويحتمل أن يكون الخزي في الدنيا لمن عوقب، وفي الآخرة لمن لم يعاقب، { إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم } بأن جاؤوا تائبين { فاعلموا أن الله غفور رحيم } ، فيسقط عنهم حكم الحرابة، واخُتلف: هل يطالب بما عليه من حقوق الناس كالدماء أم لا؟ فقال الشافعي: يسقط عنه بالتوبة حد الحرابة، ولا يسقط حقوق بني آدم، وقال مالك: يسقط عنه جميع ذلك، إلا أن يُوجد معه مال رجل بعينه، فَيُرَدَّ إلى صاحبه، أو يطلبه ولي دم بدم تقوم البينة فيه، فيقاد به، وأما الدماء والأموال التي لم يطالب بها، فلا يتبعه الإمام بشيء منها.

وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب، والآية في قُطّاع المسلمين؛ لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.
@قاله البيضاوي: والله تعالى أعلم.

الإشارة: فرق كبير بين من يرجع إلى الله بملاطفة الإحسان، وبين من يقاد إليه بسلاسل الامتحان، هؤلاء المحاربون لم يرجعوا إلى الله حتى أُخذوا وقُتلوا وصُلبوا أو قطعت أيديهم وأرجلهم. وإن رجعوا إليه اختيارًا قبلهم، وتاب عليهم ورحمهم وتعطف عليهم، وكذلك العباد: من رجع إلى الله قبل هجوم منيته قَبِله وتاب عليه، وإن جد في الطاعة قرَّبه وأدناه، وإن تقدمت له جنايات، وقد خرج من اللصوص كثير من الخصوص، كالفضيل، وابن أدهم، وغيرهما، ممن لا يحصى، سبقت لهم العناية فلم تضرهم الجناية. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
@{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله } ، ولا تسلكوا سبيل بني إسرائيل الذين جاءتهم الرسل، فعصوا وأفسدوا { وابتغوا إليه الوسيلة } أي: اطلبوا ما تتوسلون به إلى رضوانه، والقرب من جناب قدسه من الطاعات، وترك المخالفات، { وجاهدوا في سبيله } بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة { لعلكم تفلحون } بالوصول إلى الله والفوز بكرامته.

الإشارة: لا وسيلة أقرب من صحبة العارفين، والجلوس بين أيديهم وخدمتهم، والتزام طاعتهم، فمن رام وسيلة توصله إلى الحضرة غير هذه فهو جاهل بعلم الطريق. قال أبو عمرو الزجّاجي رضي الله عنه: لو أن رجلاً كشف له عن الغيب، ولا يكون له استاذ لا يجيء منه شيء.

وقال إبراهيم بن شيبان رضي الله عنه: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح، ومن لا يأخذ أدبه من آمر له وناهٍ يريه عيوبَ أعماله ورُعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. هـ.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به. هـ. ولو كان وافر العقل منقاد النفس، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ التعليم فقط، فلا يكمل كمال من تقيد بالشيخ المربي؛ لأن النفس

أبدًا كثيفة الحجاب عظيمة الإشراك، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها، ولا يزول عنها ذلك، بالكلية، إلا بالانقياد للغير والدخول تحت الحكم والقهر، وكذلك لو كان سبقت إليه من الله عناية وأخذه الحق إليه، وجذبه إلى حضرته، لا يؤهل للمشيخة، ولو بلغ ما بلغ، والحاصل: أن الوسيلة العظمى، والفتح الكبير، إنما هو في التحكيم للشيخ، لأن الخضوع لمن هو من جنسك تأنفه النفس، ولا تخضع له إلا النفس المطمئنة، التي سبقت لها من الله العناية. والله تعالى أعلم.

@{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } * { يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ }

قلت: { لو أن لهم }: الجار متعلق بالاستقرار، لأنه خبر " إن " مقدمًا، والضمير في { به }: يعود على ما ومثله، ووحده باعتبار ما ذكر كقوله:
{ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ }
[البَقَرَة:68].

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين كفروا } حين يشاهدون العذاب يتمنون الفداء، فلو { أن لهم ما في الأرض جميعًا } من الأموال والعقار { ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم } ولا ينفعهم { ولهم عذاب مقيم } لا خلاص لهم منه، وهذا كما ترى في الكفار، وأما عصاة المؤمنين فيخرجون منها بشفاعة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولا حجة للمعتزلة في الآية، خلافًا لجهالة الزمخشري.

الإشارة: كل من مات تحت قهر الحجاب، ونكّبته المشيئة عن دخول الحضرة مع الأحباب، حصل له الندم يوم القيامة، فلو رام أن يفتدى منه بملء الأرض ذهبًا ما تقبل منه، بل يبقى مقيمًا في غم الحجاب، معزولاً عن رؤية الأحباب، يتسلى عنهم بالحور والولدان، وتفوته نظرة الشهود والعيان في كل حين وأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

@{ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } * { فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } * { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: { السارق }: مبتدأ والخبر محذوف عند سيبويه، وهو الجار والمجرور، أي: مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة، وقال المبرد: الخبر هو جملة: { فاقطعوا } ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط؛ لأن الموصول ـ وهو " ألـ " ـ فيه معنى الشرط، ومثله:
{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَأجْلِدُواْ }
[النُّور: 2]، قلت: وهو أظهر، فإن قلت: ما الحكمة في تقديم المُذكر في هذه الآية، وفي أية الزنا قدم المؤنث، فقال:
{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى }

؟ فالجواب: أن السرقة في الرجال أكثر، والزنى في النساء أكثر، فقدّم الأكثر وقوعًا. وقدّم العذاب هنا على المغفرة، لأنه قابل بذلك تقدم السرقة على التوبة، أو لأن المراد به القطع، وهو مقدم في الدنيا، { جزاء } و { نكالاً }: علة أو مصدر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما } أي: أيمانهما من الرسغ، بشروط، منها: ألاَّ يكون مضطرًا بالجوع، على قول مالك، فيقدم السرقة على الميتة، إن عُلِم تصديقه. ومنها: ألاَّ يكون السارق أبًا أو عبدًا سرق مال ولده أو سيده. ومنها: أن يكون سرق من حرز، وأن يكون نِصَابًا، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساويهما عند مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا قطع في أقل من عشرة دراهم، وقال عثمان البَتى: يُقطع في درهم فما فوق. وفي السرقة أحكام مبسوطة في كتب الفقه.

وعلة القطع: الزجر، ولذلك قال: { جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم }. فإن قلت: ما الحكمة في قطعها في ربع دينار، مع أن دِيتَهَا أن قطعت، خمسمائة دينار؟ قلت: ذل الخيانة أسقطت حرمتها بعد عز الصيانة. فافهم حكمة الباري.

{ فمن تاب من بعد ظلمه } أي: بعد سرقته، كقوله في سورة يوسف: { كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } [يُوسُف:75] أي: السارقين، { وأصلح } بأن ردّ ما سرق، وتخلص من التبعات ما استطاع، وعزم ألا يعود { فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم } ، فيتقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة، وأما القطع: فهل يسقط، وهو مذهب الشافعي لظاهر الآية، أو لا يسقط، وهو مذهب مالك، لأن الحدود لا تسقط عنده بالتوبة إلا عن المحارب؟... قاله ابن جزي، تبعًا لابن عطية، وفيه نظر، فإن مشهور مذهب الشافعي موافق لمالك، ولعله تصحف عده الشافعي بالشعبي، كما نقل الثعلبي عنه. والله أعلم.

{ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض } يتصرف فيهما كيف شاء، فالخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو لكل أحد، { يُعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء } قال السدي: يُعذب من مات على كفره، ويغفر لمن تاب من كفره. وقال الكلبي: { يُعذب من يشاء } على الصغيرة إذا أقام عليها { ويغفر لمن يشاء } على الكبيرة إذا نزع منها، { والله على كل شيء قدير } لا يعجزه شيء.
@الإشارة: كما أمره الحق ـ جل جلاله ـ بقطع سارق الأموال، أمر بقطع سارق القلوب، وهو الشيطان، وجنوده؛ الخواطر الردية؛ فإن القلب بيت كنز السر ـ أي: سر الربوبية ـ لأن القلب بيت الرب، والبصيرة حارسة له، فإذا طرقه الشيطان بجنوده، فإن وجد البصيرة متيقظة دفعته وأحرقته بأنوار ذكرها، وأن وجدها نائمة؛ فإن كان نومها خفيفًا اختلس منها وفطنت له، وإن كان نومها ثقيلاً؛ بتراكم الغفلات، خرب البيت ولم تفطن له، فيسكن فيه بجنوده الخواطر وهي نائمة. فالواجب على الإنسان حفظ قلبه، قبل أن يسكنه الشيطان، فيصعب دفعه، وحفظه بدوام ذكر الله القلبي، فإن لم يستطع فبدوام اللسان، فإن لم يستطع فبالنية الصالحة. وربنا المستعان.
@{ ياأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـاذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ

تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } * { سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } * { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذالِكَ وَمَآ أُوْلَـائِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ }

{ يأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ... }

قلت: الباء في: { بأفواههم } ـ متعلقة بقالوا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الرسول لا يحزنك } صنع المنافقين، { الذين يسارعون في الكفر } أي: يقعون فيه سريعًا، فيظهرونه إن وجدوا فرصة، ثم بينهم بقوله: { من الذين قالوا آمنا } قالوه { بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم } ، فلا يهولنّك شأنهم ولا تحتفل بكيدهم، فإن الله سيكفيك أمرهم.

الإشارة: من شأن العارفين بالله تذكير عباد الله، ثم ينظرون إلى ما يفعل الله، فلا يحزنون على من لم تنفعه الموعظة، ولا يفرحون بسبب نجاح موعظتهم، إلا من حيث موافقة رضا ربهم، فهم في ذلك على قدم نبيهم، آخذين بوصية ربهم. والله تعالى أعلم.

ثم رجع إلى عتاب اليهود، فقال:

{... وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـاذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذالِكَ وَمَآ أُوْلَـائِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ }

قلت: { ومن الذين هادوا }: يُحتمل أن يكون عطفًا على { الذين قالوا } أي: لا يحزنك شأن المنافقين واليهود، و { سماعون }: خبر، أي: هم سماعون، ويحتمل أن يكون استئنافاً، فيكون { سماعون }: مبتدأ على حذف الموصوف، و { من }: خبر، أي: ومن الذين هادوا قوم سماعون، واللام في: { للكذب }: إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، وجملة { لم يأتوك }: صفة لقوم، وجملة { يحرّفون }: صفة أخرى له.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ومن الذين هادوا } صنف { سماعون للكذب } أي: كثيروا السماع للكذب والقبول له، وهم يهود بني قريظة، { سماعون لقوم آخرين } وهم يهود خيبر، { لم يأتوك } أي: لم يحضروا مجلسك، تكبرًا وبغضًا، { يُحرفون الكلم من بعد مواضعه } أي: يميلونه عن مواضعه الذي وضعه الله فيها، إما لفظًا أو تأويلاً: { يقولون }: أي: الذين لم يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يهود خيبر:

{ إن أُوتيتم هذا فخذوه } أي: إن أوتيتم هذا المحرّف وأفتاكم محمد بما يوافقه فخذوه، { وإن لم تُؤتوه } بأن أفتاكم بغيره { فاحذروا } أن تقبلوا منه.

وسبب نزولها: أن شريفًا مِن يهود خَيْبَرَ زنى بِشريفة منهم، وكانا مُحصنَين، وكرهوا رجمهما، فأرسلوا مع رَهطٍ منهم إلى بَني قريظة ليسألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا لهم: إن أمَرَكُم بالجَلْد والتَّحمِيم فَاقبلُوا، وإن أمَرَكُم بالرَّجم فاحذروا أن تقبلوه منه، فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالزَّانِيين، ومعَهما ابن صوريا، فاستفتوه صلى الله عليه وسلم، فقال لابن صوريا: أنشُدكَ اللهَ الذي لا إله إلا هُو، الذِي فَلَقَ البَحرَ لمُوسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكُم وأغْرَقَ آلَ فِرعَونَ، والذِي أنزل علَيكُم كِتَابه، وأحلَّ حَلاله وحرَّم حَرَامه، هل تجد فيهم الرَّجمَ على من أحصن؟ فقال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفتُ إن كَذبتَه أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالزَّانِيين فرُجِمَا عندَ باب المسجد، وفي رواية: دعاهم إلى التوراة فأتوا بها، فوضع ابن صوريا يده على آية الرجم، وقرأ ما حولها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تلوح، فرجما.
@وفي القصة اضطراب كثير. ولعل القضية تعددت.

قال تعالى: { ومن يُرِد الله فتنته } أي: ضلالته أو فضيحته، { فلن تملك له من الله شيئًا } أي: تقدر على دفعها عنه، { أولئك الذين لم يُرد الله أن يُطهر قلوبهم } من الكفر والشرك، { لَهُم في الدُّنيَا خزيٌ } أي: هوان وذل؛ بضرب الجزية والخوف من المؤمنين، { ولهم في الآخرة عذاب عظيم } وهو الخلود في النيران.

هم { سماعون للكذب } ، كرر للتأكيد، وليرتب عليه قوله: { أكَّالون للسحت } أي: الحرام، كالرشا وغيرها، وسُمي سحتًا؛ لأنه يسحت البركة ويستأصل المال، كما قال صلى الله عليه وسلم " من جمع المال من نهاوش أذهبه الله في نهابر ".

ثم خيَّر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الحكم بينهم، فقال: { فإن جاؤوك } متحاكمين إليك { فاحكم بينهم أو أعرض عنهم } ، وقيل: نسخ بقوله:
{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم }
[المَائدة:49]. والجمهور: أن ما كان من باب التظالم والتعدي فإن الحاكم يتعرض بهم ويبحث عنه، وأما النوازل التي لا ظلم فيها، وإنما هي دعاوي، فإن رضوا بحكمنا فالإمام مُخير، وإن لم يرضوا فلا نتعرض لهم، انظر ابن عطية، وقال البيضاوي: ولو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول الشافعي: والأصح: وجوبه؛ إذا كان المترافعان أو أحدهما ذميًا، لأنا التزمنا الذب عنهم، ومذهب أبي حنيفة: يجب مطلقًا. هـ.

{ وإن تُعرض عنهم فلن يضروك شيئًا }؛ لأن الله عصمك من الناس، { وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط } أي: العدل الذي أمر الله به { إن الله يحب المقسطين } ، فيحفظهم ويعظم شأنهم.

{ وكيف يُحكمونك } وهم لا يؤمنون بك، { وعندهم التوارة فيها حكم الله } أي: والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم { ثم يتولون من بعد ذلك } ، أو ثم يتولون عن حكمك الموافق لكتابهم من بعد التحكيم، وفيه تنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما قصدوا به ما يكون عونًا لهم على هواهم، وإن لم يكن حكم الله في زعمهم، { وما أولئك بالمؤمنون }

بكتابهم ولا بكتابك؛ لإعراضهم عنه أولاً، وعنك ثانيًا، بل أولئك هم الفاسقون التابعون لأهوائهم.
@والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من تعرض للشيخوخة وادعى مقام التربية، وهو يأمر أصحابه باتباع رخص الشريعة، والبقاء مع العوائد، ويقول لهم: { إن أوتيتم هذا فخذوه } ويزعم أنه سنة، وإن لم تؤتوه، ولقيتم من يأمركم بقتل النفوس، وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد فاحذروه، فمن كان حاله هذا، فالآية تجر ذيلها عليه، لأنه تعرض لفتنة نفسه بحب الجاه وغرور أولاد الناس، { ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم } من الهوى، ولا بصيرتهم من شهود السِّوى؛ لأن تطهير القلوب مشروط بقتل النفوس، وقتل النفوس إنما يكون باتباع ما يثقل عليها من خرق عوائدها، كالذل والفقر وغير ذلك من الأعمال الشاقة عليها، ومن لم يطهر قلبه من الهوى يعش في الدنيا في ذل الحجاب مسجوناً بمحيطانه، محصورًا في هيكل ذاته، وله في الآخرة أشد العتاب، حيث تعرض لمقام الرجال وهو عنه بمعزل، ويقال لمن تبعه في اتباع الرخص: { سماعون للكذب أكالون للسحت }.

قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: من كان من فقراء الزمان يسمع الغناء، ويأكل أموال الظلمة، ففيه نزعة يهودية، قال تعالى: { سماعون للكذب أكالون للسحت }. هـ.

فإن جاؤوك أيها العارف، يستخبرونك، ويخاصمونك في الأمر بخرق العوائد، ويزعمون أنهم موافقون للسنة، { فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئًا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط } ، وهو الأخذ بكل ما يقتل النفوس، ويجهز عليها، { إن الله يحب المقسطين } وكيف يحكمونك أو يخاصمونك، وعندهم القرآن فيه حكم الله بذلك، قال تعالى:
{ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العَنكبوت:69]، ولا يكون جهاد النفس إلا بمخالفتها، وقتلها بترك حظوظها وهواها.
والله تعالى أعلم.

@{ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ }

قلت: { للذين هادوا }: متعلق بيحكم، أو بأنزلنا، أو بهدى ونور، و { الربانيون }: عطف على { النبيون } ، وهم العباد والزهاد منهم، والأحبار: علماؤهم، جمع حبر ـ بكسر الحاء وفتحها، وهو أشهر استعمالاً ـ للفرق بينه وبين المداد، و { بما استحفظوا }: سببية متعلق بيحكم، أو بدل من { بها } والعائد إلى " ما " محذوف، أي: استحفظوه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إنا أنزلنا التوراة فيها هدى } أي: ما يهدي إلى إصلاح الظواهر من النواهي والأوامر، و { نور } تستنير به السرائر، وتشرق به القلوب والضمائر، من الاعتقادات الصحيحة والقعائد الراجحة، والعلوم الدينية والأسرار

الربانية. { يحكم بها النبيون } الذين أتوا بعد موسى ـ عليه السلام ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وهم { الذين أسلموا } إي: انقادوا بكليتهم إلى ربهم، ولم تبق بقية لغير محبوبهم، وفيه تنويه بشأن الإسلام وأهله، وتعريض باليهود؛ فإنهم بمعزل عن دين الأنبياء واقتفاء هديهم، حيث لم يتصفوا به، يحكم بها { للذين هادوا } وعليهم، وهم اليهود، { و } يحكم بها أيضًا { الربانيون والأحبار } أي: زهادهم وعلماؤهم السالكون طريقة أنبيائهم، { بما استُحفظوا من كتاب الله } أي: بسبب أمر الله تعالى لهم أن يحفظوا كتابه من التضييع والتخريف. { وكانوا عليه شهداء } أي: رقباء، فلا يتركون من يُغيرها أو يحرفها، ولما طال العهد عليهم حرفوا وغيروا، بخلاف كتابنا، حيث تولى حفظه الحق ربنا، فلا يزال محفوظًا لفظًا ومعنى إلى قيام الساعة، قال تعالى:
{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }
[الحِجر:9]. فللّه الحمد.

ثم خاطب الحكام، فقال: { فلا تخشوا الناس واخشون } أي: فلا تداهنوا في حكوماتكم خشية ظالم أو مراقبة كبير، فكل كبير في جانب الحق صغير { ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً } أي: لا تستبدلوا بالحكم بالحق ثمنًا قليلاً؛ كالرشوة والجاه، { ومن لم يحكم بما أنزل الله } مستهينًا به ومنكرًا له { فأولئك هم الكافرون }؛ لاستهانتهم به.

قال ابن عباس: نزلت الثلاثة في اليهود، الكافرون والظالمون والفاسقون، وقد رُوِي في هذا أحاديثُ عن النبي صلى الله عليه وسلم وقالت جماعة: هي عامة، فكل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم، إلا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية، وقال الشافعي: الكافرون في المسلمين، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى، وهو أنسب لسياق الكلام، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد وصف الله تعالى القرآن بأعظم مما وصف به التوراة. قال تعالى:
{ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَّبِكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا }
[النساء:174]، فجعل التوراة ظرفًا للهداية والنور، وجعل القرآن نفس النور والهداية. وربانيو هذه الأمة: أولياؤها العارفون بالله، الذين يربون الناس ويرشدونهم إلى معرفة الشهود والعيان، وأحبارها: علماؤها.

وقال الورتجبي: الرباني الذي نسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب، واستقام في شهود جلاله وجماله، صار متصفًا بصفات الله ـ جل جلاله ـ، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فنى عن نفسه وبقي بربه، صار ربانيًا، مثل الحديد في النار، إذا لم يكن في النار كان مستعدًا لقبول النار، فإذا وصل إلى النار واحمر، صار ناريًّا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورًا بتجلي الرب، صار ربانيًا نورانيًّا ملكوتيًّا جبروتيًّا، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، ثم قال: العارف مخاطب من الله في جمع أنفاسه، وحركاته، ينزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: @" إنَّ في أُمَتي محدَثين أو مُكَلَّمين وإنَّ عُمَر مِنهُم " هـ.
@{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

قلت: من نصب الجميع: فَعَطَفٌ على النفس، و { قصاص }: خبر إن، ومن رفع العين: فيحتمل أن يكون مستأنفًا مرفوعًا بالابتداء، و { قصاص }: خبر، من عطف الجمل، أو يكون عطفًا على موضع النفس؛ لأن المعنى: قلنا لهم: النفس بالنفس، أو على الضمير المستكن في الخبر، ومن رفع الجروح فقط، ما تقدم في العين.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكتبنا } على بني إسرائيل، أي: فرضنا وألزمنا عليهم في التوراة { أن النفس } تقتل بالنفس في القتل العمد إن كان المقتول مسلمًا حرًا، فلا يقتل مسلم بكافر إلا إن قتله غيلة، ولا حر بعبد، للحديث، { والعينَ } تُفقأ { بالعين }، { والأنفَ } تُجدع { بالأنفِ }، { والأذنَ } تُصلم { بالأذنِ }، { والسِّن } تُقلع { بالسن }، { والجروح قصاص }؛ يقتص من الجارح بمثل ما فَعل، إلا ما يخاف منه كالمأمومة، والجائفة، وكسر الفخذ، فيعطي الدية، { فمن تصدق به } أي: بالدم، بأن عَفى عن الجارح أو القاتل فلم يقتص، { فهو كفّارة له } أي للمقتول، يغفر الله ذنوبه ويعظم أجره، أو كفارة للقاتل أو الجارح، يعفو الله بذلك عن القاتل؛ لأن صاحب الحق قد عفا عنه، أو كفارة للعافي؛ لأنه مسامح في حقه، أو من تصدق بنفسه ومكنها من القصاص فهو كفارة له، اقتص منه أو عُفي عنه.

وفيه دليل على أن الحدود مكفرة لا زواجر، وزعم ابن العربي: أن المقتول يُطالب يوم القيامة، ولو قتل في الدنيا قصاصًا؛ لأنه لم يتحصل للمقتول من قتل قاتله شيء، وأن القصاص إنما هو ردع، وأجيب بمنع أنه لم يتحصل له شيء، بل حصلت له الشهادة وتكفير لذنوبة، كما في الحديث: " السيف محاء للخطايا " ولو كان القصاص للردع خاصة لم يشرع العفو، قاله ابن حجر، وفي حديث البخاري: " من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، وإن ستره الله فهو في المشيئة ".

{ ومن لم يحكم بما أنزل الله } من القصاص وغيره { فأولئك هم الظالمون }؛ المتجاوزون حدود الله، وما كتب الله على بني إسرائيل هو أيضًا مكتوب علينا، لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ، ولا ناسخ هنا، بل قررته السنة والإجماع. والله تعالى أعلم.

الإشارة: القصاص مشروع وهو من حقوق النفس؛ لأنها تطلبه تشفيًا وغيظًا، والعفو مطلوب ومرغب فيه، وهو من حقوق الله، هو طالبه منك، وأين ما تطلبه لنفسك مما هو طالبه منك؟ ومن شأن الصوفية الأخذ بالعزائم، واتباع أحسن المذاهب، قال تعالى:
{ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ }
[الزُّمَر:18]، ومن شأنهم أيضًا: الغيبة عن حظوظ النفس، ولذلك قالوا: (الصوفي دمه هدر، وماله مباح)، وقالو أيضًا: (الصوفي كالأرض، يُحرح عليها كل قبيح، وهي تُنبت كلّ مليح)، ـ ومن أوكد الأمور عندهم عدم الانتصار لأنفسهم. وبالله التوفيق.

@{ وَقَفَّيْنَا عَلَىا آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } * { وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }

قلت: { قفينا }: اتبعنا، مشتق من القفا؛ كأن مجيء عيسى كان في قفا مجيء النبيين وخلفهم، وحذف المفعول الأول، أي: أتبعناهم، و { بعيسى } مفعول ثاني، وجملة: { فيه هدى ونور }: حال من { الإنجيل } ، و { مصدقًا }: عطف عليه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: وأتبعنا النبيين المتقدمين وجئنا على إثرهم { بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه } أي: ما تقدم أمامه { من التوراة } وتصديقه للتوراة؛ إما لكونه مذكورًا فيها ثم ظهر، أو بموافقة ما جاء به من التوحيد والأحكامِ لما فيها، أو لكونه صدَّق بها وعمل بما فيها.

{ وآتينا الإنجيل فيه هدى ونور }؛ فالهدى لإصلاح الظواهر بالشرائع، والنور لإصلاح الضمائر بالعقائد الصحيحة والحقائق الربانية، { ومصدقًا لما بين يديه من التوراة } بتقرير أحكامها، والشهادة على صحتها، { وهدى وموعظة للمتقين } أي: وإرشادًا وتذكيرًا للمتقين؛ لأنهم هم الذين ينفع فيهم الموعظة والتذكير، دون المنهمكين في الغفلة، قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ثم أمر الله أهل الإنجيل بالحكم بما فيه، فقال: { وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه } من الأحكام، وقرأ حمزة: { وليحكم } بلام الجر؛ أي: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل الإنجيل بما فيه، { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون }؛ الخارجون عن طاعة الحق. قال البيضاوي: والآية تدل على أن الإنجيل مشتملة على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعث عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع، وحمَلها على: وليحكموا بما أنزل الله، فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر. هـ.

الإشارة: قد جمع الله في هذه الأمة المحمدية ما افترق في غيرها في الأزمنة المتقدمة، فعلماؤها وأولياؤها كالأنبياء والرّسل، كلما مات عالم أو ولي قفاه الله بآخر، أما العلماء فأمرهم متفق وحالهم متقارب، فمدار أمرهم على تحصيل العلوم الرسمية والأعمال الظاهرية، وأما الأولياء ـ رضي الله عنهم ـ، فأحوالهم مختلفة، فمنهم من يكون على قدم نوح عليه السلام في القوة والشدة، ومنهم من يكون على قدم إبراهيم عليه السلام في الحنانة والشفقة. ومنهم من يكون على قدم موسى عليه السلام في القوة أيضًا، ومنهم من يكون على قدم عيسى عليه السلام في الزهد والانقطاع إلى الله تعالى، ومنهم من يكون على قدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أعظمهم لجمعه ما افترق في غيره، وكل واحد يؤتيه الله نورًا في الباطن يجذب به القلوب إلى الحضرة، وهدى في الظاهر يصلح به الظواهر في الشريعة. والله تعالى أعلم.

@{ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـاكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }

قلت: { مهيمنًا } أي: شاهدًا، والشرعة والمنهاج: قال ابن عطية: معناهما واحد، وقال ابن عباس: أي سبيلاً وسنة. قلت: والظاهر: أن الشرعة يراد بها الأحكام الظاهرة،

وهي التي تَصلح الظواهر، والمنهاج يراد به علوم الطريقة الباطنية، وهي التي تصلح الضمائر، وهو مضمن علم التصوف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وأنزلنا إليك } يا محمد { الكتاب } أي: القرآن ملتبسًا { بالحق مصدقًا لما بين يديه } من جنس الكتاب، أي: مصدقًا لما تقدمه من الكتب، بموافقته لهم في الأخبار والتوحيد، { ومهيمنًا عليه } أي: شاهدًا عليه بالصحة، أو راقبًا عليه من التغيير في المعنى، { فاحكم بينهم بما أنزل الله } إليك { ولا تتبع أهواءهم } منحرفًا عما جاءك من الحق إلى ما يشتهونه، لكل نبي { جعلنا منكم شرعة } ظاهرة يصلح بها الظواهر، { ومنهاجًا } أي: طريقًا واضحًا يسلك منها إلى معرفة الحق، وهو ما يتعلق بإصلاح السرائر، واستُدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة.

{ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة } أي: جماعة واحدة متفقة على دين واحد، { ولكن } عدد الشرائع وخالف بينها { ليبلوكم } أي: يختبركم فيما آتاكم من الشرائع المختلفة، أيكم ينقاد، ويخضع للحق أينما ظهر، فإن اختلاف الأحوال وتنقلات الأطوار فيه يظهر الإقرار والإنكار، { فاستبقوا الخيرات } أي: بادروا إلى الانقياد إلى الطاعات واتباع الحق والخضوع لمن جاء به أينما ظهر، انتهازًا للفرصة، وحيَازة لفضل السبق والتقدم، { إلى الله مرجعكم جميعًا } فيظهر السابقون من المقصرين، { فينبئكم } أي: يخبركم { بما كنتم فيه تختلفون } من أمر الدين بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل، والمبادر والمقصر، واختلاف الشرائع إنما هي باعتبار الفروع، وأما الأصول كالتوحيد والإيمان بالرّسل، والبعث، وغير ذلك من القواعد الأصولية، فهي متفقةح قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: " نحنُ أبناء علات، أمهاتُنا شَتَّى وأبونا واحد " يعني التوحيد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ جمع الله له ما افترق في غيره، فذاته الشريفة جمعت المحاسن كلها ظاهرة وباطنة، وكتابُه جمع ما في الكتب كلها فهو شاهد عليها، وشريعته جمعت الشرائع كلها، ولذلك كان الولي المحمدي هو أعظم الأولياء.

واعلم أن الحق ـ جل جلاله ـ جعل لكل عصر تربية مخصوصة بحسب ما يناسب ذلك، العصر، كما جعل لكل أمة شرعة ومنهاجًا بحسب الحكمة، فمن سلك بالمريدين تربية واحدة، وأراد أن يسيرهم على تربية المتقدمين، فهو جاهل بسلوك الطريق، فلو كان السلوك على نمط واحد ما جدد الله الرسل بتجديد الأزمنة والأعصار، فكل نبي وولي يبعثه الله تعالى بخرق عوائد زمانه، وهي مختلفة جدًا، فتارة يغلب على الناس التحاسد والتباغض، فيبعث بإصلاح ذات البين والتآلف والتودد، وتارة يغلب حب الرياسة والجاه فيربى بالخمول وإسقاط المنزلة، وتارة يغلب حب الدنيا وجمعها فيربى بالزهد فيها والتجريد والانقطاع إلى الله. وهكذا فليقس ما لم يقل. والله تعالى أعلم.

@{ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } * { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }

قلت: { وأن احكم }: عطف على الكتاب، أي: وأنزلنا إليكم الكتاب والحكم بينهم بما أنزل الله، أو على الحق، أي: أنزلناه بالحق وبالحكم بما أنزل الله، و { أن يفتنوك }: بدل اشتمال من الضمير، أي: احذر فتنتهم، واللام في قوله: { لقوم }: للبيان: أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنهم هم الذين يعلمون ألاَّ أحسن حكمًا من الله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: { و } أمرناك { أن أُحكم بينهم } أي: بين اليهود { بما أنزل الله } ، قيل هو ناسخ للتخيير المتقدم، وقيل: لا، والمعنى أنت مخير، فإن أردت أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله { ولا تتبع أهواءهم } الباطلة، التي أرادوا أن يفتنوك بها، { واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك } ، فيصرفوك عن الحكم به.

رُوِي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد، قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأنّا إن اتبعناك اتبعتك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وردَّهم، فنزلت الآية.

قال تعالى لنبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: { فإن تولوا } عن الإيمان، بل وأعرضوا عن اتباعك، { فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم } في الدنيا، ويدخر جُلَّها للآخرة، وقد أنجز الله وعده، فأجلى بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبا نساءهم وذراريهم، وباعهم في الأسواق، وفتح خيبر، وضرب عليه الجزية، { وإنَّ كثيرًا من الناس لفاسقون }؛ خارجون عن طاعة الله ورسوله، { أفحكم الجاهلية يبغون } أي: يطلبون منك حكم الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى، { ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون } أي: لا أحد أحسن حكمًا من الله تعالى عند أهل الإيقان؛ لأنهم هم الذين يتدبرون الأمر، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون ألاَّ أحسن حكمًا من الله عز وجل.

الإشارة: إذا كثرت عليك الخصوم الوهمية أو الواردات القلبية، والتبس عليك أمرهم، ولم تدر أيهما تتبع؟ فاحكم بينهم بالكتاب والسنة، فمن وافق كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه، فإن من أمَّر الكتاب والسُّنة على نفسه نطق بالحكمة، وإن وافق أكثرُ من واحد الكتاب أو السنة، فانظر أثقلهم على النفس، فإنه لا يثقل عليها إلا ما هو حق، ولا تتبع أهواء النفوس والخواطر، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل على قلبك من العلوم والأسرار، فإن متابعة الهوى يُعمي القلب عن مطالعة الأسرار، إلا إن وافق السُّنة.

قيل لعمرَ بن عبد العزيز: ما ألذُ الأشياءِ عندك؟ قال: حق وافق هواي. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم " لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يكُون هواه تابعًا لما جئتُ به " ، وفي الحِكَم: " يُخاف عليك أن تلتبس الطرقُ عليك، إنما يُخاف عليك من غَلَبَةِ الهوى عليك ".

فمن تولى عن هذا المنهاج الواضح، وجعل يتبع الهوى ويسلك طريق الرخص، فليعلم أن الله أراد أن يعاقبه ببعض سواء أدبه، حتى يخرج عن منهاج السالكين، والعياذ بالله، أو يؤدبه في الدنيا إن كان متوجهًا إليه.

@{ يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىا أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } * { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىا أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَىا مَآ أَسَرُّواْ فِيا أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } * { وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـاؤُلاَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ }

قلت: { يقول الذين آمنوا } قرىء بغير واو؛ استئنافًا، وكأنه جواب عن سؤال، أي: ماذا يقول المؤمنون حينئذٍ؟ فقال: يقول... الخ، وقرىء بالواو والرفع؛ عطف جملة على جملة، وقرىء بالواو والنصب؛ عطف على { فيصبحوا } أو { يأتي }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء } تنتصرون بهم، أو تعاشرونهم معاشرة الأحباب، أو تتوددون إليهم، وأما معاملتهم من غير مودة فلا بأس، ثم علل النهي عن موالاتهم فقال: هم { بعضهم أولياء بعض } أي: لأنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم بعضًا لا تحادهم في الدين، وإجماعهم على مضادتكم، { ومن يتولهم منكم فإنه منهم } أي: من والاهم منكم فإنه من جملتهم.

قال البيضاوي: وهذا تشديد في وجوب مجانبتهم، كما قال صلى الله عليه وسلم " المؤمنُ والمشركُ لا تَتَراءى نَارهَمَا " أو لأن الموالين لهم كانوا منافقين. هـ.

وقال ابن عطية: من تولهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العَضد ونحوه، دون معتقد ولا إخلال بإيمان، فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه. هـ. وسُئل ابن سيرين عن رجل أراد بيع داره للنصارى يتخذونها كنيسة، فتلا هذه الآية: { ومن يتولهم منكم فإنه منهم }. هـ. وفي أبي الحسن الصغير: أن بيع غير السلاح للعدو الكافر فسق، وبيع السلاح له كفر.

قلت: ولعله إذا قصد تقويتهم على حرب المسلمين، وأما الفداء بالسلاح إذا لم يقبلوا غيره، فيجوز في القليل دون الكثير، وأجازه سحنون مطلقاً، إذا لم يرج فداؤه بالمال. انظر الحاشية.

{ إن الله لا يهدي القوم الظالمين } أي: ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار.

{ فترى الذين في قلوبهم مرض } وهم النافقون، { يسارعون فيهم } أي: في موالاتهم ومناصرتهم، { يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة } أي: يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من الدوائر، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. رُوِي أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لي موالي من اليهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، فقال ابن أبي: إني امرؤ أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية موالي، فنزلت الآية، قال تعالى ردًا عليه: { فعسى الله أن يأتي بالفتح } لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار المسلمين ونصرهم، { أو أمر من عنده } ، يقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، { فيُصبحوا } أي: هؤلاء المنافقون، { على ما أسروا في أنفسهم } من الكفر والنفاق، ومن مظاهرة اليهود { نادمين }.

{ ويقول الذين آمنوا } حينئذٍ ـ أي: حين فتح الله على رسوله وفضح سريرة المنافقين ـ: { أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم } ، يقولهُ المؤمنون بعضهم لبعض، تعجبًا من حال المنافقين وتبجحًا بما منَّ الله عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود؛ لأن المنافقين حلفوا لهم بالمناصرة، كما حكى تعالى عنهم
@وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ }
[الحَشر:11] قاله البيضاوي. وقوله: { حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين }.

يحتمل أن يكون من كلام المؤمنين، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قال: ما أحباط أعمالهم وما أخسرهم! والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مرارًا النهيُ عن موالاة الغافلين، وخصوصًا الفجار منهم، ويلتحق بهم القراء المداهنون؛ وهم فسقة الطلبة؛ الذين هم على سبيل الشيطان، والفقراء الجاهلون؛ وهم من لا شيخ لهم يصلح للتربية، والعلماء المتجمدون، فصحبة هؤلاء تقدح في صفاء البصيرة، وتخمد نور السريرة، وكل من تراه من الفقراء يميل إلى هؤلاء خشية الدوائر، ففيه نزعة من المنافقين. والله تعالى أعلم.

@{ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذالِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } * { إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ } * { وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ }

قلت: { من }: شرطية، و { يرتد }: فعل الشرط، فمن قرأه بالتفكيك فعلى الأصل، ومن قرأه بالإدغام ففتحه تخفيفًا. وجملة { فسوف يأتي }: جواب، والعائد من الجملة محذوف، أي: فسوف يأتي الله بقوم مكانهم...الخ. و { أذلة }: نعت ثاني لقوم، جمع ذليل، وأتى به مع علي؛ لتضمنه معنى العطف والحنو، و { لا يخافون }: عطف على يجاهدون، وجملة: { وهم راكعون }: حال إن نزلت في عليّ رضي الله عنه، أو عطف إن كانت عامة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه } ويرجع عنه بعد الدخول فيه، فسيأتي الله بقوم مكانهم؛ { يحبهم } فيثبتهم على دينهم، { ويحبونه } فيجاهدون من رجع عن دينه، وهم أهل اليمن، والأظهر أنهم أبو بكر الصدّيق وأصحابه، الذين قاتلوا أهل الردة، ويدل على ذلك الأوصاف التي وصفهم الله بها من الجد في قتالهم، والعزم عليه، التي كانت من أوصاف الصدّيق، وكذلك قوله: { أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } فقد كان أبو بكر ضعيفًا في نفسه، قويًا في ذات الله، لم يخف في الله لومة لائم، حين لامه بعض الصحابة في قتالهم.

وفي الآية إخبار بالغيب قبل وقوعه، فقد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق: بنو مدلج، وكان رئيسهم الأسود العنسي، تنبأ باليمن، واستولى على بلادهم، ثم قتله فيروز الديلمي، ليلة قُبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من غدها، وأخبر بموته الرسولُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسُر

المسلمون. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب، تنبأ باليمامة، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمةَ رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجابه صلى الله عليه وسلم: " من مُحمَّدٍ رَسُول اللهِ إلى مسيلمةَ الكَذَّابِ، أمَّا بَعدُ: فَإنَّ الأرض للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِن عِبَادِهِ والعَاقِبَة للمتّقِين " ، فحاربه أبو بكر بجند المسلمين، وقتله وحشي قاتلُ حمزة، وبنو أسد قوم طليحة، تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقاتله، فهرب إلى الشام، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وفي عهد أبي بكر، بنو فزارة قومِ عُيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن مسلمة، وبنو سليم، وبنو يربوع قوم مالك بن نَويرة، وبعض تميم، قوم سَجَاح المتنبئة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الإشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين، فكفى الله أمرهم على يديه. وفي مدة عمر رضي الله عنه غسان، قوم جبلة بن الأيهم، الذي ارتد من اللطمة. فهؤلاء جملة مَن ارتد من العرب. فأتى الله بقوم أحبهم وأحبوه، فجاهدوهم حتى ردوهم إلى دينهم.
@ومحبة الله للعبد: توفيقه وعصمته وتقريبه من حضرته. ومحبة العبد لله: طاعته والتحرز من معصيته، وسيأتي في الإشارة الكلام عليها.

ثم وصفهم بقوله: { أذلة على المؤمنين } أي: عاطفين عليهم خافضين جناحهم لهم، { أعزة على الكافرين } شداد متغالبين عليهم، وهذا كقوله فيهم:
{ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ }
[الفَتْح:29]، { يجاهدون في سبيل الله } من ارتد عن دين الله، { ولا يخافون لومة لائم } لصلابتهم في دين الله، وفيه إشارة إلى خطأ من لام الصِّدِّيق في قتال أهل الردة، وقالوا كيف تقاتل قومًا يقولون: لا إله إلا الله؟ فقال: (والله لنقاتلن مَن فَّرق بين الصلاة والزكاة) ـ فلم يلتفت إلى لومهم. { ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء } ، الإشارة إلى ما خصهم الله به، من المحبة والأخلاق الكريمة، { والله واسع } الفضل والعطاء { عليم } بمن هو أهله.

ولمّا نهى عن موالاة الكفار ذكر من هو أهل للموالاة فقال: { إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا }؛ لم يقل: أولياؤكم بالجمع، تنبيهًا لى أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التبع، ثم وصفهم بقوله: { الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون } أي: خاضعون لله، ولعباده متواضعون، منقادون لأحكامه، أو يتصدقون في حال ركوعهم في الصلاة، حرصًا على الخير ومسارعة إليه، قيل: نزلت في علي ـ كرم الله وجهه ـ؛ سأله سائل وهو راكع في الصلاة، فطَرح له خاتمه، وقيل: عامة، وذكر الركوع بعد الصلاة؛ لأنه من أشرف أعمالها.

{ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا } ، أي يتخذهم أولياء، { فإن حزب الله هم الغالبون } أي: فإنهم الغالبون، ووضع الظاهر موضع المضمر ليكون كالبرهان عليه، فكأنه قال: ومن يتولَ هؤلاء فهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وتنويهًا بذكرهم وتعظيمًا لشأنهم، وتعريضًا بمن يوالي غير هؤلاء. فإنه حزب الشيطان، وأصل الحزب: القوم يجتمعون لأمر حَزَبَهُم. قاله البيضاوي.

الإشارة: محبة الحقّ تعالى لعبده سابقة على محبته له، كما أن توبته عليه سابقة لتوبته، قال تعالى: { يحبهم ويحبونه } ،
{ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ }

[التّوبَة:118]، قال أبو يزيد رضي الله عنه: غلطت في ابتداء أمري في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه، فما انتهيت، رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، ومحبته أقدم من محبتي، وطلبه لي من قبل طلبي له. هـ.

وفي الحكم: " أنت الذاكر من قبل الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين ".

ومحبة الله لعبده: حفظه ورعايته، وتقريبه واصطفاؤه لحضرته، وقال القطب بن مشيش ـ رضي الله عنه ـ: المحبة أخذة من الله قلبَ من أحب، بما يكشف له من نور جماله، وقدس كمال جلاله، وشراب المحبة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعت بالنعوت، والأفعال بالأفعال.
@قلت: ومعنى ذلك: غيبة العبد في شهود الحق، وهو مقام الفناء، ثم قال رضي الله عنه: والشراب ـ أي: الشرب ـ سقي القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب، حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب، أي يكون شرب الخمرة شيئًا فشيئًا، ووقتًا فوقتًا، حتى يتمكن من شهود المعاني بلا فترة، فذلك الرّي، وذلك بعد كمال التهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقي بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه، (قلت: وهو نادر، والغالب عليه الانحراف)، ومنهم من يسقي من جهة الوسائط، كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، (قلت: قوله: كالملائكة... تمثيل للوسائط، فالملائكة؛ للأنبياء، والعلماء بالله وأكابر المقربين لغيرهم)، ثم قال: فمنهم من يسكر بشهود الكأس، ولو لم يذق بعدُ شيئًا، فما ظنك بعدُ بالذوق، وبعدُ بالشرب، وبعدُ بالري، وبعدُ بالسكر بالمشروب؟! ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى، كما أن السكر أيضًا كذلك. انظر بقية كلامه مع شرحه في شرحنا لخمرية ابن الفارض.

وقال شيخنا البوزيدي رضي الله عنه: المحبة لها ثلاث مراتب: بداية ووسط ونهاية؛ فبدايتها لأهل الخدمة، كالعباد والزهاد والصالحين والعلماء المجتهدين. ووسطها لأهل الأحوال، الذين غلب عليهم الشوق حتى صدرت منهم شطحات ورقصات وأحوال غريبة ربما ينكرها أهل ظاهر الشريعة، فمنهم من يغلب عليه الجذب حتى يصطلم، ومنهم من يبقى معه شيء من الصحو، وهؤلاء تظهر عليهم كرامات وخوارق العادات، ونهايتها لأهل العرفان، أهل مقام الشهود والعيان، الذين شربوها من يد الوسائط وسكروا بها، وصحوا. هـ. بالمعنى.

وفي الورتجبي ما حاصله: أن محبتهم بعد المشاهدة، وإلا لم تكن محبة حقيقة؛ لان محبة الآلاء والنعماء معلولة، ولا كذلك هذه، لأن من رآه عشقه، وكيف يرجع عنه من كان مسلوب القلب بعشقه لجماله؟ ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة. هـ.

وللمحبة علامات وثمرات، ذكر بعضَها الحق تعالى بقوله: { أذلة على المؤمنين } أي: متواضعين عاطفين عليهم، { أعزة على الكافرين } ، أي: القواطع، غالبين عليهم، { يجاهدون في سبيل الله } أي: أنفسهم وأهواءهم، { ولا يخافون لومة لائم }؛ إذ لا يراقبون سوى المحبوب، وليس للمحبة طريق إلا محض الفضل والكرم. { ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم }؛ لكن صحبة المحبوبين عند الله من أسبابها العادية، وهم أولياء الله الذين هم حزب الله، فولايتهم والقرب منهم من أسباب القرب والمحبة، ومن موجبات النظر والغلبة؛ { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون }.

@{ يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } * { وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ }

قلت: { والكفار }: من نَصَبَ عطف على الموصول الأول، ومن جَرَّ فعلى الموصول الثاني.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوًا ولعبًا } من شدة كفرهم، وعلبة سفههم { من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم } كاليهود والنصارى، { و } لا تتخذوا أيضًا { الكفار } من المشركين { أولياء } وأصدقاء، أو: لا تتخذوا من اتخذ دينكم هزوًا ولعبًا من أهل الكتاب ومن المشركين أولياء، { واتقوا الله } في موالاتهم { إن كنتم مؤمنين }؛ فإن الإيمان يقتضي الوقوف عند الأمر والنهي.

وكيف توالون من يستهزىء بدينكم، { وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبًا } ، رُوِي أن نصرانيًا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: إشهد أن محمدًا رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب. فدخل خادمه ذات ليلة بنار، وأهله نيام، فطارت شرارة في البيت، فأحرقته وأهله). وفي الآية دلالة على مشروعية الأذان من القرآن. ثم قال تعالى: { ذلك بأنهم قوم لا يعقلون }؛ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهُزء به، والعقل يقتضي المنع من الجهل والإقرارَ بالحق وتعظيمه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد حذّر الحقّ جلّ جلاله من صحبة الأشرار، ويفهم منه الترغيب في موالاة الأخيار، وهم الصوفية الأبرار، ففي صحبتهم سر كبير وخير كثير، ولابن عباد رضي الله عنه في نظم الحكم:

إنَّ التَّواخي فضلُه لا يُنكَر وإن خلا مِن شرطِهِ لا يُشكَر
والشرطُ فِيه أن تُوَاخِي العَارفا عن الحظوظ واللحُوظ صَارِفَا
مقَالُه وَحَالهُ سِيّان مَا دَعَونَا إلاَّ إلىَ الرحمان
أنوارُه دائِمَة السِّرَايَة فِيكَ وقد حَفَّت به الرِّعَايه

وفي الحكم: " لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله ". وبالله التوفيق.

@{ قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ }

قلت: نقم ـ بفتح القاف ـ بالكسر ـ، بمعنى: عاب وأنكر، وانتقم إذا كافأه على إنكاره، ويقال: نقم ـ بالكسر ـ ينقم ـ بالفتح ـ وقرىء به في الشاذ، و { أن أكثركم }: عطف على { آمنا } أي: ما تعيبون منا إلا أنا مؤمنون وأنتم فاسقون.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا } أي: ما تنكرون علينا وتعيبونه منا { إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل } من الكتب كلها،

{ وأن أكثركم } خارجون عن هذا الإيمان، وهذا أمر لا ينكر ولا يعاب، ونظير هذا في الاستثناء العجيب قوله النابغة:

لا عَيبَ فِيهم غَيرَ أنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِن قِرَاعِ الكتَائِبِ

الإشارة: أهل الخصوصية يقرون أحوال أهل الشريعة كلها، ولا ينكرون على أهلها شيئًا من أمورهم، وأهل الشريعة ينكرون كثيرًا من أحوال أهل الخصوصية ويعيبُونها عليهم، وهي من أفضل القربات إلى الله عندهم، فيقولون لهم: هل تنقمون منا إلا أن آمنا بشريعتكم، وأنتم خارجون عن حقيقتنا ورؤية خصوصيتنا، لكن أهل الشريعة معذورون في إنكارهم، إذ ذاك مبلغهم من العلم، فإن كان إنكارهم غيره على ما فهموا من الدين فعذرهم صحيح، وإن كان حسدًا أو حمية فهم ممقوتون عند الله. والله تعالى أعلم.

ولما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود، فقالوا يا محمد: أخبرنا بمن تؤمن من الرسل، فتلا عليهم:
{ قُلْ ءَامَنَّا بِاللهِ }
[آل عمران:84] إلى قوله:
{ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى }
[آل عمران:84] فلما سمعوا ذكر عيسى قالوا: ما رأينا شرًا من دينك.
@{ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّن ذالِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـائِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ }

قلت: مشاركة اسم التفضيل هنا باعتبار زعمهم واعتقادهم، وإلا فلا مشاركة بين المسلمين وبينهم في الشر والضلال، و { مثوبة }: تمييز عن شر، وضع موضع الجزاء، وأصل المثوبة: في الخير، والعقوبة: في الشر، فوضع هنا المثوبة موضع العقوبة تهكمًا بهم، كقوله:

تحَيَّةُ بَينِهِم، ضَربٌ وَجِيعٌ

و { من لعنة الله }: إما خبر، أي: هو مَن لعنه الله، أو بدل من شر، ولا بد من حذف مضاف، إما من الأول أو الثاني، أي: بشر من أهل ذلك الدين من لعنه الله، أو دين من لعنه الله.

ومن قرأ: { عَبَدَ } بفتح الباء، ففعل ماض، صلة لموصول محذوف، أي: ومَن عبد، و { الطاغوت }: مفعول به، ومن قرأ بضم الباء، فاسم للمبالغة، كيقظ، أي: كثير اليقظة، وهو عطف على القردة، والطاغوت مضاف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { هل } أخبركم بأقبح من ذلك الدين الذي قلتم ما رأيتم شرًا منه، هو دين { من لعنه الله } ، أو نفس من لعنه الله، أي: أبعده من رحمته { وغضب عليه } بكفره وعصيانه، وهم اليهود، { وجعل منهم القردة والخنازير } أي: مسخ بعضهم قردة وخنازير، وهم أصحاب السبت، مسخ شبابهم قردة، وشيوخهم خنازير، { و } جعل منهم أيضًا من { عبد الطاغوت } ، وهم عباد العجل، أو الكهنة، أو كل من أطاعوه في معصية الله، { أولئك شر مكانًا } أي: أقبح مكانًا، أي: أقبح مرتبة وأخس حالاً، جعل مكانَهم شرًا، ليكون أبلغ في الدلالة على شريتهم، { و } هم أيضًا { أضل عن سواء السبيل } أي: عن وسط الطريق،

بل حادوا عنه إلى طرق تفريط أو إفراط، حيث تركوا طريق الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم.

الإشارة: من كان متلطخًا بالمعاصي والذنوب، وباطنه محشو بالمساوىء والعيوب؛ كالحسد والجاه وحب الدنيا وسائر أمراض القلوب، ثم جعل يطعن في طريق الخصوص، يقال له: أنبئك بشر من ذلك، هو من أبعده الله بسبب المعاصي، والذنوب، وغضب عليه بسبب أمراض القلوب، ومسخ قلبه عن مطالعة أنوار الغيوب، فهذا أقبح مكانًا وأضل سبيلاً، فكل من أولع بالطعن على الذاكرين، يمسخ قلبُه بالغفلة والقسوة، حتى يفضي إلى سوء الخاتمة. والعياذ بالله.
@{ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوۤاْ آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ }

قلت: جملة: { وقد دخلوا } ، وجملة: { وهم قد خرجوا } ، حالان من فاعل { قالوا } ، ودخلت { قد } على دخلوا وخرجوا؛ تقريبًا للماضي من الحال، ليصح وقوع حالاً؛ أي: ذلك حالهم في دخولهم وخروجهم على الدوام، وأفادت أيضًا ـ لما فيها من التوقع ـ أن أمارات النفاق كانت لائحة عليهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في ذكر مساوىء اليهود: { وإذا جاؤوكم } ودخلوا عليكم، أظهروا الوفاق لكم، و { قالوا آمنا } بدينكم { و } هم { قد دخلوا } عليكم ملتبسين { بالفكر } في قلوبهم، { وهم قد خرجوا } أيضًا { به } ، فلم ينفع فيهم وعظ ولا تذكير، بل كتموا النفاق وأظهروا الوفاق، { والله أعلم بما كانوا يكتمون }؛ فيفضحهم على رؤوس الأشهاد.

الإشارة: من سبق له الطرد والإبعاد لا تنفعه خلطة أهل المحبة والوداد، بل يخرج من عندهم كما دخل عليهم، لا ينفع فيه وعظ ولا تذكير، ولا ينجح فيه زاجر ولا نذير، وأما من سبقت له العناية فلا يخرج من عندهم إلا مصحوبًا بالهداية والرعاية، إذا كان في أسفل سافلين في أعلى عليين؛ لأنهم قوم لا يشقى جليسهم والله تعالى أعلم.

@{ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } * { لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } * { وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }

قلت: { لولا }: أذا دخلت على الماضي أفادت التوبيخ، وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحضيض.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وترى } يا محمد، أو يا من تصح منه الرؤية { كثيرًا } من اليهود { يسارعون في الإثم } أي: في الذنوب والمعاصي المتعلقة بهم في أنفسهم { والعدوان } المتعلقة بغيرهم، كالتعدي على أموال الغير وأعراضهم وأبدانهم، { وأكلهم السحت }: الحرام؛ كالرشا والربا وغير ذلك، { لبئس ما كانوا يعملون } أي: قبح عملهم بذلك، وتناهى في القبح.

{ لولا ينهاهم } أي: هلا ينهاهم { الربانيون } أي: عُبّادُهم ورهبانهم، { والأحبار } أي: علماؤهم وأساقفتهم، { عن قولهم الإثم } أي: الكذب، { وأكلهم السحت }: الحرام، { لبئس ما كانوا يصنعون } من السكوت عنهم، وعدم الإنكار عليهم، عبّر أولاً بيعلمون وثانيًا بيصنعون؛ لأن الصنع أبلغ، ولأن الصنع عمل بعد تدريب وتدقيق وتحري أجادته وجودته، بخلاف العمل، ولا شك أن ترك التغيير والسكوت على المعاصي من العلماء وأولى الأمر أقبح وأشنع من ومواقعة المعاصي، فكان جديرًا بأبلغ الذم، وأيضًا: ترك التغيير لا يخلوا من تصنع، فناسب التعبير بيصنعون، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " مَا مِن رَجُل يُجَاوِرُ قَومًا فَيَعمَلُ بالمَعَاصِي بَين أظْهُرِهم إلاَّ أوشَكَ اللهُ تَعَالَى أن يَعُمَّهُمُ مِنه بِعِقَاب " وقد قال تعالى:
{ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً }
[الأنفَال:25]، فالوبال الذي يترتب على ترك الحسبة أعظم من الوبال الذي يترتب على المعصية، فكان التوبيخ على ترك الحسبة أعظم.

ثم نعى عليهم مقالاتهم الشنيعة، التي هي من جملة قولهم الإثم، فقال: { وقالت اليهود يد الله مغلولة } أي: مقبوضة عن بسط الرزق. رُوِي أن اليهود أصابتهم سنة جدبة بشؤم تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه المقالة الشنيعة، والذي قالها فِنحاص، ونسبت إلى جملتهم؛ لأنهم رضوا بقوله، فعل اليد كناية عن البخل، وبسطها كناية عن الجود، ومنه:
{ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ }
[الإسرَاء:29].

ثم رد عليهم فقال: { غُلّت أيديهم } ، يحتمل أن يكون دعاءً أو خبرًا، ويحتمل أن يكون في الدنيا بالأسر والقبض، أو في الآخرة بجعل الأغلال فيها إلى عنقهم في جهنم، قال تعالى: { بل يداه مبسوطتان } ، أي: نعمه مبسوطة على عباده، سحاء عليهم، الليل والنهار، وإنما ثنيت اليدان عنها، وأفردت في قول اليهود؛ ليكون أبلغ في الرد عليهم، ومبالغة في وصفه تعالى بالجود والكرم، كما تقول: فلان يعطي بكلتا يديه؛ إذا كان عظيم السخاء، أو كناية عن نعم الدنيا والآخرة، أو عن ما يعطيه استدارجًا وما يعطيه للإكرام. ثم أكده بقوله: { يُنفق كيف يشاء } أي: هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة ويضيق تارة أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته.

ولمّا عميت بصيرتهم بالكفر، وقست قلوبهم بالذنوب، كانوا كلما ازدادوا تذكيرًا بالقرآن، زادوا في العتو والطغيان، كما قال تعالى: { وليزيدن كثيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا }؛ إذ هو متعصبون بالكفر والطغيان، ويزدادون طغيانًا وكفرًا بما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضًا من تناول الغذاء الصالح للأصحاء.
@ومن مساوئهم أيضًا: تفريق قلوبهم بالعداوة والشحناء، كما قال تعالى: { وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة }؛ فلا تتوافق قلوبهم ولا تجتمع آراؤهم؛ { كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله } أي: كلما أرادوا حرب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإثارة شر عليه، ردهم الله، وأبطل كيدهم، بأن أوقع بينهم منازعة كف بها شرهم، أو: كلما أرادوا حرب عدو لهم هزمهم الله، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمون. فكان شأنهم الفساد،

ولذلك قال تعالى فيهم: { ويسعون في الأرض فسادًا } أي: الفساد بإثارة الحروب والفتن، وهتك المحارم، واجتهادهم في الحيل والخدع للمسلمين، { والله لا يحب المفسدين } أي: لا يرضى فعلهم فلا يجازيهم إلا شرًّا وعقوبة.

الإشارة: قال الورتجبي: في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله وبعذاب الله لمن عصاه، وبثواب الله لمن أطاعه؛ لئلا يسكنوا عن الزجر للمبطلين والمغالطين، المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيّن تعالى أن من داهن في دينه عذب وإن كان ربانيًا. هـ. وفي بعض الأثر: " إذا رأى العالمُ المنكَر وسكت، فعليه لعنة الله ". والذي يظهر أن نهي الربانيين يكون بالهمة والحال، كقضية معروف الكرخي وغيره ونهي الأحبار يكون بالمقال، وقد تقدم هذا. والله تعالى أعلم.

@{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ } * { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولو أن أهل الكتاب }: اليهود والنصارى، { آمنوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، { واتقوا } ما ذكرنا من معاصيهم ومساويهم، { لكفّرنا عنهم سيئاتهم } المتقدمة، ولم نؤاخذهم بها، { ولأدخلناهم جنات النعيم } مع المؤمنين، وفيه تنبيه على أن الإسلام يجُب ما قبله ولو عظم، وأن الكتابي لا يدخل الجنة إلا أن يسلم.

{ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل } بالإيمان بما فيهما، وإذاعة علمهما، والقيام بأحكامهما، من غير تفريق بينهما، وآمنوا بما { أنزل إليهم من ربهم } ، يعني بسائر الكتب المنزلة، ومن جملتها القرآن العظيم، فإنهم لما كلفوا بالإيمان بها صارت كأنها منزلة عليهم، فلو فعلوا ذلك { لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم } أي: لوسعنا عليهم أرزاقهم، وبسطنا عليهم النعم؛ بأن يفيض عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، أو: لأكلوا من فوقهم بكثرة ثمرة الأشجار، ومن تحت أرجلهم بكثرة الزروع، أو من فوقهم ما يجنون من ثمار أشجارهم، ومن تحت أرجلهم ما يتساقط منها، والمراد: بيان علة قبض الرزق عنهم، وأن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم، لا لقصور القدرة عن ذلك.

ولو أنهم أقاموا ما ذكرنا لوسعنا عليهم، ولحصل لهم خير الدارين، { منهم أمة مقتصدة } أي: جماعة عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، { وكثير منهم ساء ما يعملون } أي: قبح عملهم، وفيه معنى التعجب، أي: ما أسوأ عملهم!، وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه، والإفراط في العداوة. قاله البيضاوي. قال في الحاشية: وفي الآية شاهد لما ورد من افتراق أهل الكتابين على فرق، كما أن شاهد افتراق هذه الأمة آية:
{ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ }
[الأعرَاف:181]، وهذه هي الناجية من هذه الأمة. هـ. يعني التي تهدي بالحق إلى الحق، وتعدل به في جميع الأمور.

الإشارة: كل من حقّق الإيمان الكامل والتقوى الكاملة، وسع الله عليه من أرزاق العلوم، وفتحت له مخازن الفهوم، ودخل جنة المعارف، لم يشتق إلى جنة

الزخارف، وقال الورتجبي: لو كانوا على محل التحقيق في المعرفة لأكلوا أرزاق الله بالله من خزائن غيبه، كأصحابه المن والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض وهم على ذلك، بإسقاط رؤية الوسائط. هـ.

وقال القشيري: لو سلكوا سبيل الطاعات لوسعنا عليهم أسباب المعيشة، وسهلنا لهم الحال، إن ضربوا يُمنة، لا يلقون غير اليُمن، وإن ضرَبوا يُسرةَ، لا يجدون إلا اليسر. هـ.

@{ يَـاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الرسول بلغ } جميع { ما أنزل إليك من ربك } غير مراقب أحدًا ولا خائف مكروهًا، { وإن لم تفعل }؛ بأن لم تبلغ جميع ما أمرتك وكتمت شيئًا منه، { فما بلغت رسالته } أي: كأنك ما بلغت شيئًا من رسالة ربك؛ لأن كتمان بعضها يُخل بجميعها، كترك بعض أركان الصلاة. وأيضًا كتمان البعض يُخل بالأمانة الواجبة في حق الرسل، فتنتقض الدعوة للإخلال بالأمانة، وذلك محال. ولا يمنعك أيها الرسول عن التبليغ خوف الإذاية فإن { الله يعصمك من الناس } بضمان الله وحفظه، { إن الله لا يهدي القوم الكافرين } أي: لا يمكنهم مما يريدونه منك. وقد قصده قوم بالقتل مرارًا، فمنعهم الله من ذلك كما في السير عن النبي صلى الله عليه وسلم: " بَعَثَني اللهُ بِرِسَالَتِه، فَضِقتُ بها ذَرعًا، فأوحَى اللهُ لي: إن لم تُبلِّغ رِسَالَتِي عَذَّبتُكَ، وَضَمِنَ لِيَ العِصمَةَ فَقَوِيتُ ".

وعن أنس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس، حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة أدم، فقال: " انصرفوا يا أيها الناس؛ فقد عصمني الله من الناس " وظاهر الآية يوجب تبليغ جميع ما أنزل الله. ولعل المراد تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه، فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه. قاله البيضاوي.

الإشارة: قال الورتجبي: أمره بإبلاغ ما أنزل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولم يأمرهم بأنه يعرفهم أسرار ما بينه وبين الله، وما بين الله وبين أنبيائه وأوليائه. ثم قال: { والله يعصمك } أي: يعصمك أن يوقعك أحد في التمويه الغلط والحيل في طريقك إليَّ، وهذا لكونه مختارًا بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول: ظهور أنوار الربوبية في قلبه، وبيان أحكام العبودية في سرّه. وقال الأستاذ، يعني القشيري: يقال في قوله: { والله يعصمك من الناس } أي: حتى لا تغرق في بحر التوهم، بل تشاهدهم كما هُم؛ وجودًا بين طرفي العَدَم. انتهى نقل الورتجبي.

وقال القشيري أيضًا: لا تكتم شيئًا مما أوحينا إليك مُلاحظةً غير، إذ لا غيرَ في التحقيقَ إلا رسومًا موضوعة، أحكام القدرة عليها جارية. ثم قال: { والله يعصمك } أي: يعصم ظاهرك من أن يَمَسَّك من أذاهم شيء، فلم يتسلط عليه بعد هذا عدو، أي: وما وقع له من الشج وغيره كان قبل ذلك، وقيل: المراد عصمته من القتل، ثم قال: ونصون سِرَّك عنهم، حتى لا يقع على إحساسهم. وقال شيخنا السلمي: قيل: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفات، أو يكون لك بهم اشتغال. انتهى.

قلت: صدق الباطن، لا ينفك عنه من أول الأمر؛ لأنه من ضروريات كونه رسول الله بالله، وهذا قد يتحقق للمأذون من أتباعه، فضلاً عنه، والظاهر ما صدر به من عصمة ظاهره، أو أن يقع خلل في طريقه؛ بتمويه أو غلط أو حيلة، كما أشار إليه الورتجبي. فللّه دره. قاله المحشي الفاسي. والله تعالى أعلم.

@{ قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىا شَيْءٍ حَتَّىا تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

{ قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىا شَيْءٍ حَتَّىا تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ... }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد: { يا أهل الكتاب } ، اليهود والنصارى، { لستم على شيء } أي: لستم على دين يعتد به، { حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم } على لسان محمد صلى الله عليه وسلم، ومن إقامتها الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها، أمرت بالإيمان والإذعان، لمن صدقته المعجزة، وهي ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد بإقامة الكتابين: إقامة أصولهما وما لم ينسخ من فروعهما، لا جميعهما. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما قيل لأهل الكتاب يقال لهذه الأمة المحمدية على طريق الإشارة، فيقال لهم: لستم على شيء، يُعبَأ به من أعمالكم وأحوالكم، حتى تقيموا كتابكم القرآن، فتحلوا حلاله، وتحرموا حرامه، وتقفوا عند حدوده، وتمتثلوا أوامره، وتجتنبوا نواهيه، وتقيموا ـ أيضًا ـ سنة نبيّكم؛ فتقتدوا بأفعاله، وتتأدبوا بآدابه، وتتخلقوا بأخلاقه، على جهد الاستطاعة، ولذلك قال بعض السلف: ليس عليّ في القرآن أشد من هذه الآية: { قل يا أهل الكتاب لستم على شيء } الآية. كما في البخاري.

ثم ذكر عتوّ اليهود وطغيانهم، فقال:

{... وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وليزيدن كثيرًا } من اليهود { ما أنزل إليك } من القرآن والوحي { طغيانًا وكفرًا } على ما عندهم، فلا تحزن عليهم بزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم، لا يتخطاهم، قال ابن عباس: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعُ بن حارثة وسلام بن مشكم وملك بن الصيف ورافع بن حريملة في جماعة من اليهود، فقالوا: " يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم، وأنك مؤمن بالتوراة وبنبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: " بلى، ولكنكم أحدثتم وكتمتم وغيرتم " فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولا نصدقك ولا نتبعك، فنزلت فيهم هذه الآية.

الإشارة: من شأن أهل المحبة والاعتقاد، الذين سبقت لهم من الله العناية والوداد، إذا ازداد على أشياخهم فيض علوم وأنوار وأسرار؛ زادهم ذلك يقينًا وإيمانًا وعرفانًا، يجدون حلاوة ذلك في قلوبهم وأسرارهم؛ فيزدادون قربًا وشهودًا، وأهل العناد الذين

سبق لهم من الله الطرد والبعاد؛ إذا سمعوا بزيادة علوم وأنوار على أولياء الله، زادهم ذلك طغيانًا وبُعدًا، فلا ينبغي الالتفات إليهم، ولا الاحتفال بشأنهم، فإن الله كاف شرهم، وبالله التوفيق.

@{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }

قلت: { والصابئون }: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. انظر البيضاوي وابن هشام.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين آمنوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم { والذين هادوا والصابئون }: قوم بين النصارى والمجوس، أو عباد المكواكب، أو قوم بقوا على دين نوح ـ عليه السلام ـ { والنصارى }: قوم عيسى، { من آمن } منه { بالله } إيمانًا حقيقيًا؛ بلا شرك ولا تفريق، وآمن باليوم الآخر، { وعمل صالحًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون }، قال ابن عباس: نسخها:
{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ }
[آل عِمرَان:85]، وقيل: إن هؤلاء الطوائف من آمن منهم إيمانًا صحيحًا فله أجره، فيكون في حق المؤمنين: الثبات عليه إلى الموت، وفي حق غيرهم: الدخول في الإسلام، فلا نسخ. وقيل: إنها فيمن كان قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم فلا نسخ أيضًا. قاله ابن جزي.

الإشارة: الذي طلب الله من العباد ورغبهم في تحصيله، وجعله سببًا للنجاة من كل هول في الدنيا والآخرة ثلاثة أمور: أحدها: تحقيق الإيمان بالله، والترقي فيه إلى محل شهود المعبود، والثاني: تحقيق الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نصب عينيه، ويقربه كأنه واقع يشاهده؛ إذ كل آت قريب. والثالث: إتقان العمل إظهارًا للعبودية، وتعظيمًا لكمال الربوبية، على قدر الاستطاعة من غير تفريط ولا إفراط، وبالله التوفيق.

@{ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيا إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىا أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ } * { وَحَسِبُواْا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }

قلت: المضارع إذا وقع بعد العلم وجب إهمال (إن) معه، فتكون مخففة، وإن وقعت بعد الظن يصح فيها الوجهان، فمن قرأ: { وحسبوا ألا تكون } بالرفع، فأن مخففة، ومن قرأ بالنصب فأن مصدرية. والفرق بين العلم والظن، أن علم العبد إنما يتعلق بالحال، و(أن) تُخلص للاستقبال، فلا يصح وقوعها بعد العلم، فأهملت وكانت مخففة من الثقيلة، بخلاف الظن؛ فيتعلق بالحال والاستقبال، فصح وقوع (أن) بعده. و { كلما }: ظرف لكذبوا أو يقتلون، و { كثير }؛ بدل من فاعل عموا وصموا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل } أن يعملوا بأحكام التوراة، { وأرسلنا إليهم رسلاً } يجددون العهد ويحثون على الوفاء به، ثم إنهم طغوا وعتوا؛ { كلما جاءهم رسول } من عند الله { بما لا تهوى أنفسهم } من الشرائع التي

تخالف أهواءهم ومشاق الطاعة، { فريقًا } منهم كذبوهم { وفريقًا } يقتلونهم، أي: كذبوا فريقًا كداود وسليمان، وفريقًا قتلوهم بعد تكذيبهم كزكريا ويحيى، وقصدوا قتل عيسى عليه السلام فليس ما فعلوا معك ببعد منهم، فلهم سلف في ذلك.

{ وحسبوا } أي: ظنوا { ألا تكون فتنة } أي: لا يقع بهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وتكذيبهم، { فعموا } عن أدلة الهدى، أو عن الدين، { وصموا } عن استماع الوعظ والتذكير، كما فعلوا حيث عبدوا العجل، { ثم تاب الله عليهم } لما تابوا، { ثم عموا وصموا } لما قتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، واستمر على ذلك { كثير منهم } ، وقليل منهم بقوا على العهد { والله بصير بما يعملون } فيجازيهم وفق أعمالهم.

الإشارة: لقد أخذ الله العهد على جميع بني آدم في شأن حمل الأمانة، التي حملها أبوهم آدم، وبعث الأنبياء والأولياء يجددون العهد في حملها، ويعرفون الناس بشأنها، وهي المعرفة الخاصة، التي هي شهود عظمة الربوبية في مظاهر العبودية، وحملها لا يكون إلا بمخالفة الهودى وخرق عوائد النفوس، ولا يطيقها إلا الخصوص، فلذلك كثر الإنكار على الأنبياء والأولياء؛ إذ لم يأت أحد بخرق العوائد إلا عودي وأنكر، فكلما جاءهم رسول أو ولي بما لا تهوي أنفسهم فريقًا منهم كذبوا وفريقًا يقتلون، وظنوا أن الله لا يعاقبهم على ذلك، ولا تصيبهم فتنة في قلوبهم على ما هنالك، فعموا عن مشاهدة أنوار الحق، وصموا عمن يذكرهم بالحق، وقد تلمع لهم تارة قبس من أنوارهم، فيتوبون، ثم يُصّرون على الإنكار. والله بصير بما يعملون.

@{ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِيا إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ } * { لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـاهٍ إِلاَّ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } * { أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } * { مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّا يُؤْفَكُونَ } * { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم } ، لِما رأوا على يديه من الخوارق، { وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم } المعنى: لقد كفر من اتخذ عيسى إلهًا مع أنه كان يتبرأ من هذا الاعتقاد، ويقول لبني إسرائيل: اعبدوا الله خالقي وخالقكم.

والمشهور في الأخبار، أن النصارى هم الذين اعتقدوا هذا الاعتقاد دون بني إسرائيل، نعم، أصل دخول هذه الشبهة على النصارى من يهودي يقال له: بولس، حسدًا منه، وذلك أنه دخل في دينهم، وفرق أموالهم، وتأهب للتعبد معهم، ثم سار إلى بيت المقدس وقطّع نفسه تقربًا عند قبري مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ في زعمهم، وكان معه رجلان اسمهما: يعقوب وناسور، فأخذ يعلمهما ذلك الفساد ويقول لهما: عيسى هو الله أو ابن الله، فلما قطع نفسه صار الرجلان يُفشيان ذلك عنه، فشاع مذهب الرجلين، وكان منهما الطائفة اليعقوبية والناسورية.

ثم هددهم على الشرك فقال، أي: عيسى: { إنه من يشرك بالله } في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال، { فقد حرم الله عليه الجنة } أي: يمنع من دخولها؛ لأنها دار الموحدين، { ومأواه النار } أي: محله النار. لأنها معدة للمشركين، { وما للظالمين من أنصار } أي: وما لهم أحد ينصرهم من النار. ووضع المظهر موضع المضمر، تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك، وعدلوا عن طريق الحق، وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه السلام، أو من كلام الله تعالى.

ثم ذكر تعالى صنفًا آخر منهم، فقال: { لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة } أي: أحد ثلاثة، عيسى وأمه وهو ثالثهم، أو أحد الأقانيم الثلاثة، الأب والابن وروح القدس، يريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وبروح القدس الحياة، لكن في إطلاق هذا اللفظ إيهام وإيقاع للغير في الكفر، وهذه المقالة- أعني التثليث، هي قوله النسطورية والملكانية، وما سبق في قوله: { إن الله هو المسيح } قول اليعقوبية، القائلة بالاتحاد، وكلهم ضالون مضلون، { وما من إله إلا إله واحد } في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك له في ألوهيته، متصلاً ولا منفصلاً، { وإن لم ينتهوا عما يقولون } ، ولم يوحدوا { ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم } أي: ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ولم يتوبوا، عذاب موجع.

{ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه } أي: أفلا يرجعون عن تلك العقائد الزائفة والأقوال الفاسدة، ويستغفرونه بالتوحيد والتوبة عن الاتحاد والحلول، فإن تابوا غفر الله لهم، { والله غفور رحيم }. وهذا الاستفهام: تعجب من إصرارهم، مع كون التوبة مقبولة منهم.

ثم رد عليهم بقوله: { ما المسيح ابن مريم إلا رسول } بشر { قد خلت من قبله الرسل } ، وخصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن كان قد أحيا الله الموتى على يديه، فقد أحيا العصى، وجعلها حية تسعى على يد موسى، بل هو أعجب، وإن كان قد خلقه الله من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وهو أغرب، { وأمه صديقة } فقط، كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق أو التصديق، { كانا يأكلان الطعام } ويفتقران إليه افتقار الحيوانات، قال البيضاوي: بيّن أولاً أقصى مالهما من الكمال، ودل أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيرًا من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما، وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكون من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، أي: القابلة للفساد، ثم عجب ممن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة، فقال: { انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يؤفكون } أي: كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله، و { ثم } للتفاوت بين العجبين، أي: أن بياننا للآيات عجب، وإعراضهم عنها أعجب.
@ثم أبطل عبادتهم لعيسى عليه السلام فقال: { قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا } بل هو عاجز عن صرفه عن نفسه وجلب الخير لها، فكيف يقدر أن يدفعه عن غيره؟ وعبَّر عنه بما، دون { من } - إشارة إلى أنه من جنس ما لا يعقل، وما كان مشاركًا في الحقيقة لجنس ما لا يعقل، يكون معزولاً عن الألوهية، وإنما قدّم الضر؛ لأن التحرز منه أهم من تحري النفع، ثم هددهم بقوله: { والله هو السميع العليم } بالأقوال والعقائد، فيجازي عليهما، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يصفي مشرب توحيده، ويعتني بتربية يقينة، بصحبة أهل اليقين، وهم أهل التوحيد الخاص، فيترقى من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات،

ومن توحيد الصفات إلى توحيدات الذات، فنهاية توحيد الصالحين والعلماء المجتهدين تحقيق توحيد الأفعال، وهو ألاَّ يرى فاعلاً إلا الله، لا فاعل سواه، وثمرة هذا التوحيد: الاعتماد على الله، والثقة بالله، وسقوط خوف الخلق من قلبه، لأنه يراهم كالآلات، والقدرة تحركهم، ليس بيدهم نفع ولا ضرر، عاجزون عن أنفسهم فكيف عن غيرهم؟ ونهاية توحيد العباد والزهاد والناسكين المنقطعين إلى الله تعالى توحيد الصفات، فلا يرون قادرًا ولا مريدًا ولا عالمًا ولا حيًّا ولا سميعًا ولا بصيرًا ولا متكلمًا إلا الله، قد انتفت عنه صفات الحدث وبقيت صفات القدم. وثمرة هذا التوحيد: الانحياش من الخلق والتأنس بالملك الحق، وحلاوة الطاعات ولذيذ المناجات. ونهاية توحيد الواصلين من العارفين والمريدين السائرين: توحيد الذات؛ فلا يشهدون إلا الله، ولا يرون معه سواه. قال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع، فإنه لا غير معه حتى أشهده. وقال شاعرهم:

مُذ عَرَفتُ الإله لَم أرَ غَيرَا وكَذَا الغَيرُ عِندَنَا مَمنُوعُ
مُذ تَجَمَّعتُ مَا خَشيتُ افتِراقاً فَأنَا اليَومَ واصِلٌ مجمُوعُ

وقال في التنوير: أبى المحقّقون أن يشهدوا مع الله سواه؛ لما حققهم به من شهود الأحدية وإحاطة القيومية. هـ. وفي الحكم: " الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته ".

وهؤلاء هم الصديقون المقربون. نفعنا الله بذكرهم، وخرطنا في سلكهم. آمين.

@{ قُلْ يَـاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أهل الكتاب } أي: النصارى، { لا تغلوا في دينكم } وتقولوا قولاً { غير الحق }؛ وهو اعتقادكم في عيسى أنه إله، أو أنه لغير رشدة، ولا تفرطوا، { ولا تتبعوا أهواء قوم } سلفوا قبلكم، وهم أئمتكم في الكفر، { قد ضلوا من قبل } أي: من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، { وأضلوا } أناسًا { كثيرًا }؛ حملوهم على الاعتقاد الفاسد في عيسى وأمه، فقلدوهم وضلوا معهم، { وضلوا عن سواء السبيل } أي: عن قصد السبيل المستقيم، وهو الإسلام بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم، وقيل: الضلال الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع. قاله البيضاوي.

الإشارة: الغلو كله مذموم كما تقدم، وخير الأمور أوسطها، كما تقدم. وقد رخص في الغلو في ثلاثة أمور: أحدها: في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فلا بأس أن يبالغ فيه ما لم يخرجه عن طور البشرية، وهذا غلو ممدوح، مقرب إلى الله تعالى، قال في بردة المديح:

دع ما ادَّعَتهُ النَّصَارى في نَبيّهم واحكُم بما شِئتَ مَدحًا فيهِ واحتكَم

الثاني: في مدح الأشياخ والأولياء، ما لم يخرجهم أيضًا عن طورهم، أو يغض من مرتبة بعضهم، فقد رخصوا للمريد أن يبالغ في مدح شيخه، ويتغالى فيه، بالقيدين المتقدمين؛ لأن ذلك يقربه من حضرة الحق تعالى. والثالث: في تعظيم الحق جل جلاله. وهذا لا قيد فيه ولا حصر. حدث عن البحر ولا حرج، إذا كان ممن يحسن العبارة ويتقن الإشارة، بحيث لا يوهم نقصًا ولا حلولاً. وبالله التوفيق.

@{ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِيا إِسْرَائِيلَ عَلَىا لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذالِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } * { كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } * { تَرَىا كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ } * { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـاكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود } أي: لعنهم الله في الزبور على لسان نبيه داود عليه السلام، { و } لعنهم الله أيضًا في الإنجيل على لسان { عيسى ابن مريم } ، فالأول: أهل أيلَة؛ لما اعتدوا في السبت لعنهم داود عليه السلام، فمسخوا قردة وخنازير، والثاني أصحاب المائدة، لمّا كفروا دعا عليهم عيسى، ولعنهم، فمسخوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل، { ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون }؛ ذلك اللعن الشنيع المقتضى للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حَرُم عليهم.

{ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه } أي: لا ينهى بعضهم بعضًا عن معاودة منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيأوا له، أو: لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه، { لبئس ما كانوا يفعلون } ، وهو تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم.

{ ترى كثيرًا منهم } أي: من اليهود، { يتولون الذين كفروا } أي: يوالون المشركين بُغضًا للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، { لبئس ما قدمت لهم أنفسهم } أي: لبئس شيئًا قدموه، ليردوا عليه يوم القيامة، وهو { أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون } أي: بئس ما قدموا أمامهم، وهو سخط الله والخلود في النار، والعياذ بالله، { ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي } أي: نبيهم كما يزعمون، { وما أُنزل إليه } من التوراة وغيره، { ما اتخذوهم أولياء }؛ لأن النبي لا يأمر بموالاة الكفار، ولو آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه ـ كما هو الواجب عليهم ـ ما اتخذوا الكفار أولياء، { ولكن كثيرًا منهم فاسقون } أي: خارجون عن دينهم، أو خارجون عن الدين الحق الذي لا يقبل غيره، وهو الإسلام.

الإشارة: ذكر الحق جل جلاله في هذه الآية ثلاثة أمور، وجعلها سببًا للعن والطرد، وموجبة للسخط والمقت، أولها: الانهماك في المعاصي والعدوان، والإصرار على الذنوب والطغيان. والثاني عدم الإنكار على أهل المعاصي والسكوت عنهم والرضا بفعلهم، والثالث: موالاة الفجار والمودة مع الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم، وفي بعض الأخبار: (لو أن رجلاً قام الليل وصام النهار، ثم تودد مع الفجار لبعث معهم، ولو أن رجلاً عمل بالمعاصي ما عمل، ثم أحب الأبرار لحُشر معهم)، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وبعضده حديث: " المَرءُ مَعَ مَن أحبَّ " والله تعالى أعلم.

@{ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوااْ إِنَّا نَصَارَىا ذالِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ } * { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىا أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } * { وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ } * { فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ

بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذالِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ } * { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُوْلَـائِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }

قلت: القسيس: العالم، والراهب، العابد، و { مما عرفوا }: سببية، و { من الحق }: بيان أو تبعيض، وجملة: { لا نؤمن }: حال، والعامل فيها متعلق الجار، أي: أي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنيين، و { نطمع }: عطف على { نؤمن } ، أو خبر عن مضمر، أي: ونحن نطمع.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لتجدن أشد الناس عداوة } للمؤمنين؛ اليهود والمشركين، لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد، وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء، ومعاداتهم وعدوانهم لا ينقطع إلى الأبد.

{ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى } ، للين جانبهم، ورقة قلوبهم، وقلة حرصهم على الدنيا بالنسبة لليهود، وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: { ذلك بأن منهم قسيسين } أي: علماء، ومن جملة علمهم: علمُهم بوصاية عيسى بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، { ورهبانًا } أي: عبادًا، { وأنهم لا يستكبرون } عن قبول الحق إذا عرفوه، بخلاف اليهود؛ لكثرة جحودهم، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل محمود، وإن كان من كافر. قاله البيضاوي.

{ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول } محمد صلى الله عليه وسلم { ترى أعينهم تفيض من الدمع }؛ من البكاء، جعل أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها، وإنما يفيض دمعها، وذلك { مما عرفوا من الحق } حين سمعوه، أو من بعض الحق، فما بالك لو عرفوا كله؟ { يقولون ربنا آمنا } بذلك، أو بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ { فاكتبنا مع الشاهدين } بأنه حق، أو بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم.

نزلت في النجاشي وأصحابه، حين دعوا جعفرًا وأصحابه، وأحضروا القسيسين والرهبان، وأمره أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم، فبكوا وآمنوا بالقرآن. وقيل: نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه، وفدوا من عنده من الحبشة بأمره على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم سورة { يَس } ، فبكوا وآمنوا، فصدر الآية عام، فالنصارى كلهم أقرب مودة للمسلمين، من آمن، ومن لم يؤمن، وإنما جاء التخصيص في قوله: { وإذا سمعوا } ، فالضمير إنما يرجع إلى من آمن منهم، كالنجاشي وأصحابه. وإنما جاء الضمير عامًا؛ لأن الجماعة تحمد بفعل الواحد. انظر ابن عطية.

ولما دخل الإيمان في قلوبهم حين سمعوا القرآن، عاتبوا أنفسهم على التأخر عن الإيمان فقالوا: { وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق } { و } نحن { نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين } ، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي هي أفضل الأمم، وهذا منهم استفهامُ إنكار واستبعاد؛ لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي، وهو الطمع في الانخراط مع الصاحلين، والدخول في مداخلهم، { فأثابهم الله } أي: جازاهم { بما قالوا } واعتقدوا، { جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها وذلك جزاء المحسنين } الذين اعتادوا الإحسان في جميع الأمور، أو الذين أحسنوا النظر وأتقنوا العمل.
@ثم ذكر ضدهم فقال: { والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم } ، شفع بهم حال المؤمنين المصدقين، جمعًا بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد بين خوف ورجاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشد الناس إنكارًا على الفقراء، وأشدهم عداوة لهم، من تقدم في أسلافه رئاسة علم أو جاه أو صلاح أو نسبة شرف، وأقرب الناس مودة لهم من لم يتقدم له شيء من ذلك، فالعوام أقرب وأسهل للدخول في طريق الخصوص من غيرهم. والله تعالى أعلم.

@{ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } * { وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيا أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله } أي: لا تحرموا ما طاب ولذ مما أحله الله لكم، { ولا تعتدوا } فتحرموا ما أحللت لكم، ويجوز أن يراد: ولا تعتدوا حدود ما أحل لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم، داعية إلى القصد بينهما، والوقوف على ما حد دون التجاوز إلى غيره. رُوِي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصَفَ القِيامَة يومًا، وبالغ في إنذارهم، فَرَقوا، واجتمعوا في بيت عُثمان بن مظعون، واتفقوا على ألا يزالوا صائمين قائمين، وألا يناموا على الفُرُش، ولا يأكُلوا اللحمَ والودَك، ولا يَقربُوا النساء والطِّيبَ، ويَرفضُوا الدُنيا، ويلَبسُوا المُسوح، ويَسيحُوا في الأرض، ويَجُبُّوا مَذَاكِرَهم، فَبلَغ ذلك رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم " إني لم أُومر بذلكَ، إنَّ لأنفُسِكُم عَليكُم حقًا، فصُومُوا وأفطِرُوا، وقُومُوا ونَاموا، فإنِّي أقُومُ وأنام، وأصُوم وأُفطِر، وآكُلُ اللحم والدَّسم، وآتى النساء، فَمَن رَغِبَ عن سُنتي فَليس مني " ونزلت الآية.

ثم قال تعالى: { وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا } أي: كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، { واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون }؛ فأحلوا حلاله واستعملوه، وحرموا حرامه واجتنبوه.

الإشارة: طريقةُ العباد والزهاد: رفض الشهوات والملذوذات بالكلية، زهدًا وورعًا وخوفًا من اشتغال النفس بطلبها، فيتعطل وقتهم عن العبادة، وطريقة المريدين السائرين: رفض ما تتعلق به النفس قبل الحصول، وتشره إليه رياضة وتعففًا، لئلا تتعلق هِممُهم بغير الله، فما جاءهم من غير طلب ولا شره أكلوه وشكروا الله عليه، ولا يقفون مع جوع ولا شبع. وطريقة الواصلين العارفين: تجنب ما يقبض من غير يد الله، فإذا أخذتهم سنة حتى غفلوا عن التوحيد فقبضوا شيئًا، مع رؤية الواسطة، أخرجوه عن ملكهم، كما وقع لأبي مدين رضي الله عنه ويأخذون ما سوى ذلك قَلّ أو كثر، ولا يقفون مع أخذ ولا ترك، وفي الحكم: " لا تمدن يديك إلى الأخذ من الخلائق، إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك، فإن كنت كذلك فخذ ـ ما وافقك العلم ".

@{ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيا أَيْمَانِكُمْ وَلَـاكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذالِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذالِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }

قلت: { في أيمانكم }: يتعلق باللغو، أو بيؤاخذكم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لا يُواخذكم الله باللغو في أيمانكم } وهو ما يصدر من الإنسان بلا قصد، كقوله: لا والله، وبلى والله. وإليه ذهب الشافعي، وقيل: هو الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة، { ولكن يُؤاخذكم بما عقدتم الإيمان } عليه، أي: بما جزمتم عليه بالنية والقصد، { فكفارته } أي: ما عقدتم عليه إذا حلفتم، ويجوز التكفير قبل الحنث لظاهر الآية.

ثم بيَّن الكفارة، فقال: { إطعام عشرة مساكين } ، فمن أطعم غنيًا لم تجزه، واشترط مالك أن يكونوا أحرارًا، وليس في الآية ما يدل على ذلك، ثم بيَّن نوعه فقال: { من أوسط ما تُطعمون أهليكم } أي: من وسط طعام أهليكم في القدر أو في الصفة، أما القدر فقال مالك: يطعم مُدًا لكل مسكين بمد النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان في المدينة المشرفة، وفي غيرها وسط من الشبع، وقال الشافعي وابن القاسم: يجزىء المُد في كل مكان، وقال أبو حنيفة: إن غذاهم وعشاهم أجزأه.

قلت: وهو قول في المدونة لمالك أيضًا. وأما الصنف، فاختلف: هل يطعم من عيش نفسه، أو من عيش بلده وهو المشهور؟

فمعنى الآية على هذا: { من أوسط ما تطعمون } أيها الناس { أهليكم } على الجملة { أو كسوتهم }؛ فيكسو كل مسكين ما نصح به الصلاة، فالرجل ثوب، والمرأة قميص وخمار، { أو تحرير رقبة } مؤمنة على مذهب مالك؛ لتقييدها بذلك في كفارة القتل. وأجاز أبو حنيفة عتق الكافر، لإطلاق اللفظ هنا، واشترط مالك أيضًا أن تكون مسلمة من العيوب، وليس في الآية ما يدل عليه، فهذه الثلاثة بالتخيير.

{ فمن لم يجد } واحدًا من هذه الثلاثة، ولم يقدر على شيء منها، بحيث لم يفضل له عن قوته وقوت عياله في يومه ما يطعم به، { فصيام ثلاثة أيام } يستحب تتابعها، اشترطه أبو حنيفة؛ لأنه قرىء: (أيام متتابعات)، والشاذ ليس بحجة، { ذلك } المذكور هو { كفارة أيمانكم إذا حلفتم } وحنثتم، { واحفظوا أيمانكم } أي: صونوا ألسنتكم عن كثرة الحلف، فيكون الله عرضة لأيمانكم، أو احفظوها بأن تبروا فيها ولا تحنثوا، إلا إن كان في الامتناع من الخير، فالحنث فيها أحسن، كما في الحديث. أو احفظوها بأن تكفروها إذا حنثتم، ولا تتهاونوا بها، { كذلك يُبيّن الله لكم آياته } أي: مثل ذلك البيان يُبين لكم أعلام شرائعه { لعلكم تشكرون } نعمة التعليم،أو نعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يُسهل لكم المخرج من ضيق اليمين، فهو نعمة يجب شكرها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ليس التشديد والتعقيد من شأن أهل التوحيد، إنما شأنهم الاسترسال مع ما يبرز من عنصر القدرة، ليس لهم وقت دون الوقت الذي هم فيه، قد حلّ التوحيد عُقدهم ودكّ عزائمهم، فهم في عموم أوقاتهم لا يدبرون ولا يختارون، وإن وقع

منهم تدبير أو اختيار رجعوا إلى ما يفعل الواحد القهار، لا يبطشون إلى شيء ولا يهربون من شيء، إلا إن كان فيه مخالفة للشرع.
@ولا يعقدون على ترك شيء من المباحات ولا على فعله، لأنهم لا يرون لأنفسهم فعلاً ولا تركًا، إن صدرت منهم طاعة شهدوا المنّة لله، وإن وقعت منهم زلّة أو غفلة تأدبوا مع الله، وبادروا بالتوبة إلى الله، وما صدر من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فلعل ذلك كان حالاً غالبة عليهم، قد أزعجهم وعظ النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهضهم حاله، فلما رآهم غلب عليهم الحال ردّهم إلى حال الاعتدال، ولعل الحق ـ جل جلاله ـ، إنما جعل كفّارة اليمين جبرًا لخلل ذلك التعقيد، الذي صدر من الحالف مع تفريطه بالحنث، فكأنه حلف على فعل غيره، ففيه نوع من التألي على الله. والله تعالى أعلم.

@{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } * { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } * { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَىا رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ }

قلت: { رجس } خبر، وأفرده؛ لأنه على حذف مضاف، أي: تعاطي الخمر، أو خبر عن الخمر، وخبر المعطوفات محذوف، أي: كذلك.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إنما } تناول { الخمر }؛ وهو كل ما غيب العقل، دون الحواس، مع النشوة والطرب، { والميسر } وهو القمار { والأنصاب } وهو ما نصب ليُعبد من حجارة أو خشب، { والأزلام } أي: الاستقسام بها، وقد تقدم تفسيرها، { رجس } قذر خبيث تعافه العقول السليمة، { من عمل الشيطان } أي: من تسويله وتزيينه، { فاجتنبوه } أي: ما ذكر من تعاطي الخمر، وما بعده، { لعلكم تفلحون } أي: تفوزون بالرضوان والنعيم المقيم.

قال البيضاوي: اعلم أن الحق تالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدّر الجملة بإنما، وقرنها بالأنصاب والأزلام وسماهما رجسًا، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيهًا على أن الاشتغال بهما شر محض، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سببًا يرجى منه الفلاح، ثم قرّر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال: { إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أن يُوقِعَ بَينَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبغضَاءَ فِي الخَمرِ وَالمَيسِرِ } ، وقد وقع ذلك في زمن الصحابة، وهي كانت سبب تحريمه، { ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة }؛ إنما خصّ الخمر والميسر بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيهًا على أنهما المقصودان بالبيان. وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " شَارِبُ الخَمرِ كَعَابِدِ الوَثَنِ ".

وخصّ الصلاة من الذكر بالإفراد؛ للتعظيم والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان؛ من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتبًا على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: { فهل أنتم منتهون }؟ إيذانًا بإن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت. هـ.
ولذلك لما سمعها الفاروق رضي الله عنه حين نزلت، قال: (قد انتهينا يا ربنا).

وبهذا الآية وقع تحريم الخمر، وقد كان حلالاً قبلها، بدليل سكوته صلى الله عليه وسلم على شربها قبل نزول الآية، فإن قلت: حفظ العقول من الكليات الخمس التي اتفقت الشرائع على تحريمها؟ قلنا: لا حكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلى وروده، ولما طالت الفترة، وانقطعت الشرائع عند العرب، رجعت الأشياء إلى أصلها من الإباحة بمقتضى قوله تعالى:
{ خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ جَمِيعًا }
[البَقَرة:29]، حتى جاءت الشريعة المحمدية فحرمتها كالشرائع قبلها، فكانت حينئذٍ حرامًا، ودخلت في الكليات الخمس التي هي: حفظ العقول والأبدان والأموال والأنساب والأديان.

ثم أكد ذلك أيضًا بقوله: { وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول } فيما أمر ونهى { واحذروا } غضبهما إن خالفتم، { فإن توليتم } أو أعرضتم عن طاعتهما { فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين }؛ لا تضرّه مخالفتكم، إنما عليه البلاغ وقد بلغ.

الإشارة: المقصود هو النهي عن كل ما يصد عن الله أو يشغل العبد عن شهود مولاه، وخص هذه الأربعة، لأنها أمهات الخطايا ومنبع الغفلة والبلايا، فالخمر فيه فساد العقل الذي هو محل الإيمان، والميسر فيه فساد المال وفساد القلب بالعداوة، والشحناء، وفساد الفكر لاستعماله في الهوى، والأنصاب فيه فساد الدين الذي هو رأس المال، والأزلام فيه الفضول والاطلاع على علم الغيب، الذي هو سر الربوبية، وهو موجب للمقت والعطب، والعياذ بالله.

@{ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح } أي: إثم { فيما طعموا } من الخمر والميسر قبل التحريم، { إذا ما اتقوا } أي: إذا اتقوا الشرك، { وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا } المحرمات { وآمنوا } أي: حققوا مقام الإيمان، { ثم اتقوا } الشبهات والمكروهات { وأحسنوا } أي: حصلوا مقام الإحسان، وهو إتقان العبادة، وتحقيق العبودية، ومشاهدة عظمة الربوبية، { والله يحب المحسنين } أي: يقربهم ويصطفيهم لحضرته، رُوِي أنه لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: يا رسول الله؛ فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أي: الماضي والحال والاستقبال، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية والتحلية، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم، وفيما بينه وبين الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاثة؛ المبدأ والوسط والنهاية، أو باعتبار ما يُتقى، فإنه ينبغي أن يتقي المحرمات توقيًا من العقاب، ثم يتقي الشبهات تحفظًا من الحرام، ثم يتقي بعض المباحات تحفظًا للنفس عن خسة الشره، وتهذيبًا لها عن دنس الطبيعة، قال معناه البيضاوي.

الإشارة: المقامات التي يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فما دام المريد مشتغلاً بالعمل الظاهر؛ من صلاة وصيام وذكر اللسان، سُمي مقام الإسلام، فإذا انتقل لعمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية، سُمي مقام الإيمان، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهودة وعيان سمي مقام الإحسان، وهذا اصطلاح الصوفية؛ سموا ما يتعلق بإصلاح الظواهر: إسلامًا، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر، إيمانًا، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر: إحسانًا. وجعل الساحلي في البغية كل مقام مركبًا من ثلاثة مقامات، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام في كل مقام، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وبالله التوفيق.

@{ يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذالِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } * { يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذالِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } * { أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِيا إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }

قلت: { فجزاء }: مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليه جزاء، أو خبر عن مبتدأ محذوف، أي: فواجبه جزاء، و { مثل }: صفته، و { من النعم }: صفة ثانية لجزاء، أي: فعلية جزاء مماثل حاصل من النعم، ومن قرأ { مثل } بالجر، فعلى الإضافة، من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: فعليه أن يجزي مثل ما قتل، أو يكون { مثل } مقحمة كما في قولهم: مثلى لا يقول كذا. وقرىء بالنصب، أي: فليجزأ جزاء مماثلاً. وجملة { يحكم } صفة لجزاء أيضًا، أو حال من ضمير الخبر.

و { هَديًا }: حال من ضمير { به } ، أو من جزاء؛ لتخصيصه بالإضافة أو الصفة فيمن نون، و { بالغ }: صفة للحال، أو بدل من مثل باعتبار محله، أو لفظه فيمن نصبه، أو { كفارة } عطف على { جزاء } إن رفعته، وإن نصبت جزاء فهو خبر، أي: وعليه كفارة، و { طعام مساكين }: عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر عن محذوف، أي: هي طعام، ومَن جرّ طعامًا فبالإضافة للبيان، كقوله: خاتم فضة، أو { عدل } عطف على { طعام } فيمن رفعه، أو خبر فيمن جره، أي: عليه كفارة طعام، أو عليه عدل ذلك، و { ليذوق }: متعلق بمحذوف، أي: فيجب عليه الجزاء أو الطعام أو الصوم ليذوق سوء عاقبة فعله، و { متاعًا لكم }: مفعول من أجله، و { حُرُمًا }: حال، أي: ما دمتم محرمين، أو خبر دام على النقص، ويقال: دام يدوم دُمت، كقال يقول قلت: ودام يَدام دِمت، كخاف يخاف خفت. وبه قُرىء في الشاذ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم } أي: والله ليختبرنكم { الله بشيء } قليل { من الصيد } يسلطه عليكم وَيُذَلِّلُهُ لكم حتى { تناله أيديكم } بالأخذ { ورماحكم } بالطعن { ليعلم الله } علم ظهور وشهادة تقوم به الحجة، { من يخافه بالغيب } فيكف عن أخذه حذرًا من عقاب ربه، نزل عام الحديبية، ابتلاهم الله بالصيد، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيده، أخذًا

بأيديهم وطعنًا برماحهم، وهم مُحرمون، وكان الصيد هو معاش العرب ومستعملاً عندهم، فاختبروا بتركه مع التمكن منه، كما اخُتبر بنو إسرائيل بالحوت في السبت.

وإنما قلَّلَهُ بقوله: { بشيء من الصيد } إشعارًا بأنه ليس من الفتن العظام كبذل الأنفس والأموال، وإنما هو من الأمور التي يمكن الصبر عنها، فمن لم يصبر عنده فكيف يصبر بما هو أشد منه؟ { فمن اعتدى بعد ذلك } الابتلاء بأن قتل بعد التحريم، { فله عذاب أليم } في الآخرة، لأن من لا يملك نفسه من مثل هذه فكيف يملكها فيما تكون النفس فيه أميل وعليه أحرص؟!.

ثم صرح بالحرمة، فقال: { يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم } أي: محرمون جمع حَرَم، والمراد من دخل في الإحرام أو في الحرم، وذكر القتل ليفيد العموم، فيصدق بالذبح وغيره، وما صاده المحرم أو صيد له ميتةٌ لا يؤكل، والمراد بالصيد المنهي عن قتله: ما صيد وما لم يُصَد مما شأنه أن يصاد، وورد هنا النهي عن قتله قبل أن يصاد، وبعده، وأما النهي عن الاصطياد فيؤخذ من قوله: { وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حُرمًا } ، وخصص الحديث: الغراب والحدأة، والفأرة والعقرب والكلب العقور، فلا بأس بقتلهم، في الحل والحرم، وأدخل مالك في الكلب العقور كل ما يؤذي الناس من السباع وغيرها، وقاس الشافعي على هذه الخمسة كل ما لا يؤكل لحمه.
@ثم ذكر جزاء قتله فقال: { ومن قتله منكم متعمدًا فجزاء مثل ما قتل من النَّعَم } أي: فعليه جزاء مثل ما يماثله من النعم، وهي الإبل والبقر والغنم، ففي النعامة بدنةَ، وفي الفيل ذات سنامين، وفي حمار الوحش وبقره بَقَرة، وفي الغزالة شاة، فالمثلية عند مالك والشافعي في الخِلقة والمقدار، فإن لم يكن له مثلٌ؛ أطعم أو صام، يُقوّم بالطعام فيتصدق به، أو يصوم لكل مدٍّ يومًا، ومَذهب أبي حنيفة أن المثلية: القيمة، يُقوم الصيد المقتول، ويُخير القاتل بين أن يتصدق بالقيمة أو يشتري بها من النعم ما يهديه. وذكر العمد ليس بتقييد عند جمهور الفقهاء، خلافًا للظاهرية؛ بل المتعمد، والناسي في وجوب الجزاء سواء، وإنما ذكره ليرتب عليه قوله: { ومن عاد فينتقم الله منه } ، ولأن الآية نزلت فيمن تعمد، إذ رُوِي أنهم عرض لهم حمار وحشي، فطعنه أبو اليسر برمحه فقتله، فنزلت الآية.

ولا بد من حكم الحكَمين على القاتل لقوله: { يَحكم به ذوا عدل منكم } ، فكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد، فكذلك تحتاج المماثلة في الخلقة والهيأة إليهما، فإن أخرج الجزاء قبل الحكم عليه؛ فعليه إعادته، إلا حمام مكة؛ فإنه لا يحتاج إلى حكمين، ويجب عند مالك التحكيم فيما حكمت به الصحابة وفيما لم تحكم، لعموم الآية. وقال الشافعي: يكتفي في ذلك بما حكمت به الصحابة، حال كون المحكوم به { هديًا } بشرط أن يكون مما يصح به الهدي، وهو الجذع من الضأن، والثني مما سواه، وقال الشافعي: يخرج المثل في اللحم، ولا يشترط السن، { بالغ الكعبة } لم يرد الكعبة بعينها، وإنما أراد الحرم، وظاهره يقتضي أن يصنع به ما يصنع بالهدي؛ من سوق من الحل إلى الحرم، وقال الشافعي وأبو حنيفة: إن اشتراه في الحرم أجزأه.

{ أو كفارة طعام مساكين }؛ مد لكل مسكين، { أو عدل ذلك صيامًا } ، يوم لكل مد، عدد الحق ـ تعالى ـ ما يجب في قتل الصيد، فذكر أولاً الجزاء من النعم، ثم الطعام، ثم الصيام، ومذهب مالك والجمهور: أنها على التخيير، وهو الذي يقتضيه العطب بأو، ومذهب ابن عباس أنها مرتبة.

@وقد نظم ابن غازي الكفارات التي فيها التخيير أو الترتيب؛ فقال:

خَيَّر بِصَومٍ ثَمَّ صَيدٍ وَأذَى وقُل لِكُلَّ خَصلَةٍ: يا حَبَّذا
وَرَتِّب الظِّهَارَ والتَّمَتُّعا وَالقَتلَ ثَمّ في اليَمِينِ اجتَمَعَا

وكيفية التخيير هنا: أن يخير الحكمان القاتلَ؛ فإن أراد الجزاء عينوا له ما يهدي، وإن أراد الإطعام قوموا الصيد بالطعام في ذلك المحل، فيطعم مُدًا لكل مسكين، وإن أراد الصيام صام يومًا لكل مُدّ، وكمل لكسره، فإذا قوم بعشرة مثلاً ونصف مُدّ، صام أحد عشر يومًا.

ثم ذكر حكمة الجزاء، فقال: { ليذوق وبال أمره } أي: فعليه الجزاء أو الإطعام أو الصيام؛ ليذوق عقوبة سوء فعله، وسوء هتكه لحرمة الإحرام، { عفا الله عما سلف } في الجاهلية أو قبل التحريم، { ومن عاد فينتقم الله منه } في الآخرة، وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد، كما حكى عن ابن عباس وشريح. { والله عزيز ذو انتقام } ممن أصر على عصيانه.

ثم استثنى صيد البحر فقال: { أُحل لكم صيد البحر } وهو ما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله صلى الله عليه وسلم في البحر: " هُو الطُّهُورُ مَاؤهُ، الحِلُّ مَيتَتُه " وقال أبو حنيفة: لا يحل منه إلا السمك، { وطعامه } أي: ما قذفه، أو طفا على وجهه؛ لأنه ليس بصيد إنما هو طعام، وقال ابن عباس: طعامه: ما مُلِّح وبقي، { متاعًا لكم وللسيارة } ، الخطاب بلكم للحاضرين في البحر، والسيارة: المسافرون في البر، أي: هو متاع تأتدمون به في البر والبحر، { وحُرم عليكم صيد البر } يحتمل أن يريد به المصدر، أي الاصطياد، أو الشيء المصيد، أو كلاهما، وتقدم أن ما صاده محرم أو صيد له، ميتة، وحد الحرمة: { ما دمتم حُرمًا } فإذا حللتم فاصطادوا، { واتقوا الله } في ترك ما حرم عليكم، { والذي إليه تحشرون } فيجازيكم على ما فعلتم.

الإشارة: إذا عقد المريد مع الله عقدة السير والمجاهدة، قد يختبره الله ـ تعالى ـ في سيره بتيسير الشهوات، وتسليط العلائق والعوائق؛ ليعلم الكاذب من الصادق، فإن كف عنها وأعرض، هيأ لدخول الحضرة، وإن انهمك فيها، واقتُنص فيه شبكتها، بقي مرهونًا في يدها، أسيرًا في قبضة قهرها، فإذا نهض حتى دخل حرم الحضرة قاصدًا لعرفة المعارف، حَرُم عليه صيد البر، وهو كل ما يخرج من بحر الحقيقة إلى شهود بَر السِّوى، فرقًا بلا جمع، كائنًا ما كان، رسومًا أو علومًا أو أحوالاً أو أقوالاً، وحلّ له صيد البحر وطعامه، من أسرارِ أو أنوارِ أو حقائق، متاعًا لروحه وسره، وللسيارة من أبناء جنسه، يطعمهم من تلك الأسرار، بالهمة أو الحال أو التذكار، واتقوا الله في الاشتغال بما سواه، الذي إليه تحشرون، فيدخلكم جنة المعارف قبل جنة الزخارف. والله تعالى أعلم.

@{ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذالِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } * { اعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } * { مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ }

قلت: { البيت الحرام }: عطف بيان على جهة المدح، و { قيامًا }: مفعول ثان.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { جعل الله الكعبة } التي هي { البيت الحرام قيامًا للناس } أي: سبب انتعاشهم، يقوم بها أمر معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربَحُ فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعُمار، أو يقوم به أمر دينهم بالحج إليه، وأمر دنياهم بِأمنِ داخله، وتُجبى ثمرات كل شيء إليه.

قال القشيري: حكَم الله ـ سبحانه ـ بأن يكون بيته اليومَ ملجأ يلوذ به كل مُؤمّل، ويستقيم ببركة زيارته كلُّ حائدٍ عن نهج الاستقامة، ويظفر بالانتقال هناك كل ذي أرَبٍ. هـ.

{ والشهر الحرام } جعله الله أيضًا قيامًا للناس؛ والمراد به ذو الحجة، فهو قيام لمناسك الحج، وجَمعِ الوجود إليه بالأموال من كل جانب، أو الجنس، وهي أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، لأنهم كانوا يكفون عن القتال، ويأمن الناس فيها في كل مكان، { والهدي }؛ لأنه أمان لمن يسوقه؛ لأنه لم يأت لحرب، { والقلائد } ، كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد شيئًا من السمُر، وإذا رجع تقلد شيئًا من شجر الحرم؛ ليعلم أنه كان في عبادة، فلا يتعرض له أحد بشر، فالقلائد هنا: ما تقلده المحرم من الشجر، وقيل: قلائد الهدى.

{ ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض } أي: جعل ذلك الأمور، قيامًا للناس؛ لتعلموا أن الله يعلم تفاصيل الأمور، فشرع ذلك دفعًا للمضار وجلبًا للمنافع، { وأن الله بكل شيء عليم } لا يخفى عليه محل مصالح عباده ومضارهم، وهو تعميم بعد تخصيص، ومبالغة بعد إطلاق.

ثم قال تعالى: { اعلموا أن الله شديد العقاب } لمن عصاه، { وأن الله غفور رحيم } لمن أطاعه وأقبل عليه، وهو وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصرّ ورجع، { ما على الرسول إلا البلاغ } وقد بلّغ، فلم يبق عذر لأحد، وهو تشديد في إيجاب القيام بما أمر، { والله يعلم ما تبدون وما تكتمون } من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

الإشارة: كما جعل الله الكعبة قيامًا للناس، يقوم به أمر دينهم ودنياهم، جعل القلوب، التي هي كعبة الأنوار والأسرار، قيامًا للسائرين، يقوم بها أمر توحيدهم ويقينهم، أو أمر سيرهم ووصلوهم. وفي الحديث: " إنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صلَحَت صلُحَ الجسدُ كلُّهُ وإذا فَسدَت فَسدَ الجَسدُ كلُّه؛ ألاَ وَهي القَلبِ " وكما جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد حرمة لأهلها، جعل النسبة والتزيي بها حفظًا لصاحبها، من تزيا بزي قوم فهو منهم، يجب احترامه وتعظيمه لأجل النسبة، فإن كان كاذبًا فعليه كذبه، وإن يك صادقًا يصبكم بعض الذي يعدكم، وقد أخذ اللصوص بعض الفقراء، وانتهكوا حرمته، وأخذوا ثيابه، فاشتكى لشيخه فقال له: هل كانت عليك مرقعتك؟ قال: لا، فقال له: أنت فرطت؛ والمفرط أولى بالخسارة. هـ. والله تعالى أعلم.

@{ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللَّهَ ياأُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل لا يستوي الخبيث والطيب } عند الله، في القلوب والأحوال والأعمال والأموال والأشخاص، فالطيب من ذلك كله مقبول محبوب،

والرديء مردود ممقوت، فالطيب مقبول وإن قلّ، والرديء مردود ولو جلّ، وهو معنى قوله: { ولو أعجبك كثرة الخبيث } ، فالعبرة بالجودة والرداءة، دون القلة والكثرة، وقد جرت عادته ـ تعالى ـ بكثرة الخبيث من كل شيء، وقلة الطيب من كل شيء، قال تعالى:
{ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ }
[صَ:24]،
{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }
[سَبَأ:13]، وفي الحديث الصحيح: " النّاسُ كإبلٍ مِائةٍ لا تكادُ تَجِدُ فيها رَاحِلةَ " ، وقال الشاعر:

إنّي لأفتَحُ عَينِيَ حِينَ أفتَحُها عَلَى كُثِيرٍ ولكن لا أرى أحَدا

فأهل الصفا قليل في كل زمان، ولذلك خاطبهم بقوله: { فاتقوا الله يا أولي الألباب } أي: القلوب الصافية في تجنب الخبيث وإن كثر، وأخذ الطيب وإن قلّ، { لعلكم تُفلحون } بصلاح الدارين.

الإشارة: لا عبرة بالأحوال الظلمانية وإن كثرت، وإنما العبرة بالأحوال الصافية ولو قلّت، صاحب الأحوال الصافية موصول، وصاحب الأحوال الظلمانية مقطوع، ما لم يتب عنها، قال بعض الحكماء: (كما لا يصح دفن الزرع في أرض ردية، لا يجوز الخمول بحال غير مرضية).

والمراد بالأحوال الصافية: هي التي توافق مراسم الشريعة؛ بحيث لا يكون عليها من الشارع اعتراض، بأن تكون مباحة في أصل الشريعة، ولو أخلت بالمروءة عند العوام، إذ المروءة إنما هي التقوى عند الخواص، والمراد بالأحوال، كل ما يثقل على النفس وتموت به سريعًا، كالمشي بالحفا وتعرية الرأس، والأكل في السوق، والسؤال، وغير ذلك من خرق عوائدها، التي هي شرط في حصول خصوصيتها، وفي الحِكَم: " كيف تخرق لك العوائد؟ وأنت لم تخرق من نفسك العوائد ". وبالله التوفيق.
@{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ } * { قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ }

قلت: الجملة الشرطية صفة الأشياء، وأشياء سم جمع لشيء، أصله عند سيبويه: شيئَاءَ، مثل فَعلاء، قلبت إلى لفعاء، أي: قلبت لامه إلى فائه، لثقل اجتماع الهمرتين، وقال أبو حاتم: أشياء وزنها أفعال، وهو جمع شيء، وترك العرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء، لشبه آخره بآخر حمراء، انظر ابن عطية. وجملة (عفا الله عنها): صفة أخرى لأشياء، أي: عن أشياء عفا الله عنها، ولم يكلف بها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء } ليس لكم فيها نفع، { إن تُبْدَ لكم تسؤكم } أي: إن تظهر لكم وتجابوا عنها تسؤكم؛ بالأخبار بما لا يعجبكم وبما يشق عليكم، قيل: سبب نزول الآية: كثرة سؤال الناس له صلى الله عليه وسلم من الأعراب والمنافقين والجُهال، فكان الرجل يقول للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ؟ أين ناقتي؟ وآخر يقول: ماذا ألقى في سفري؟ ونحو هذا من التعنيت، حتى صعد المنبر صلى الله عليه وسلم مغضبًا، فقال: " لا تَسألُوني اليوم عن شيء إلا أخبرتُكُم به " فقام رجل فقال: أين أنا؟ فقال: " في النار " وقام عبَدُ الله بن

حُذَافة ـ وكان يُطعَنُ في نسبِهِ فقال: مَن أبي؟ فقال: " أبوكِ حُذافة " ، وقال آخر: من أبي؟ قال: " أبوك سَالم مولى شيبة " ، فقام عمر بن الخطاب، فجثا على ركبتيه، فقال: رَضِينا بالله رَبًا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمُحمَّدٍ نَبِيًا نعوذ بالله من الفتن. فنزلت هذه الآية.

وقيل: سبب نزولها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال: " أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا " فقالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا، فقال: " لا، لو قُلتُ: نَعَم، لوجَبَت، وَلَو وَجَبت لَم تُطيقوه، ولَوَ تَركتُموه لهلكتم، فأترُكُوني مَا تَركتُكُم " ، قال أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وعفا ـ من غير نسيان ـ عن أشياء، فلا تبحثوا عنها.

ثم قال تعالى: { وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن } أي زمنه { تُبْدَ لكم } أي: تظهر لكم، وفيه معنى الوعيد على السؤال، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم أبدى لكم ما يسؤكم. والمراد بحين ينزل القرآن: زمان الوحي. فلا تسألوا عن أشياء قد { عفا الله عنها } ولم يكلف بها أو عفا الله عما سلف من سؤالكم، فلا تعودوا إلى مثلها، { والله غفور حليم } لا يعاجلكم بعقوبة ما فرط منكم ويعفو عن كثير. { قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين }؛ حيث لم يأتمروا بما سألوا، وجحدوا، وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء؛ فإذا أمروا بها تركوها، فهلكوا.
@فالكفر هنا عبارة عن ترك ما أمروا به. وقال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة. زاد الشلبي: وكقريش في سؤالهم أن يجعل الله الصفا ذهبًا. هـ. وكسؤالهم انشقاق القمر، وغير ذلك من تعنياتهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مذهب الصوفية مبني على السكوت والتسليم والصدق والتصديق، مجلسهم مجلس حلم وعلم وسكينة ووقار، إن تكلم كبيرهم أنصتوا، كأن على رؤوسهم الطير، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولذلك قالوا: من قال لشيخه: (لِمَ) لم يفلح أبدًا. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إذا جلست مع الكبراء فدع ما تعلم وما لا تعلم؛ لتفوز بالسر المكنون. هـ.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " إنَّ اللهَ يَنهَاكُم عَن قِيلَ وقَالَ، وكَثرة السُّؤالِ، وإضَاعَة المَالِ " وقال الورتجبي في الآية تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ. هـ. قلت: وعلة النهي: لعله يطلع، بكثرة البحث عن حالهم، على أمور توجب له نفرة أو غضًّا من مرتبتهم قبل تربية يقينة، فالصواب: السكوت عن أحوالهم، واعتقاد الكمال فيهم، وكذلك يجب عليه ترك السؤال عن أحوال الناس، والغيبة عما هم فيه؛ شغلاً بهم هو متوجه إليه، وإلا ضاع وقته، وتشتت قلبه، ولله در القائل:

ولَستُ بِسائِلٍ مَا دُمتُ حَيًّا أسَارَ الجَيشُ أم رَكِبَ الأمِيرُ؟

والله تعالى أعلم.

@{ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـاكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } * { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ

اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }

قلت: البحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، من بَحَرَ، إذا شق، وذلك أن الناقة كانت إذا ولدت عندهم في الجاهلية عشرة أبطن، شقوا أذنها، وتركوها ترعى، ولا ينتفع بها، وأما السائبة فكان الرجل يقول: إذا قدمت من سفري، أو برئت من مرضي، فناقتي سائبة، فإذا قدم أو برىء سيّبها لآلهتهم، فلا تُحلَب، ولا تُركب، ولا تُمنَع من شجر، وقد يُسَيّبُون غير الناقة، فإذا سيّبوا العبد فلا يكون عليه ولاء لأحد، وإن قال ذلك، اليوم، فحمله على العتق، وولاؤه للمسلمين، وفعل ذلك ـ اليوم ـ في الحيوان حرام، كما يفعله جهلة النساء في الديك الأبيض؛ يحرر حتى يموت، فإذا فعل ذلك ذبح وأكل.

وأما الوصيلة: فكانوا إذا ولدت الناقة ذكرًا وأنثى متصلين، قالوا: وصلت الناقة أخاها، فلم يذبحوها، وأما الحام: فكانوا إذا نتج من الجمل عشرة أبطن، قالوا: قد حُمي ظهرُه، فلا يُركب ولا يُحمل عليه.

يقول الحقّ جلّ جلال: في إبطال هذه الأشياء: { ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام } أي: ما شرع الله شيئًا من ذلك، ولا أمر به، { ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب } بتحريم ذلك، ونسبته إليه، { وأكثرهم لا يعقلون } ، أي: جُلهم لا عقل لهم، بل هم مقلدون غيرهم في تحريم ذلك، وتقليد الآباء والرؤساء في تحريم ما أحل الله ـ تعالى ـ شرك؛ لأنهم نَزَّلوا غير الله منزلته في التحريم والتحليل، وهو كفر، { وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول } من الحلال والحرام، { قالوا حسبنا } أي: يكفينا { ما وجدنا عليه آباءنا } ، وهذا بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد، قال تعالى: أيتبعونهم { ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون } سبيلاً.

قال البيضاوي: الواو للحال، والهمزة دخلت عليها؛ لإنكار الفعل على هذه الحال، أي: أحسَبُهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين؟ والمعنى: أن الاقتداء إنما يصح لمن عُلِمَ أنه عالم مهتد، وذلك لا يعرف إلا بالحجة، فلا يكفي التقليد. هـ.

الإشارة: قد نفى الله تعالى الخصوصية عن أربعة أنفس من أنفس المدعين، منها: نفس دخلت بحر الحقيقة بالعلم، وتبحرت في علمها دون الحال والذوق، وأهملت مراسم الشريعة حتى سقطت هيبتها من قلبها، فانسل منها الإيمان والإسلام انسلال الشعرة من العجين. ومنها نفس سائبة أهملت المجاهدة وانسابت في الغفلة، وأخذت الولاية بالوراثة من أسلافها، دعوى، أو ظهرت عليها خوارق، استدراجًا، مع إصرارها على كبائر العيوب، ومنها: نفس وصلت إلى الأولياء وصحبتهم، وخرجت عنهم قبل كمال التربية، وتصدرت للشيخوخة قبل إبانها، ومنها: نفس حمت ظهرها من التجريد، ووفرت جاهها مع العبيد، وادعت كمال التوحيد وأسرار التفريد، لمجرد مطالعة الأوراق، من غير صحبة أهل الأذواق، وهؤلاء بعداء من حيث يظنون القرب، مردودون من حيث يظنون القبول، والعياذ بالله من الدعوى وغلبة الهوى، فإذا قيل لهؤلاء: تعالوا إلى من يعرفكم بربكم، ويخرجكم من سجن نفوسكم، قالوا: نتبع ما وجدنا عليه أسلافنا، فيقال لهم: أتتبعونهم ولو كانوا جاهلين بالله؟.

@{ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

قلت: { عليكم }: اسم فعل، وفاعله مستتر فيه وجوبًا، و { أنفسكم }: مفعول به على حذف مضاف؛ أي: الزموا شأن أنفسكم. قاله الأزهري.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم }: احفظوها والزموا صلاحها، { لا يضرّكم مَن ضلّ إذا اهتديتم } أنتم، أي: لا يضركم ضلال غيركم إذا كنتم مهتدين؛ ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته، قال صلى الله عليه وسلم: " مَن رَأى مِنكُم مُنكَرًا، واستطَاعَ أن يُغيِّره بَيدِه، فَليغَيِّر، فإنَّ لم يَستَطِع فَبِلسانِه، فإن لم يَستَطِع فَبقَلبِه " والآية نزلت حيث كان المؤمنون يحرصون على الكفرة، ويتمنون إيمانهم، وقيل: كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك، فلاموه، فنزلت.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم }؟ فقال: " ائتَمِرُوا بالمَعرُوفِ، وانهوا عن المُنكَرِ، فإذَا رَأيتَ دُنيا مُؤثَرةٍ، وشُحًّا مُطاعًا، وإعجَابَ كُلِّ ذِي رأي بِرأيِه، فَعَليكَ بخويصة نَفسِك، وَذَر عوامَهم؛ فإنّ وَراءكُم أيامًا، العامِلُ فيها كأجرِ خَمسِينَ مِنكُم ".

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية على أنه لا يلزم معها أمر ولا نهي، فصعد المنبر، فقال: (يا أيها الناس: لا تغتروا بقول الله تعالى: { عليكم أنفسكم } فيقول أحدكم: عليّ نفسي، والله لتأمُرن بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شرارَكم فليسُومُنكم سوء العذاب). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قُبِلَ منكم، فإذا رُدّ عليكم فعليكم أنفسكم).

قال ابن عطية: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: أن الأمر بالمعروف متعين متى رجى القبول، أو رجى رد المظالم، ولو بعُنف، ما لم يخف الآمِرُ ضررًا يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها عن المسلمين، إما بشق عصًا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، حُكمٌ واجب أن يوقف عنده. هـ.

ثم هدد مَن لم ينته، فقال: { إلى الله مرجعكم جميعًا فَيُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون } وفيه تنبيه على أن أحدًا لا يؤاخذ بذنب غيره، وتسليةٌ عن أمور الدنيا؛ مكروهها ومحبوبها، بذكر الحشر وما بعده، وعن بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيئني الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبور. هـ.

الإشارة: في الآية إغراء وتحضيض على الاعتناء بإصلاح النفوس وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا } عليكم بإصلاح أنفسكم أولاً، فإذا صلحت فأصلحوا غيركم، فعلى العبد أن يشتغل بشأن نفسه ولا يلتفت إلى غيره، حتى إذا كمل تطهيرُها، وفرغ من تأديبها، فإن أمره الحق ـ جل جلاله ـ بإصلاح غيره على لسان شيخ كامل، أو هاتف حقيقي، فليتقدم لذلك، فإنه حينئذ محمول محفوظ مأذون، وإلا فعليه بخاصة نفسه، كما تقدم. والله ـ تعالى ـ أعلم.

@{ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىا وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ } * { فَإِنْ عُثِرَ عَلَىا أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَآ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ } * { ذالِكَ أَدْنَىا أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَىا وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }

قلت: { شهادة }: مبتدأ، وخبره: { اثنان } ، أي: مقيم شهادة بينكم اثنان، أو حذف الخبر، أي: أمرتكم شهادة بينكم، و { اثنان } على هذا: فاعل شهادة، و { إذا }: ظرف لشهادة، و { حين الوصية }: بدل منه، ويجوز أن يكون { إذا }: شرطية حذف جوابها، أي: إذا حضر الموت فينبغي أن يشهد حين الوصية اثنان، و { ذوا عدل }: صفة لاثنان، أو { آخران }: عطف على { اثنان } ، { إن أنتم }: شرط حذف جوابه، دل عليه ما تقدم، أي: إن سافرتم، فأصابتكم مصيبة الموت في السفر، فشهادة بينكم اثنان.

و { تحبسونهما }: قال أبو علي الفارسي: هو صفة لآخران، واعترض بين الصفة والموصوف قوله: { إن أنتم } إلى قوله: { الموت } ، ليفيدا العدد، { آخران } من غير الملة، إنما يجوز لضرورة الضرب في الأرض وحلول الموت في السفر. وقال الزمخشري: هو استئناف كلام، { إن ارتبتم }: شرطية، وجوابها محذوف، دلّ عليه { يقسمان } ، و { لا نشتري } هو المقسم عليه، وجملة الشرط معترضة بين القسم والمقسم عليه، والتقدير: إن ارتبتم في صدقهما فأقسما بالله لا نشتري به، أي: بالقسم، ثمنًا قليلاً من الدنيا، و { الأوليان }: خبر، فيمن قرأ بالبناء للمفعول، أو فاعل، فيمن قرأ بالبناء للفاعل، ومن قرأ { الأولين } ـ تثنية أول ـ فبدل من الذين، أو صفة له. قال مكّي: (هذه الآية أشكل آية في القرآن؛ إعرابًا ومعنى).

وسبب نزولها: أن تميمًا الدَّاريَّ وعَدي بن بداء ـ وكانا أخوين ـ، خرجا إلى الشام للتجارة ـ وهما حينئذٍ نَصرانيّان ـ ومعهما بُدَيلٌ مولى عمرو بن العاصَ، وكان مُسلمًا، فلمّا قَدِما الشام مَرِضَ بُديلٌ، فدون ما مَعَه في صَحيفةٍ، وطرحها في متَاعه، وشدّ عليها، ولم يُخبرهُما بها، وأوصى إليهمَا بان يَدفعا مَتَاعَه إلى أهلِه، ومات، ففتّشاه، وأخذا منه إنَاءً من فِضّة، قيمته: ثلاثُمائة مثقالٍ، مَنقُوشًا بالذَهب، فجنّباه ودفَعَا المتَاعَ إلى أهلِهِ، فأصَابُوا الصَّحِيفَةَ، فطَالبُوهُمَا بِالإناء، فجَحَدا، فترافعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت: { يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم } إلى قوله: { من الآثمين } فحلّفَهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد صلاة العصر، عند المنبر، وخلا سبيلهما. ثم عثر بعد مدة على الإناء بمكة، فقيل لمن وجد عنده: من أين لك هذا؟ قال: اشتريته من تميم الداري وعديّ بن بداء، فرفع بنو سهم الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت: { فإن عثر على أنهما استحقا إثمًا فآخران يقومان مقامهما } ، فقام عمرو بن العاصَ والمطلب بن أبي وَداعة السهميان، فحلفا واستحقا الإناء.

ومعنى الآية: يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } ، مما نأمركم به: أن تقع { شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت } ، وأراد الوصية فيحضر عدلان منكم، فإن كنتم في سفر وتعذر العدلان منكم، فليشهد { آخران من غيركم } ممن ليس على

دينكم، ثم إن وقع ارتياب في شهادتهما، { تحبسونهما } بعد صلاة العصر { فيقسمان بالله } ما كتمنا، ولا خُنَّا، ولا نشتري بالقسم أو بالله عرضًا قليلاً من الدنيا، ولو كان المحلوف له قريبًا منا، { ولا نكتم شهادة الله } { إنّا إذًا } ، إن كتمنا، { لمن الآثمين }.
@فإذا حلفا خلّي سبيلهما، { فإن عُثر } بعد ذلك { على } كذبهما و { أنهما استحقا إثمًا } بسبب كذبهما، { فآخران } من رهط الميت { يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم } المال المسروق، اللذان هم { الأوليان } أي: الأحقان بالشهادة، { فيُقسمان بالله } فيقولان: والله { لشهادتنا أحق من شهادتهما } ، وأصدق، وأولى بأن تقبل، { وما اعتدينا }: وما تجاوزنا فيها الحق، { إنا إذًا لمن الظالمين } ، فإن حلفا غرم الشاهدان ما ظهر عليهما، وتحليف الشهود منسوخ، وهذا الحكم خاص بهذه القضية.

قال البيضاوي: الحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين، فإنه لا يحلف الشاهد، ولا تُعارِضُ يمينه يمينَ الوارث، وثابت إن كانا وصيين. هـ. وكذا شهادة غير أهل الملة منسوخة أيضًا، واعتبار صلاة العصر للتغليظ، وتخصيص الحلف في الآية باثنين من أقرب الورثة لخصوص الواقعة. قاله السيوطي.

قال تعالى: { ذلك } أي: تحليف الشهود، { أدنى } أي: أقرب { أن يأتوا بالشهادة على وجهها } كما تحملوها من غير تحريف ولا خيانة فيها، { أو يخافوا أن تُرَدّ أيمَانٌ بعد أيمانهم } أي: أو أقرب لأن يخافوا أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة، وإنما جمع الضمير، لأنه حكم يعم الشهود كلهم، { واتقوا الله واسمعوا } ما تُوصون به، فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قومًا فاسقين، { والله لا يهدي القوم الفاسقين } أي: لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة.

الإشارة: أمر الحقّ ـ جلّ جلاله ـ في الآية المتقدمة، بالاعتناء بشأن الأنفس، بتزكيتها وتحليتها؛ وأمر في هذه الآية بالاعتناء بشأن الأموال؛ بحفظها، والأمر بالإيصاء عليها ودفعها لمستحقها؛ إذا كلاهما يقربان إلى رضوان الله، ويوصلان إلى حضرته، وقد كان في الصحابة من قربه ماله، وفيهم من قربه فقره، وكذلك الأولياء، منهم من نال الولاية من جهة المال أنفقه على شيخه فوصله من حينه، ومنهم من نال من جهة فقره أنفق نفسه في خدمة شيخه، وقد رُوِيَ أن سيدي يوسف الفاسي أنفق على شيخه قناطير من المال، قيل: أربعين، وقيل: أقل. والله تعالى أعلم.

@{ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }

قلت: { يوم }: بدل من { الله } ، بدل اشتمال، أي: اتقوا يوم الجمع، أو ظرف لاذكُر، و { ماذا }: منصوب على المصدر، أي: أيّ إجابة أُجبتم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر { يوم يجمع الله الرسل } والأمم يوم القيامة { فيقول } للرسل: { ماذا أُجبتم }؟ أي: ما الذي أجابكم به قومكم، هل هو كفر أو إيمان، طاعة أو عصيان؟ والمراد بهذا السؤال توبيخ من كفر من الأمم، وإقامة الحجة عليهم، فيقولون له في الجواب: { لا علم لنا } مع علمك، تأدبوا فوكلوا العلم إليه، أو علمنا ساقط في جنب علمك؛ { إنك أنت علاّم الغيوب }؛ لأن من علم الخفيات

لا تخفي عليه الظواهر والبواطن، وقرىء بنصب علام، على أن الكلام قد تم بقوله: { إنك أنت } أي: إنك الموصوف بصفاتك المعروفة، وعلام نصب على الاختصاص أو النداء. قاله البيضاوي.

الإشارة: من حجة الله على عباده، أن بعث في كل أمة نذيرًا يدعوا إلى الله، أما عارفًا يعرف بالله، أو عالمًا يعلم أحكام الله، ثم يجمعهم يوم القيامة فيسألهم: ماذا أجيبوا، وهل قوبلوا بالتصديق والإقرار، أو قوبلوا بالتكذيب والإنكار؟ فتقوم الحجة على العوام بالعلماء، وعلى الخواص بالعارفين الكُبراء، أهل التربية النبوية، فلا ينجو من العتاب إلا من ارتفع عنه الحجاب، بصحبة العارفين وتعظيمهم وخدمتهم، إذ لا يتخلص من العيوب إلا من صحبهم وأحبهم وملّك نفسه إليهم. والله تعالى أعلم.

@{ إِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىا وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَىا بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيا إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } * { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ }

قلت: { إذ }: بدل من { يوم يجمع } ، أو باذكر، وجملة { تكلم }: حال من مفعول { أيدتك }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر { إذ } يقول الحق ـ جل وعز ـ يوم القيامة: { يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك } بالنبوة والرسالة، وعلى أمك بالاصطفائية والصديقية، وذلك حين { أيدتك } أي: قويتك { بروح القدس } ، وهو جبريل عليه السلام كان لا يفارقك في سفر ولا حضر، أو بالكلام الذي تحيا به الأنفس والأرواح، الحياة الأبدية. كنت { تكلم الناس في المهد } أي: كائنًا في المهد { وكهلاً } أي: تكلم في الطفولة والكهولة بكلام يكون سببًا في حياة القلوب، وبه استدل أنه ينزل، لأنه رفع قبل أن يكتهل، { و } اذكر { إذ علّمتك الكتاب } أي: الكتابة، { والحكمة }: النبوة { والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني } وتقدم تفسيرها في آل عمران.

وكرر { بإذني } مع كل معجزة؛ إبطالاً لدعو الربوبية فيه، إذ قد عزله عن قدرته ومشيئته مع كل معجزة. قال ابن جزي: الضمير المؤنث ـ يعنيي في " فيها " ـ يعود على الكاف، لأنها صفة الهيئة، وكذلك المذكور في آل عمران. { فأنفخ فيه } يعود على الكاف، لأنها بمعنى مثل، وإن شئت قلت: هو في الموضعين يعود على الموصوف المحذوف الذي وصف به كهيئة، فتقديره في التأنيث: صورة، وفي التذكير: شخصًا، أو خلقًا وشبه ذلك. هـ.

{ و } اذكر أيضًا { إذ كففت بني إسرائيل عنك } حين هموا بقتلك، { إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين } أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحرًا، أو: قالوا في شأنك حين جئتهم: ما هذا إلا ساحر مبين، { و } اذكر أيضًا

{ إذ أوحيت إلى الحواريين } أي: ألهمتهم، أو أمرتهم بأن { آمنوا بي وبرسولي } عيسى، فامتثلوا، { وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون } أي: منقادون ومخلصون.

الإشارة: قال الورتجبي: من تمام نعمة الله ـ تعالى ـ عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: { تُكلم الناس في المهد وكهلاً } ، وزاد في وصفه بقوله: { وإذ علمتك الكتاب } ، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم. هـ. فانظره، مع ما ورد في التاريخ أنه كان يذهب مع الصبيان للمكتب.

@{ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ } * { قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } * { قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ } * { قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيا أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ }

قلت: { يا عيسى ابن مريم }: ابن هنا بدل، ولذلك كتب بالألف، و { أن ينزل }: مفعول { يستطيع } ، ومن قرأ بالخطاب، فمفعول بالمصدر المقدر، أي: سؤال ربك إنزال مائدة، و { لأولنا وآخرنا }: بدل كل، من ضمير { لنا } ، لإفادته الإحاطة والشمول كالتوكيد، و(ذلك): شرط إبدال الظاهر من ضمير الحاضر، وأعيدت اللام مع البدل للفصل، وضمير { لا أعذبه }: نائب عن المصدر، أي: لا أعذب ذلك التعذيب أحدًا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر { إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء } أي: هل يطيعك ربك في هذا الأمر، أم لا؟ فالاستفهام عن الإسعاف في القدرة، فهو كقول بعض الصحابة لعبد الله بن زيد: هل تستطيع أن ترينا كيف كان يتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ مع جزمهم بأن عبدالله كان قادرًا على تعليمهم الوضوء. فالحواريون جازمون بأن الله ـ تعالى ـ قادر على إنزال المائدة، لكنهم شكوا في إسعافه على ذلك.

قال ابن عباس: كان الحواريون أعلم بالله من أن يشكو أن الله تعالى يقدر على ذلك، وإنما معناه، هل يستطيع لك؛ أي: هل يطيعك، ومثله عن عائشة، وقد أثنى الله ـ تعالى ـ على الحواريين، في مواضع من كتابه، فدل أنهم مؤمنون كاملون في الإيمان.

قال لهم عيسى عليه السلام: { اتقوا الله } من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات، { إن كنتم مؤمنين } بكمال قدرته وصحة نبوتي، فإنّ كمال الإيمان يوجب الحياء من طلب المعجزة، { قالوا نريد أن نأكل منها } أكلاً نتشرف به بين الناس، وليس مرادهم شهوة البطن، { وتطمئن قلوبنا } بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، أي: نعاين الآية ضرورة ومُشاهدة، فلا تعرض لنا الشكوك التي في الاستدلال، { ونعلم أن قد صدقتنا } علمًا ضروريًا لا يختلجه وهم ولا شك، { ونكون

عليها من الشاهدين } أي: نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، أو من الشاهدين للعين، دون السامعين للخبر، وليس الخبر كالعيان، والحاصل: أنهم أرادوا الترقي إلى عين اليقين، دون الأكتفاء بعلم اليقين.

{ قال عيسى ابن مريم } مسعفًا لهم لما رأى لهم غرضًا صحيحًا في ذلك، رُوِي أنه لبس جُبَّةَ شعر، وقام يصلي ويدعو ويبكي، وقال: { اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا } أي: لمتقدمنا ومتأخرنا، يعود علينا وقت نزولها كل عام بالفرح والسرور، فنتخذه عيدًا نحن ومن يأتي بعدنا، { و } يكون نزولها { آية منك } على كمال قدرتك وصحة نبوتي، { وارزقنا } المائدة والشكر عليها، { وأنت خير الرازقين } أي: خير من يرزق؛ لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض، ونسبة الرزق إلى غيره مجاز. { قال الله إني منزلها عليكم } كما طلبتم، { فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين } أي: من عالمي زمانهم، أو مطلقًا.
@قال ابن عمر: (أشد الناس عذابًا يوم القيامة: من كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، والمنافقون). رُوِي أنها نزلت سُفرة حمراء بين غمامتين، وهم ينظرون إليها، حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية، تسيل دسمًا وعند ذنبها خل، وحولها من أنواع البقول ما خلا الكراث، وخمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، قال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه اخترعه الله بقدرته، كلوا ما سألتم، واشكروا الله يمدُدكم ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال: يا سمكة: احيَى بإذن الله، فاضطربت، ثم قال لها: عودي، فعادت كما كانت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة ثم عصوا بعدها فمسخوا.

وقيل: كانت تأتيهم أربعين يومًا، غِبًّا، يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار، يأكلون، فإذا فرغوا، طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره، ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبدًا، ثم أوحى الله إلى عيسى: أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس، فمسخ منهم ثلاثة وثمانون. وقيل: لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة، استغفروا وقالوا: لا نريد، فلم تنزل. قلت: المشهور أنها نزلت، ويحكى أن أرجلها باقية بجزيرة الأندلس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في سؤال الحواريين لسيدنا عيسى عليه السلام قلة آدب من وجهين: أحدهما: خطابه بقوله: { يا عيسى ابن مريم }؛ وقد كانت هذه الأمة المحمدية تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله، يا نبي الله، لكمال أدبها، وبذلك شرفت وعظم قدرها، فالأدب عند الصوفية ركن عظيم، بل هو روح التصوف وقطب دائرته، قال بعضهم: (اجعل عملك ملحًا، وأدبك دقيقًا)، والكلام فيه عندهم طويل شهير.

والوجه الثاني: ما في قولهم: { هل يستطيع ربك } من بشاعة التعبير، وسوء اللفظ، حتى اتهموا بالكفر من أجله، وقد تقدم تأويله، وأما سؤالهم المائدة، فقال بعض الصوفية: هي عبارة عن المعارف والأسرار الربانية التي هي قوت الأرواح السماوية،

فقوت الأشباح الأرضية ما يخرج من الأرض من الأقوات الحسية، وقوت الأرواح السماوية ما ينزل من السماء من العلوم اللدنية والأسرار الربانية، ينزل على قلوب العارفين، ثم يبرز منها إلى قلوب عائلة المستمعين، ولما طلبوها قبل إبانها وقبل الاستعداد لها، قال لهم: { اتقوا الله إن كنتم مؤمنين } ، فلما ألحوا في السؤال، بيَّن الحق لهم أن إنزالها سهل على قدرته، لكن فيه خطر وسوء عاقبة، لأن الحقائق قد تضر بالمريد إذا لم يكمل أدبه واستعداده، فلما بينوا مرادهم من كمال الطمأنينة واليقين؛ دعا الله ـ تعالى ـ فوعدهم بالإنزال مع دوام الإيمان وكما الإيقان، فمن كفر بها، ولم يعرف قدرها، عذب بعذاب لم يعذبه أحد من العالمين، وهو الطرد والبعد من ساحة حضرة رب العالمين. والله تعالى أعلم.

@{ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ ياعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـاهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيا أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ } * { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } * { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } * { قَالَ اللَّهُ هَـاذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذالِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } * { للَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: { من دون الله }: صفة لإلهين، أو صلة { اتخذوني } ، و { أن أعبدوا }: تفسيرية للمأمور به، أو بدل من ضمير به، وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقًا؛ لئلا يلزم منه بقاء الموصول بلا راجع، أو عطف بيان له، أو خبر عن مضمر، أي: هو، أو معفول به، أي: أعني، ولا يجوز إبداله من { ما }؛ لأن المصدر لا يكون مفعولاً للقول؛ لأنه مفرد، والقول لا يعمل إلا في الجمل أو ما في معناه.

{ يوم ينفع }؛ من نصب جعله ظرفًا لقال، أو ظرف، مستقر خبرِ { هذا } والمعنى: هذا الذي مَرّ من كلام عيسى، واقع يوم ينفع، الخ، وأجاز ابن مالك أن يكون مبنيًّا، قال في ألفيته:

وقَبل فَعل مُعَرب أو مُبتَدا أعرِب، ومَن بَنَا فَلَن يُفَنَّدَا

ومَن رفع، فخبر، وهو ظرف متصرف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر { إذ قال الله يا عيسى } بعد رفعه إلى السماء، أو يقول له يوم القيامة، وهو الصحيح، بدليل قوله: { قال الله هذا } الخ، فإن اليوم الذي { ينفع الصادقين صدقهم } هو يوم القيامة، فيقول له حينئذٍ: { أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله } يريد به توبيخ الكفار الذين عبدوه وتبكيتهم، وفيه تنبيه على أن من عبد مع الله غيره فكأنه لم يعبد الله قط، إذ لا عبرة بعبادة من أشرك معه غيره.

{ قال } عيسى عليه السلام مبرءًا نفسه من ذلك وقد أرعد من الهيبة: { سبحانك } أي: تنزيهًا لك من أن يكون لك شريك، { ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق } أي: ما ينبغي لي أن أقول ما لا يجوز لي أن أقوله، { إن كنتُ قُلتُه فقد

علمته } ، وكَلَ العلم إلى الله لتظهر براءته، لأن الله علم أنه لم يقل ذلك، { تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك } أي: تعلم ما أخفيته في نفسي، كما تعلم ما أعلنته، ولا أعلم ما تخفيه، من معلوماتك، سلك في اللفظ مسلك المشاكلة، فعبّر بالنفس عن الذات. { إنك أنت علاّم الغيوب } لا يخفى عليك شيء من الأقوال والأفعال.

{ ما قُلتُ لهم إلا ما أمرتني به } وهو عبادة الله وحده، فقلت لهم: { اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدًا } أي: رقيبًا عليهم، أمنعهم أن يقولوا ذلك أو يعتقدوه. { ما دمتُ فيهم فلما توفيتني } بالرفع إلى السماء، أي: توفيت أجلي من الأرض. والتوفي أخذ الشيء وافيًا، فلما رفعتني إلى السماء { كنت أنت الرقيب عليهم } أي: المراقب لأحوالهم { وأنت على كل شيء شهيد }: مطّلع عليه مراقب له.

{ إن تعذبهم فأنهم عبادك } وأنت مالك لهم، ولا اعتراض على المالك في ملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا العذاب، أي: لأنهم عبادة وقد عبدوا غيرك، { وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } ، فلا عجز ولا استقباح، فإنك القادر والقوي على الثواب والعقاب بلا سبب، ولا تُعاقب إلا عن حكمة وصواب، فإن عذبت فعدل، وإن غفرت ففضل، وعدم غفران الشرك مقتضى الوعيد، فلا امتناع فيه لذاته ليمتنع الترديد والتعليق بإن.
@قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي: فيه سؤالان: الأول: كيف قال: { وإن تغفر لهم } وهم كفار، والكفار لا يغفر لهم؟ فالجواب: أن المعنى تسليم الأمر إلى الله، وإنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه؛ لأن الخلق عباده، والمالك يفعل ما يشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، وإنما يقتضي جوازها في حكمة الله وعزته، وفَرقٌ بين الجواز والوقوع، وأما على قول من قال: إن هذا الخطاب وقع لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء فلا إشكال، لأن المعنى: إن لم تغفر بهم التوبة، وكانوا حينئذٍ أحياء، وكل حيّ مُعرض للتوبة.

السؤال الثاني: ما مناسبة قوله: { العزيز الحكيم } لقوله: { وإن تغفر لهم } ، والأليق إن قال: فإنك أنت الغفور الرحيم؟ فالجواب: أنه لما قصد التسليم له والتعظيم، كان قوله: { فإنك أنت العزيز الحكيم } أليق، فإن الحكمة تقتضي التسليم، والعزة تقتضي التعظيم، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد، ولا يغلبه غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدمها؛ لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته. وقال أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم؛ لئلا يكون شفيعًا لهم بطلب المغفرة، فاقتصر على التسليم والتفويض، دون الطلب، إذ لا نصيب في المغفرة للكفار. انظر بقية كلامه.

قال التفتازاني: ذكر المغفرة، يوُهم أن الفاصلة: { الغفور الرحيم } ، لكن يُعرف بعد التأمل أن الواجب هو العزيز الحكيم؛ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه، وهو العزيز، أي: الغالب، ثم وجب أن يوصف بالحكمة على سبيل الاحتراس؛ لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة. هـ.

قال الله تعالى: { هذا } أي: يوم القيامة { يوم ينفع الصادقين صدقهم } أي: هنا ينتفع الصادقون في الدنيا بصدقهم، ويفتضح الكاذبون على الله بكذبهم. والمراد بالصادقين؛ أهل التوحيد، الذين نزهوا الله تعالى عما لا يليق بجلاله وجماله، فصدقوا فيما وصفوا به ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم به، فقال: { لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه } حيث رضوا بأحكامه القهرية والتكليفية، { ذلك الفوز العظيم لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير } ، وهذا تنبيه على تكذيب النصارى، وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل: ومن فيهن، تغليبًا لغير العقلاء، وإنما غلبَ غير أولى العقل للإعلام بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية، وإهانة لهم وتنبيهًا على أنهم جنس واحد، فمن يعقل منهم لقصور عقله ونظره كمن لا يعقل، فيبعد استحقاقهم للألوهية التي تنبىء عن تمام الحكمة وإحاطة العلم.
@والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من صَدّر نفسه للشيخوخة من غير إذن، وأشار إلى تعظيمه بلسان الحال أو المقال يَلحَقُهُ العتاب يوم القيامة فيقال له: أأنت قلت للناس عظموني من دون الله؟ فإن كان مقصوده بالأمر بالتعظيم الوصول إلى تعظيم الحق تعالى، والأدب معه في الحضرة دون الوقوف مع الواسطة، وبذل جهده في توصيل المريدين إلى هذا المقام، يقول: سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إلى تمام ما قال السيد عيسى عليه السلام، فيقال له: { هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم }. وإن كان مقصوده بالتصدّر للتعظيم والآمر به، حظ نفسه، وفَرَح بتربية جاهه والإقبال عليه، افتضح وأُهين بما افتضح به الكاذبون المدعون. نسأل الله تعالى الحفظ والرعاية بمنِّه وكرمه، وسيدنا محمد رسوله ونبيّه ـ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم ـ.

سورة الأنعام

@{ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثْمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }

قلت: { ثم الذين كفروا }: عطف على جملة الحمد؛ على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلقه، نعمةً على العباد، ثم الذين كفروا بربهم الذي ربَّاهم بهذه النعم، يَعدِلون به سواه من الأصنام، يقال: عدَلت فلانًا بفلان؛ جعلته نظيره، أو عطف على " خلَق وجعل ": على معنى أنه خلق وقدّر ما لا يقدر عليه غيره، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء. ومعنى { ثم }: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء في " بربهم " متعلقة بكفروا، على الأول، وبيعدلون على الثاني، قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الحمد لله } أي: جميع المحامد إنما يستحقها الله، إذ ما بكم من نعمة فمن الله. { الذي خلق السماوات } التي تُظِلّكم، مشتملة على الأنوار التي تضيء عليكم، ومحلاً لنزول الرحمات والأمطار عليكم، { و } خلق { الأرض } التي تُقلّكم، وفيها نبات معاشكم في العادة، وفيها قراركم في حياتكم وبعد مماتكم، مشتملة على بحار وأنهار، وفواكه وثمار، وبهجة أزهار ونوار، { وجعل الظلمات } التي تستركم، راحة لأبدانكم وقلوبكم، كظلمات الليل الذي هو محل السكون. { و } جعل { النور } الذي فيه معاشكم وقوام أبدانكم وأنعامكم. { ثم الذين كفروا } بعد هذا كله، { يعدلون } عنه إلى غيره، أو يعدلون به سواه، فيُسوَونه في العبادة معه.

قال البيضاوي: وجمع السماوات دون الأرض وهي مثلهن؛ لأن طبقاتها مختلفة بالذات، متفاوتة الآثار والحركات، وقدَّمها؛ لشرفها وعلو مكانها. ثم قال أيضًا: وجمع الظلمات؛ لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة: الضلال، وبالنور: الهُدى. والهدى واحد والضلال متعدد. وتقديمها لتقدم الإعدام على المَلَكَةِ. ومن زعم أن الظلمة عرَضٌ يُضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمي ليس صِرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. هـ.

الإشارة: أثنى الحقّ ـ جلّ جلاله ـ على نفسه بإنشاء هذه العوالم، التي هي محل ظهور عظمته وجلاله وجماله وبهائه. فأنشأ سموات الأرواح، التي هي مظهر لشروق أنوار ذاته وصفاته، ومحل لظهور عظمة ربوبيته، وأنشأ أرض النفوس، التي هي مظهر لتصرف أقداره، ومحل لظهور آداب عبوديته، وتجلى بين الضدين؛ بين الظلمات والنور، ليقع الخفاء في الظهور، كما قال بعض الشعراء:

..... لقد تكامَلَت الأضدادُ في كاملٍ البهَا

ثم بعدها هذا الظهور التام، عدل عن معرفته جلّ الأنام، إلا من سبقت له العناية من المِلك العلام، وبالله التوفيق.

@{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَا أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ }

قلت: { أجل }: مبتدأ. و { مُسَمى }: صفته. و { عنده }: خبر، وتخصيصه بالصفة أغنَى عن تقديم الخبر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { هو الذي خلقكم من طين } أي: ابتدأ خلقكم منه، وهو آدم، لأنه المادة الأولى، وهو أصل البشر. { ثم قضى أجلاً } تنتهون في حياتكم إليه. وهو الموت. { وأجل مسمى } مُعيَّن للبعث، لا يقبل التغيير، ولا يتقدم ولا يتأخر، (عن) استأثر بعلمه، لا مدخل لغيره فيه بعلم ولا قدرة، وهو المقصود بالبيان، { ثم أنتم تمترون } أي: تشكُّون في هذا الأجل المسمى الذي هو البعث.

و { ثم }: لاستبعاد امترائهم بعد ما ثبت عنه أنه خالقهم، وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن مَن قدر على خلق المواد وجمعها، وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما شاء، كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيًا. قاله البيضاوي.

الإشارة: القوالب من الطين، والأرواح من نور رب العالمين، فالطينية ظرف لنور الربوبية، الذي هو الروح؛ لأن الروح نور من أنوار القدس، وسر من أسرار الله، فمن نظَّف طينته ولطَّفها ظهرت عليها أسرار الربوبية والعلوم اللدنية، وكُشف للروح عن أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، وانخنَست الطينية، واستولت عليها الروح النورانية، ومن لطّخ طينته بالمعاصي وكثَّفها باتباع الشهوات، انحجبت الأنوار واستترت، واستولت الطينية الظُلمانية على الروح النُورانية، وحجبتها عن العلوم اللدنية والأسرار القدسية، بحكمته تعالى وعدله وظهور قهره. وبالله التوفيق.

@{ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ }

قلت: { هو }: مبتدأ، و { الله }: خبره. و { في السماوات }: خبر ثاني، أي: وهو الله كائن أو موجود في السماوات وفي الأرض بنوره وعلمه. قال تعالى: { اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [النور:35]. و { يعلم سركم وجهركم }: تقرير له.

يقول الحقّ جلّ جلاله: هذا الذي اختص بالحمد وأبدع الكائنات كلها ـ { هو الله } ظاهر { في السماوات وفي الأرض } بنوره وقدرته وعلمه وإحاطته، فلا شريك معه { يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون } من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أراد بالسر والجهر ما يظهر من أموال النفس، وبالمكتسب أعمال الجوارح. فالآية الأولى دليل القدرة التي ختم بها السورة، والآية الثانية دليل البعث، والآية الثالثة دليل الوَحدة.

الإشارة: قال بعض العارفين: الحق تعالى مُنزَّه عن الأّين والجهة، والكيف، والمادة، والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين، ولا مكان، ولا كم، ولا كيف، ولا جسم، ولا جوهر، ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده، فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق تعالى. ولابن وفا:

هُوَ الحَقُّ المُحُيطُ بِكُلِّ شيءٍ هُوَ الرحمَنُ ذُو العَرشِ المَجيدِ
هَوَ المَشهُودُ في الأشهَادِ يَبدُو فَيُخفِيه الشهُودُ عَن الشّهِيدِ
هَوَ العَينُ العيَانُ لِكُلِّ غَيبٍ هُوَ المَقصُودُ مِن بَيتِ القَصِيدِ

جَميعُ العَالِمَينَ له ظِلالٌ سُجُودٌ في القَريبِ وَفي البَعِيدِ
وَهَذا القَدرُ في التَّحقِيقِ كافٍ فَكُفَّ النَّفسَ عَن طَلَبِ المَزيدِ

@{ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ } * { فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }

قلت: { مِن } الأولى: مزيدة للاستغراق، والثانية للتبعيض.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وما تأتيهم من آية } دالّة على توحيد الله وكمال صفاته، إلا أعرَضوا عنها، أي: الكفار، أو: ما تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على قدرة الله وصدق رسوله، أو: ما تأتيهم آية من آيات القرآن تدل على وحدانية وكمال ذاته، { إلا كانوا عنها مُعرِضين }؛ تاركين للنظر فيها، غير ملتفتين إليها.

{ فقد كذبوا بالحق } وهو القرآن { لمَّا جاءهم } ، وهو كالدليل لِما قبله، لأنهم لمّا كذبوا بالقرآن ـ وهو أعظم الآيات ـ فكيف لا يُعرضون عن غيره من الآيات؟ ثم هدَّدهم بقوله: { فسوف يأتيهم أنباء } أي: أخبار { ما كانوا به يستهزئون } أي: سيظهر لهم، عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، ما كانوا يستهزئون به من البعث والحساب، أو عند ظهور الإسلام وارتفاعه.

الإشارة: مَن سبق له الخُذلان لا تنفعه الأدلة وتواتُر البرهان، ولا تزيده ظهور المعجزات أو الكرامات إلا التحاسد وظهور العداوات، ولا يزيده الدعاء إلى الله والتناد، إلاَّ الإعراض عنه والبعاد، نعوذ بالله من الشقاء وسوء القضاء.

@{ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }

قلت: { كم }: خبرية، مفعول { أهلكنا } ، أي: كثيرًا أهلكنا من القرون، والقرن؛ مدة من الزمان تهلك أشياخُها وتقوم أطفالُها، واختُلف في حدِّها، قيل: مائة، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وقيل القرن: أهل زمان فيه نبي أو فائق في العلم، قلَّت المدةُ أو كثُرَت، مشتق من قرين الرجل. والمطر المِدرار هو الغزير، وهي من أمثلة المبالغة، كمِذكار ومِيناث.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ألم يروا } ببصائرهم رؤيةَ اعتبار، { كم أهلكنا من قبلهم } من أهل عصر { مكنّاهم في الأرض } أي: جعلناهم متمكِّنين فيها بالقرار والسُّكنَى والطمأنينة فيها، أو أعطيناهم من القوة والآلات ما تمكَّنُوا بها من أنواع التصرف فيها؛ فقد { مكّناهم ما لم نمكّن لكم } يا أهل مكة، فقد جعلنا لهم من السعة وطول المقام ما لم نجعله لكم، أو أعطيناهم من القوة والسَّعة في المال والاستظهار على الناس بالعُدَّة والعدَد وتَهَيُّؤ الأسباب ما لم نجعله لكم.

{ وأرسلنا السماء } أي: المطر أو السحاب { عليهم مِدرَارًا } أي: مِعزارًا على قدر المنفعة بحسب الحاجة، { وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم } أي: أجرينا الأودية من تحت ديارهم وأراضيهم، فعاشوا في الخصب والريف، بين الأنهار والثمار، فعَصوا وطَغوا وبَطرُوا النعمة، فلم يُغنِ ذلك عنهم شيئًا. { فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا } أي:

أحدثنا، { من بعدهم قرنًا آخرين } بدلاً منهم. والمعنى: أنه تعالى كما قدَّر أن يُهلك مَن تقدم مِن القُرون، بعد أن مكَّنهم في البلاد واستظهروا على العباد، كعاد وثمود، وأنشأ بعدهم آخرين عمَّر بهم بلاده، يقدر أن يفعل ذلك بكم يا معشر المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: النظر والاعتبار يُوجب للقلب الرقَّة والانكسار. وهي عبادة كبرى عند العُباد والزهاد. أُولي العزم والاجتهاد. وفوقها: فكرة الشهود والعيان، وهي الفكرة التي تطوي وجود الأكوان. وتُغيب الأواني بظهور المعاني، أو تريها حاملة لها قائمة بها، فالأولى فكرة تصديق وإيمان، والثانية فكرة شُهُود وعِيان. وبالله التوفيق.

@{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } * { وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ } * { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولو نزَّلنا عليك } يا محمد { كتابًا } مكتوبًا { في قرطاس } أي: رَقٍّ، فرأوه بأعينهم، ولمسوه بأيديهم، حتى لا يبقى فيه تزوير، لعاندوا، ولقال { الذين كفروا منهم } بعد ذلك: { إن هذا إلا سحر مبين }؛ تعنتًا وعنادًا، وتخصيص اللمس؛ لأن التزوير لا يقع فيه، فلا يمكنهم أن يقولوا:
{ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا }
[الحجر:15]، وتقييده بالأيدي لدفع التجوز، فإنه قد يُتَجوز فيه فيطلق على الفحص كقوله:
{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ }
[الجنّ:8].

ثم اقترحوا معجزة أخرى، { وقالوا لولا أُنزل عليه ملك } يكلمنا أنه نبي، { أو يكون معه نذيرًا } أو شهيدًا له بالرسالة، رُوِي أن العاص بن وائل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود هم الذين سألوا ذلك. قال تعالى: { ولو أنزلنا ملكًا } ، كما طلبوا { لقُضي الأمر } بهلاكهم، فإنَّ سُنة الله جرَت بذلك فيمن قبلهم؛ مهما اقترحوا آية، فظهرت ثم كفروا، عجَّل الله هلاكهم، { ثم لا يُنظرون } أي: لا يُمهلون بعد نزولها ساعة.

وعلى تقدير لو أنزلنا عليهم الملك ـ كما اقترحوا ـ فلا يمكن أن يظهر إلا على صورة البشر ليُطيقوا رؤيته، { ولو جعلناه ملَكًا لجعلناه رجلاً } ليتمكنوا من رؤيته، كما مثّل جبريل في صورة دِحية، فإن القوة البشرية لا تقوَى على رؤية الملائكة. وإنما رأوهم كذلك الأفرادُ من الأنبياء، لامتلاء أسرارهم بالأنوار القدسية، فإذا ظهر على صورة البشر التبس الأمر عليهم فقالوا: إنما هو بشر لا مَلك، فهذا قوله: { وللبسنا عليهم ما يلبسون } أي: لخلَطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يُلبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها. وبالله التوفيق.

الإشارة: كرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق. " سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصَل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه " ، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم. وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم. والله تعالى أعلم.

@{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ }

قلت: حاق يَحِيق حَيقًا، أي: نزل وأحاط، و { منهم }: يتعلق بسخروا، و { ما كانوا }: الموصول اسمي أو حرفي.

يقول الحق جلّ جلاله: في تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم: { ولقد استُهزىء برسل } كثير { من قبلك } فصبروا على أذى قومهم حتى أهلكهم الله، { فحاق } أي: أحاط { بالذين سَخروا منهم ما كانوا به يستهزءون } أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزءون به ويستبعدونه، أو: نزل بهم وبالُ استهزائهم وهو الهلاك.

الإشارة: كل ما سُلِّيت به الرسل تسلَّى به الأولياء، فما من ولي صِدِّيق إلا ابتلاه الله بتسليط الخلق عليه؛ حتى ترحلَ رُوحه عن هذا العالم لضِيقه عليها، وتتمكن من شهود عالم الملكوت، فإذا طهرت منه البقايا، وكملت فيه المزايا، ردَّه إليهم غنيًّا عنهم، وغائبًا عنهم، جسمُه مع الخلق وقلبه مع الحق. هذه سُنة الله في أوليائه، فكل وليّ يتسلى بمن قبله في إيذاء الخلق له. غير أن أولياء هذه الأمة إذا كمل مقامهم صاروا على قَدَم نبيهم، يكونون رحمة للعباد، مَن آذاهم لا يُعاجَل بالعقوبة غالبًا، كما كان نبيهم رحمة للعالمين، فقال: " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " والله تعالى اعلم.

@{ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }

قلت: قال الزمخشري: فإن قلت: أيُّ فرق بين قوله: { فانظروا } ، وبين قوله: { ثم انظروا }؟ فالجواب: أنه جعل النظر مسبَّبًا على السير في قوله: { فانظروا } ، كأنه قال: سيروا لأجل النظر، وأما قوله: { قل سيروا في الأرض ثم انظروا } ، فمعناه: إباحة السير للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في الهالكين. هـ. ولم يقل: كانت؛ لأن العاقبة مُجَاز تأنيثُها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { سيروا في الأرض } وجُولوا في أقطارها، { ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين } قبلكم، كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مَديَن، كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، كي تعتبروا وتنزجروا عن تكذيب محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الإشارة: يقال لأهل التنكير على أهل الذكر والتذكير: سِيروا في الأرض، وانظروا كيف كان عاقبة المنكرين على المتوجهين، كانت عاقبتهم الخذلان، وسوء الذكر بعد الموت والخسران كابن البراء وغيره من أهل التنكير. نعوذ بالله من التعرّض لمقت الله.

@{ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىا نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىا يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } * { وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

قلت: جملة { ليجمعنّكم }: مقطوعة، جواب لقسَم محذوف، وقيل: بدل من الرحمة، وهو ضعيف؛ لدخول النون الثقيلة في غير موضعها. و " إلى ": هنا، للغاية، كما تقول: جمعتُ القوم إلى داري. وقيل: بمعنى " في " و { الذين خسروا }: مبتدأ، وجملة: { فهم لا يؤمنون }: خبر، و { له ما سكن }: عطف على { لله } ، وهو إما من السكنى فلا حذف، أو من السكون، فيكون حذف المعطوف. أي: ما سكن وتحرَّك.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } للمشركين يا محمد: { لمن ما في السماوات والأرض } خلقًا وملكًا وعبيدًا؟. { قل } لهم هو: { لله } لا لغيره والقصد بالآية: إقامة البرهان على التوحيد وإبطال الشرك. وجاء ذلك بصيغة الاستفهام؛ لإقامة الحجة على الكفار، فسأل أولاً، ثم أجاب عن سؤاله بنفسه؛ لأنَّ الكفار يُوافقون على ذلك ضرورة، فثبت أن الإله الحق هو الذي له ما في السماوات والأرض، وإنما يحسُن أن يكون السائلُ مجيبًا إذا عُلِم أن خَصمَه لا يخالفُه في الجواب الذي يقيم به الحجة عليه.

ثم دعاهم إلى الإيمان والتوبة بتلطُّف وإحسان فقال: { كتب على نفسه الرحمة }؛ { أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوَءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأنعام:54] كما في الآية الأخرى، والكتابةُ هنا عبارة عن القضاء السابق، وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: " إنَّ اللهَ كتَبَ كتابًا قبلَ أن يَخلُقَ السَّماواتِ والإرضَ فَهُوَ عِندَه " وفيه: " أنَّ رَحمَتِي سبقَت غَضَبي " ، وفي رواية: " تَغلِبُ غضبي ".

قال البيضاوي: { كتب على نفسه الرحمة } أي: التزمها تفضلاً وإحسانًا، والمراد بالرحمة: ما يعُمُّ الدارين، ومن ذلك: الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده، بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. هـ.

ثم ذكر محل ظهور هذه الرحمة، فقال: واللهِ { ليجمعنّكم إلى يوم القيامة } أي: ليجمعنكم من القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيُجازي أهل التوبة والإيمان، ويعاقب أهل الشرك والكفران، { لا ريب } في ذلك اليوم، أو في ذلك الجمع، فيظهر أهل الخسران من أهل الإحسان، ولذلك قال: { الذين خسروا أنفسهم } بتضييع رأس مالهم، وهو النظر الصحيح الموجِب للإيمان والتوحيد { فهم لا يؤمنون } حتى أدركهم الموت؛ فلا خسران أعظَم من ذلك. ودخلت الفاء في الخبر؛ للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبّب عن خسرانهم؛ فإن إبطال النظر، والانهماك في التقليد واتباع الوهم، أدَّى بهم إلى الإصرار على الكفر، والامتناع من الإيمان إلى الممات. فخسروا أولاً بتضييع النظر، فتسبب عنه عدم الإيمان.

ثم تمّم جوابه فقال: { وله ما سكن } أي: قل لهم: ما في السماوات والأرض لله، وله أيضًا ما سكن { في الليل والنهار } أي: ما استقر فيهما وما اشتملنا عليه، أو ما سكن فيهما وتحرك، { وهو السميع } لكل مسموع، { العليم } بكل معلوم؛ فلا يخفى عليه شيء في الليل والنهار، في جميع الأقطار.

@الإشارة: إذا علم العبد أن الخلق كلهم في قبضة الله، وأمورهم كلها بيد الله، أحاط بهم علمًا وسمعًا وبصرًا، لم يبق له على أحد عتاب، ولا ترتيبُ خطأ ولا صواب، إلاَّ ما أمرت به الشريعةُ على ظاهر اللسان. بل شأنه أن ينظر إلى ما يفعل المالك في ملكه. فيتلقاه بالقبول والرضى، وفي الحِكَم: " ما تَركَ من الجهل شيئًا مَن أراد أن يُظهر في الوقت غيرَ ما أظهره الله فيه ". هذا شأن أهل التوحيد؛ يدوُرون مع رياح الأقدار حيثما دارت، غيرَ أنهم يتحنَّنون بقلوبهم إلى رحمة الكريم المنان، وينهضون بهمتهم إلى مَظانّ السعادة والغفران، ويرجون منه الجمع عليه في روح وريحان، وجنة ورضوان، بمحض فضل منه وإحسان. جعَلَنَا الله منهم بفضله وكرمه. آمين.

@{ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيا أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } * { قُلْ إِنِّيا أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } * { مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ } * { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ } * { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }

قلت: { فاطر }: نعت لله، ومعناه: خالق ومبدع. قال ابن عباس رضي الله عنه: (ما كُنت أعرف معنى فاطر، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطَرتها بيدي). وجملة: { وهو يطعم }: حال، وقُرِىء بعكس الأول؛ ببناء الأول للمفعول، والثاني للفاعل، على أن ضمير { هو } راجع لغير الله، وببنائهما للفاعل؛ على معنى يُطعِم تارة، ويمنع أخرى، كقوله:
{ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ }
[البَقَرَة:245]، وجملة { إن عصيتُ }: معترضة بين الفعل والمفعول، والجواب: محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن عصيتُ فإني أخاف عذاب يوم عظيم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد: { أغير الله أتخذ وليًّا } أي: معبودًا أواليه بالعبادة والمحبة، وأُشركه مع الله الذي أبدع السماوات والإرض، { وهو } الغني عما سواه، الصَّمَداني، { يُطعِمُ } ولا يحتاج إلى من يُطعمه، فهو يَرزُق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام؛ لشدة الحاجة إليه { قُل } لهم: { إني أُمرتُ أن أكون أول من أسلم } ، وأنقاد بكُلِّيتي إلى هذا الإله الحقيقي، العني بالإنطلاق، وأرفضُ كل ما سواه، ممن عمّه الفقرُ ابتداءً ودوامًا. فكان عليه الصلاة والسلام هو أولَ سابق إلى الدين. ثم قيل له: { ولا تكونن من المشركين }؛ تنفيرًا لغيره من الشرك، وإلاّ فهو مبرَّأ منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

{ قل إني أخاف إن عصيت ربي } بالشرك وغيره { عذاب يوم عظيم } ، وهذه مبالغة أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة، مستوجبون للعذاب، { من يُصرف عنه } ذلك العذاب، { يومئذٍ } أي: يوم القيامة، { فقد رحمه } أي: نجاه، وأنعم عليه، { وذلك الفوز المبين } أي: وذلك الصرف أو الرحمة هو الفلاح المبين.

ثم ذكر حجة أخرى على استحقاقه للعبادة والولاية، فقال: { وإن يمسسك الله بضرّ } كمرض أو فقر، { فلا كاشف له إلا هو }؛ إذ لا يقدر على صرفه غيره، { وإن يمسسك بخير }؛ بنعمة، كصحة وغنى ومعرفة وعلم، { فهو على كل شيء قدير } ، فهو قادر على حفظه وإدامته، ولا يقدر أحد على دفعه، كقوله تعالى:

{ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ }
[يُونس:107]، { وهو القاهر } لجميع خلقه؛ كلهم في قبضته، { فوق عباده } بهذه القهرية والغلبة والقدرة، { وهو الحكيم } في صنعه وتدبيره، { الخبير } بخفايا أمور عباده، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم الباطنة والظاهرة.

الإشارة: في الآية حَضٌّ على محبة الحق، وولايته على الدوام، ورفض كل ما سواه ممن عمَّه الفقر من الأنام، وفيها أيضًا: حثّ على المسابقة إلى الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات، اقتداء بسيد أهل الأرض والسماوات، فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أول من عبد الله، وأول من توجه إلى مولاه، قال تعالى:
{ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ الْعابِدِينَ }
[الزّخرُف:81]، فلو جاز أن يتخذ ولدًا، لكنت أنا أولى به، لأني أنا أول من عبده.

قال الورتجبي: { قل إني أُمرت أن أكون أول من أسلم } أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون ـ حيث لم يكن غيري في الحضرة ـ أن أكون أول الخلق في المحبة والعشق والشوق، وأول الخلق له منقادًا بنعت محبتي له، راضيًا بربوبيته، غير منازع لأمر مشيئته. وقال بعضهم: أكون أول من انقاد للحق إذا ظهر. هـ.

@{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـاذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىا قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }

{ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللَّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـاذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ... }

قلت: { قل الله شهيد }: يحتمل المبتدأ والخبر، أو يكون { الله } خبرًا عن مضمر، أو مبتدأ حُذف خبره، و { شهيد }: خبر عمن مضمر، أي: قل هو الله، أو الله أكبر شهادة، وهو شهيد بيني وبينكم، و { من بلغ }: عطف على مفعول، " أنذر " ، أي: لأنذركم يا أهل مكة، وأنذر من بلغه القرآن، وحذف مفعول { بلغ }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد للذين سألوك مَن يشهد لك بالنبوة: { أيُّ شيء } عندكم هو { أكبر شهادة }؟ فإن لم يجيبوا فقل لهم: هو { الله }؛ فإنه أكبر الشاهدين، وهو الذي يشهد لي بالنبوة والرسالة؛ بإقامة البراهين وإظهار المعجزات، وهو { شهيد بيني وبينكم } ، وكفى به شهيدًا.

{ وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به } أي: لأخوّفكم به، إن أعرضتم عنه، وأُبشِّركم به إن آمنتم به، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة؛ لأنه مصرح به في موضع آخر، ولأن الأهم هنا هو الإنذار؛ لغلبة الكفر حينئذٍ، وأنذر به أيضًا كل من بلغه القرآن من الأحمر والأسود، والجن والإنس إلى يوم القيامة. وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعُم الموجودين وقت النزول ومَن بعدَهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه، وهو نادر، قال سعيد بن جبير: (مَن بلغه القرآن فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم).

الإشارة: في الآية حثٌّ على اكتفاء بعلم الله، والاستغناء به عما سواه، وعلامةُ الاكتفاء بعلم الله ثلاث: استواء المدح والذم، والرضى بالقليل والكثير، والرجوع إلى الله وحده في السراء والضراء.

واعلم أن الحق تعالى إذا شهد لك بالخصوصية، ثم اكتفيت بشهادته فأنت من أهل الخصوصية، وإن لم تكتف بشهادته، وتطلعت إلى أن يعلم الناس بخصوصيتك، فأنت كاذب في دعوى الخصوصية. واطلاع الحق تعالى على ثبوت خصوصيتك هو شهادته لك، فاقنع بعلم الله، ولا تلتفت إلى أحد سواه، لئلا ينزعَها مِن قلبك، حيث لم تقنع بعلم الله فيك. وبالله التوفيق.

ولمّا أتى قومٌ من الكفار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد؛ أما تعلم أن مع الله إلهًا آخر؟ أنزل الله تعالى:

{...أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىا قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـاهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }

قلت: الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في الإنكار على المشركين: { أئنكم لتشهدون أنَّ مع الله آلهة أُخرى } تستحق أن تعبد { قل } لهم يا محمد: أنا { لا أشهدُ } بما تشهدون به، { قل } لهم: { إنما هو إله واحد }؛ بل أشهد ألا إله إلا هو، { وإنني بريءٌ مما تُشركون } به من الأصنام.

الإشارة: لم يَبرَأ من الشرك الخفي والجلِي إلا أهلُ الفناء؛ الذين وحدوا الله في وجوده، فلم يروَا معه سواه، قال بعضُ من بلغ هذا التوحيد: (لو كُلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غيرَ معه حتى أشهده) وقال آخر: مُحَالٌ أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم:

مُذ عَرَفتُ الإلَه لَم أرَ غَيرَا وَكَذَا الغَيرُ عِندَنَا مَمنُوعُ

إلى غير ذلك من مقالاتهم الدالة على تحقيق وجدانهم. نفعنا الله بذكرهم ومحبتهم. أمين.

@{ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } * { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىا عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين آتيناهم الكتاب } من اليهود والنصارى، { يعرفونه } أي: محمدًا صلى الله عليه وسلم بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل، { كما يعرفون أبناءهم } أو أشد، وإنما كتموه؛ جحدًا وخوفًا على رياستهم.. { الذين خسروا أنفسهم } من أهل الكتاب؛ حيث كذَّبوا وكتموا، ومن المشركين حيث كفروا وجحدوا، { فهم لا يؤمنون }؛ لتضييعهم ما به يُكتسب الإيمان من النظر والتفكير والإنصاف للحق، فقد ظلموا أنفسهم وبخسوها.

{ ومَن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا }؛ بأن كتم شهادة الحق، وهي صفة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو ادّعاءُ الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، { أو كذَّب بآياته }؛ كالقرآن والمعجزات وسمَّوها سِحرًا، أي: لا أحد أظلم ممن

فَعل هذا، وإنما عبَّر بـ " أو " ، وهم قد جمعوا بين الأمرين؛ تنبيهًا على أن كل واحد منهما وحده بالِغٌ غاية الإفراط في الظلم على النفس، { إنه } أي: الأمر والشأن { لا يُفلح الظالمون } ، فضلاً عمّن لا أحد أظلم منه.

الإشارة: أقبحُ الناس منزلة عند الله، من تحقق بخصوصية ولي من أولياء الله، ثم كَتمها وجَحدها؛ حسدًا وعنادًا، وجعل يُنكر عليه، فقد آذن بحرب من الله، فالتسليمُ عناية، والانتقاد جناية، والاستنصافُ من شأن الكرام، والتعصب من شأن اللئام. وبالله التوفيق.

@{ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } * { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } * { انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىا أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }

قلت: { لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا } ، من قرأ بالرفع والتأنيث: ففتنة اسمها، و { إلاَّ أن قالوا }: خبرها، ومن قرأ بالنصب: فخبرٌ مقدم، والتأنيث لأجل الخبر، ومن قرأ بالتذكير والنصب، فخبر مقدم، و { إلاَّ أن قالوا }: أسمها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكر يا محمد { يوم نحشرهم } أي: المشركين، { جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم } أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، { الذين كنتم } تزعمونهم شركاء، وتودونها وتنتصرون لها، فيُحالُ بينهم وبينها، ويتبرأون منها، كما قال تعالى: { ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين } أي: لم تكن عاقبة كفرهم الذي افتتنوا به، إلا التبرؤ منه، بعد الانتصار له والتعصب عليه، أو: لم يكن جواب اختبارهم إلا التبرؤ من الشرك، فيكذبون ويحلفون عليه، مع علمهم بأنه لا ينفع من فَرط الحيرة والدهشة.

فإن قلت: كيف يجحدون مع قوله:
{ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا }
[النِّساء:42] فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف الطوائف والمواطن، فيكتم قومٌ ويُقر آخرون، ويكتمون في موطن ويُقرون في موطن آخر؛ لأن يوم القيامة طويل، وقال ابن عباس لَمَّا سئل عن هذا: (إنهم جحدوا، طَمَعًا في النجاة، فختم الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم، فلا يكتمون حديثًا).

قال تعالى: { انظر كيف كذبوا على أنفسهم } بِنفِي الشرك عنها بعد تحققها به ونظيره قوله:
{ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ }
[المجادلة:18] { وضل عنهم ما كانوا يفترون } أي: غاب عنهم ما كانوا يعبدونه من الشركاء افتراء على الله.

الإشارة: من أحب شيئًا فهو عبد له، ويوم القيامة يتبرأ منه، ويرى وبال فتنته والاشتغال به، فينبغي لمن أراد السلامة من الفتنة، أن يُفرد محبته لله، ويتبرأ من كل ما سواه، ويُفرد وجهته لله، ولا يشتغل ظاهرًا ولا باطنًا إلا بما يقربه من الله ويبعده عما سواه وفي الحديث: " تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ والدِّرهَمِ والخَمِيصَةِ، تَعِسَ وانتَكَسَ، وإذَا شِيكَ فلا انتَقَشَ ".

@{ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىا قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيا آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىا إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } * { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }

قلت: { مَنْ }: لفظها مفرد ومعناها جمع، فيجوز في الضمير مراعاة اللفظ فيُفرد، كقوله هنا: { ومنهم من يستمع إليك } ، ويجوز مراعاة المعنى فيجمع، كقوله في يونس:
{ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ }
[يُونس:42]، والأكِنَّة: الأغطِية، جمع كنان، و { أن يفقهوه }: مفعول له؛ أي: كراهية أن يفقهوه، و { حتى }: غاية، أي: انتهى التكذيب حتى وصلوا إليك يجادلونك، والجملة بعدها: إمَّا في محل جر بها ويجادلونك جواب لها، و { يقول }: تبيين لها، وإما لا محل لها؛ فتكون ابتدائية. والأساطير: جمع أسطورة، أو أسطار؛ جمع سَطر، فيكون جمع الجمع.

يقول الحقّ جلّ دجلاله: ومن الكفار { من يستمع إليك } حين تقرأ القرآن، والمراد: أبو سفيان والوليد والنضر وعُتبة وشَيبَة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ، فقالوا للنضر: ما تقول؟ فقال: والذي جعلها بيننا وبينه ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرك لسانه، ويقول أساطير الأولين، مثل ما جئتُكم به. قال السُّهَيلي: حيث ما ورد في القرآن: " أساطير الأولين " فإنَّ قائلها هو النضر بن الحارث، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلَّم أخبار ملوكِهم، فكان يقول: حديثي أحسنُ من حديث محمد، فنزلت فيه وفي أصحابه.

{ وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً } أي: أغطية؛ كراهة { أن يفقهوه }؛ لما سبق لهم من الشقاء، { و } جعلنا { في آذانهم وقرًا } أي: ثقلاً وصمَمًا فلا يسمعون معانيه، ولا يتدبرونها. { وإن يَرَوا كلَّ آية } ومعجزة { لا يؤمنوا بها }؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، وسبقِ الشقاء لهم، فلا يزال التكذيب والشك يعظُم فيهم { حتى إذا جاؤوك يجادلونك } أي: حتى ينتهي بهم التكذيب إلى أن يجيؤوك يجادلونك؛ { يقول الذين كفروا إن } أي: ما { هذا إلا أساطير } أي: أكاذيب { الأولين } ، فإنَّ جَعلَ أصدق الحديث خرافاتِ الأولين غايةٌ التكذيب.

{ وهم } أيضًا { يَنهون عنه } أي: ينهون الناس عن القرآن، أو عن الرسول والإيمان به، { وينأون عنه } أي: يبعدون عنه، فقد ضلوا وأضلوا، أو يَنهون عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وينأون عنه؛ فلا يؤمنون، كأبي طالب ومن كان معه، يحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مكة. وفي { ينهون } ضربٌ من ضروب التجنيس من علم البلاغة. قال تعالى: { وإن } أي: ما { يُهلكون } بذلك { إلا أنفسهم وما يشعرون } أن ضررهم لا يتعداهم إلى غيرهم.

الإشارة: اعلم أن القلب تحجبه عن تدبر كلام الله والتمتع بحلاوته أربعةُ حُجُب:

الأول: حجاب الكفر والشرك ويندفع بالإيمان والإسلام.

والثاني: حجاب المعاصي والذنوب، وينخرق بالتوبة والانقلاع.

والثالث: حجاب الانهماك في الحظوظ والشهوات واتباع الهوى، وينخرق بالزهد والورع والتعفف ونوع من الرياضة.

والرابع: حجاب الغفلة والخوض فيما لا يعني، والاشتغال بالبطالة، وينخرق باليقظة والتوجه إلى الحق، والانقطاع إلى الله بكليته، فإذا انخرقت هذه الحجب عن القلب، تمتع بحلاوة القرآن ومناجاة الحق على نعت القرب والمراقبة.
@وبقي حجابان آخران، إذا خرقهما العبد أفضى إلى مشاهدة المتكلم دون واسطة، أولهما: حجاب حلاوة الطاعة والمعاملة الظاهرة، والوقوف مع المقامات أو الكرامات، فإنها عند العارفين سموم قاتلة. وثانيهما: حجاب الوهم والوقوف مع ظاهر الحس، دون الوصول إلى باطنه، فيقف مع الأواني دون شهود المعاني، وقد قال الششتري:

لاَ تَنظرُ إلَى الاوانِي وَخُضْ بَحْر الْمعَانِي
لعلَّك تَرَانِي
وقال الغزالي: الموانع التي تحجب القلب عن الفهم أربعة: الأول: جعل الفهم مقصورًا على تحقيق الحروف؛ بإخراجها من مخارجها، فهذا يتولى حفظه شيطان وكُلِّ بالقراء، يصرفهم عن معاني كلام الله تعالى. والثاني: أن يكون مقلدًا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، من غير وصول إليه ببصيرة. الثالث: أن يكون مصرًا على ذنب، أو متصفًا بكبر، أو مبتلى بهوى في الدنيا مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب، وهو كالخبءِ على المرآة، فيمنع جلية الحق فيه، وهو أعظم حجب القلب، وبه حُجب الأكثرون، الرابع: أن يكون قد قرأ تفسيرًا ظاهرًا، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلاَّ ما يتأوّل عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي منهي عنه، فهذا أيضًا من الحجب العظيمة، فإن القرآن بحرٌ لا ساحل له، وهو مبذول لمن يغرف منه إلى يوم القيامة، كل على قدر سعته وصفاء قلبه. هـ. بالمعنى.
@{ وَلَوْ تَرَىا إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } * { بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }

قلت: { لو }: شرطية، وجوابها محذوف: أي: لرأيت أمرًا فظيعًا هائلاً، وإنما حذف في مثل هذا ليكون أبلغ ما يقدره السامع. و { لا نكذب } و { نكون }: قُرىء بالرفع، على الاستئناف والقطع عن التمني، ومثّله سيبويه بقولك: (دعني ولا أعود) أي: وأنا لا أعُود، ويحتمل أن يكون حالاً، أي: غير مُكذِّبين، أو عطفًا على: { نُرد } ، وقُرىء: بالنصب؛ على إضمار " أن " ـ بعد واو المعية في جواب التمني.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولو ترى } يا محمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، حالَ الكفار { إذ وقِفُوا على النار } حين يعاينونها أو يطّلعون عليها، أو يدخلونها، فيعرفون مقدار عذابها، لرأيت أمرًا شنيعًا وهولاً فظيعًا؛ { فقالوا } حينئذٍ: { يا ليتنا نُردُّ } إلى الدنيا، { ولا نُكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنون } ، ندموا حين لم ينفع الندم، وقد زلّت بهم القدم، قال تعالى: { بل بدَا لهم } أي: ظهر لهم يوم القيامة في صحائفهم { ما كانوا يُخفون من قبل } في دار الدنيا من عيوبهم وقبائح أعمالهم، أو: بدا لهم حِقيّة الإيمان وبطلان ضده، عيانًا، لمَّا وقفوا الى التوحيد وعرفوه ضرورة، وقد كانوا في الدنيا يُخفونه ويُظهرون الشرك، عياذًا بالله. قال تعالى: { ولو رُدُّوا } إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور { لعادوا لما نُهوا عنه } من الكفر والمعاصي؛ لأنهم من قبضة الشقاء، والعياذ بالله، { وإنهم لكاذبون } فيما

وعدوا من أنفسهم من الإيمان وعدم التكذيب. وفي هذا الإخبار بما لا يكون، ولو كان كيف يكون، وهو مما انفرَد الله بعلمه.

الإشارة: يوم القيامة هو محل ظهور حقائق الأشياء على ما هي عليه، فإن كانت حقًا ظهرت حقيقتها وصحتها، وإن كانت باطلة، ظهر بطلانها عيانًا، لكن لا تنفع المعرفة حينئذٍ، لرفع حجاب الحكمة وظهور القدرة، فلم يبقَ غيبٌ، وإنما المزيَّةُ في الإيمان بالغيب، والمعرِفةَ في النكران، والشهود خلف رداء الكبرياء، بشهود المعاني خلف الأواني، فإن ظهرت المعاني فلا إيمان، وإنما يبقَى العيان، لأهل العيان، والخيبة لأهل الخذلان.

قال الورتجبي: القوم لم يعرفوا حقائق الكفر في الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولا ينفعهم ذلك؛ لفوتهم السير في النكرات، التي معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام في آماكن صُدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلة عرفانهم به، ولا يكون قلبٌ من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب، بإلهام الله الذي يعرف به طُرُقَ رضى الحق، وصاحبه يعلم ذلك ويسمع ويُخفيه في قلبه، لأنه أدق من الشعرة، وحركته أخفى من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن من غلَبت شهواتُ نفسه عليه، لا يتبع خطاب الله بالسر، فأبدى الله لهم ما كانوا يخفونه، تعييرًا لهم وحجة عليهم، انتهى.

قلت: قوله: ولا يكون قلب... الخ، حاصل كلامه: أن القلب من حيث هو لابد أن يطرقه الخصم إن حاد عن الحق، وهو المراد بهواتف الغيب، لكنه أخفى من دبيب النمل في حق الغافلين. فإن كان القلب حيًّا متيقظًا تتبع ذلك الخصم؛ حتى يزيله بظهور الحق، وإن كان ميتًا بغلبة الشهوات أخفاه حتى يموت، فيبدون له ما كان يخفيه من قبل. والله تعالى أعلم.

@{ وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } * { وَلَوْ تَرَىا إِذْ وُقِفُواْ عَلَىا رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـاذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَىا وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } * { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ اللَّهِ حَتَّىا إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ ياحَسْرَتَنَا عَلَىا مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىا ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } * { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لَّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقالوا } أي: الكفار في إنكار البعث: { إن هي } أي: الحياة { إلا حياتنا الدنيا } لا حياة بعدها، { وما نحن بمبعوثين } ، قال جل جلاله: { ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم } ، كناية عن حبسهم للسؤال والتوبيخ، أو: وقفوا على قضاء ربهم بين عباده، وعرفوه حق التعريف، قال لهم الحق جل جلاله: { أليس هذا } الذي كنتم تُنكرونه، { بالحق قالوا بلى وربنا } إنه لحق، ولكنا كنا قومًا ضالين، وهو إقرار مؤكد باليمين، لانجلاء الأمر غاية الجلاء، قال تعالى لهم: { فذوقوا } أي: باشروا { العذاب بما كنتم تكفرون } أي: بسبب كفركم.

{ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله } ، حيث فاتهم النعيم، واستوجبوا العذاب المقيم، والمراد بلقاء الله: البعث وما يتبعه. فاستمروا على التكذيب { حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة } أي: فجأة { قالوا يا حسرتنا } أي: يا هلكتنا { على ما فرطنا } أي:

قصَّرنا { فيها } أي: في الحياة الدنيا، أو في الساعة، أي: في شأنها والاستعداد لها، { وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم } ، كناية عن تحمل الذنوب، لأن العادة حمل الأثقال على الظهور، وقيل: أنهم يحملونها حقيقة، وقد رُوِي: أن الكافر يركبه عمله، بعد أن يتمثل له في أقبح صورة، وأن المؤمن يركب عمله، بعد أن يتصور له في أحسن صورة. قال تعالى في شأن الكفار: { ألا ساء ما يزرون } أي: بئس شيئًا يَزِرُونَهُ ويرتكبونه في الدنيا وزرهم هذا، الذي يتحملونه على ظهورهم يوم القيامة.

وسبب هذا: الركون إلى دار الغرور ونيسان دار الخلود، ولذلك قال تعالى بإثره: { وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو } أي: وما أعمالها إلا لعب ولهو، تُلهي الناس وتشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وما مدة بقائها مع ما يعقبها من الفناء إلاَّ كمدة اللعب واللهو، إذ لا طائل تحته لمن لم يعمر أوقاتها بطاعة ربه، { وللدار الآخرة خير للذين يتقون }؛ لدوامها وخلوص نعيمها وصفاء لذاتها، { أفلا تعقلون } أيّ الأمرين خير، هل دار الخراب والفناء، أو دار النعيم والبقاء، وفي قوله: { للذين يتقون }: تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين كله لعب ولهو.

الإشارة: إذا كمل نور العقل حصل لصاحبه التمييز بن الحق والباطل، وبين الضار والنافع، فنظر بعين اعتباره إلى الدنيا، فوجدها ذاهبة فانية، ونظر إلى الآخرة، فرآها مقبلة باقية دائمة، فصدف عن الدنيا مُوليًا، وأعرض عن زهرتها مدبرًا، وأقبل بكليته إلى مولاه، غائبًا عن كل ما سواه، فجعل الموت وما بعده نصب عينيه، وخلف الدنيا وراء ظهره أو تحت قدميه. وفي الحِكم: " لو أشرق نور اليقين في قلبك، لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها، ولرأيت الدنيا، وكسفَةُ الفناء ظاهرة عليها " وقال بعض الحكماء: (لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والأخرة من طين يبقى، لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى، ولا سيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفنى؛ والآخرة من ذهب يبقى). فلا يختار هذه الدار إلا من لا عقل له أصلاً. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " الدُّنيا دَارُ مَن لا دَار لَه، وَمَالُ مَن لا مَالَ لَهُ، لَهَا يَجَمعُ مَن لاَ عَقل لَهُ، وعلَيها يُعَادى مَن لا عِلم عِنده " أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

@{ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـاكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ } * { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىا مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىا أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ } * { وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىا فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ }

قلت: { قد } للتحقيق، وإنه ضمير الشأن، وقرأ نافع: " يُحزن " ، بضم الياء حيث وقع، إلا قوله:
{ لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ }
[الأنبيَاء:103] والباقون: بفتح الياء، وفيه لغتان: حزن يحزُن، كنصر ينصر، وأحزن يحزِن. والأول أشهر. ومن قرأ: " يُكذِّبُونَك " بالتشديد؛ فمعناه: لا يعتقدون كذبك، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به، ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: لا يجدونك كاذبًا، يقال: أكذبت الرجل إذا وجدته كاذبًا، وقيل: معناهما واحد، يقال: كذّب فلانٌ فلانًا، وأكذبه، بمعنى واحد، وفاعل { جاءك }: مضمر، أي: نبأ أو بيان، وقيل: الجار والمجرور. وجواب { فإن استطعت }: محذوف، أي: فافعل.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون } أي: الكفار في جانبك؛ من أنك شاعر أو كاهن أو مجنون أو كاذب،. { فإنهم لا يُكذبونك } في الحقيقة، لجزمهم بصحة نبوتك، ولكنهم يجحدون بآيات الله، حسدًا وخوفًا على زوال الشرف من يدهم: نزلت في أبي جهل، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّا لاَ نُكَذِّبُكَ، ولكِن نُكذِّبُ بِمَا جئتَ بِهِ " وقال الأخنَسُ بن شُرَيق: والله إن محمدًا لصادق، ولكني أحسده الشرف. ووضع { الظالمين } موضع المضمر؛ للدلالة على أنهم ظلموا لجحودهم، أو جحدوا لتمرنهم على الظلم.

ثم سلاَّه عن ذلك، فقال: { ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا } أي: صبروا على تكذيبهم وأذاهم، { حتى أتاهم نصرنا } ، فاصبر كما صبروا حتى يأتيك نصرنا كما أتاهم، وفيه إيماء بوعد النصر للصابرين، ولذلك قيل: الصبر عنوان الظفر. { ولا مبدل لكلمات الله } السابقة بنصر الصابرين، كقوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ } [الصافات:171،172]، { ولقد جاءك من نبأ المرسلين } أي: من قصصهم، وما كابدوا من قومهم حتى نصرهم الله فتأنس بهم وانتظر نصرنا.

{ وإن كان كَبُر } أي: عظم وشق { عليك إعراضهم } عنك وعن الإيمان بما جئت به، { فإن استطعت أن تبتغي نفقًا } أي: سربًا { في الأرض } فتدخل فيه لتطلع لهم آية، { أو سُلَّما في السماء } لترتقي فيه { فتأتيهم بآية } حتى يعاينوها فافعل، ولكن الأمر بيدي، فإنما أنت نذير.

قال البيضاوي: المقصود: بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها؛ رجاء إسلامهم، { ولو شاء الله لجمعهم على الهدى } أي: لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يُؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته، وفيه حجة على القدرية. أو: لو شاء الله لأظهر لهم آية تلجئهم إلى الإيمان، لكن لم يفعل؛ لخروجه عن الحكمة، { فلا تكونن من الجاهلين } أي: من الذين يحرصون على ما لم تجر به المقادير، أي: دم على عدم كونك منهم ولا تقارب حالهم بشدة التحسر.
@وقال في نوادر الأصول: إن الخطاب به تربية له، وترقيةُ من حال إلى حال، كما يُربَّى أهل التقريب ويُنقلُون من ترك الاختيار، فيما ظاهرُه بِرٌ وقربة. هـ.

قلت: تشديد الخطاب على قدر علو المقام، كما هو معلوم من الأب الشفيق أو الشيخ الناصح، وقد قال لنوح عليه السلام:
{ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ }
[هُود:46]. وهذا الخطاب أشد لعلو مقامه صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: كل ما سُلِّيت به الرسل تسَّلى به الأولياء؛ لأنهم ورثتهم الخاصة، وكل ما أمرت به الرسل تؤمر به الأولياء، من الصبر وعدم الحرص، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، ولا الحزن على من أدبر عنهم أو أنكر، بل هم يزرعون حكمة التذكير في أرض القلوب، وينظرون ما ينبت الله فيها، اقتداءً بما أمر به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وما تخلق به، فمن أصول الطريقة: الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء. والله تعالى أعلم.

@{ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَا يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إنما يستجيب } لك، ويُجيب دعوتك إلى الإيمان { الذين يسمعون } سماع تفهم وتدبر، وهو من كان قبله حيًا، وأما الكفار فهم موتى لا يسمعون ولا يفقهون، { والموتى } ، وهم الكفار الذين ماتت أرواحهم بالجهل حتى ماتوا حسًا، { يبعثهم الله } ، فيظهر لهم حينئذٍ الحق، ويسمعون حين لا ينفع الإيمان، أو يبعثهم الله في الدنيا بالهداية، أو الموتى حقيقة حسًا، يبعثهم الله للحساب، { ثم إليه يُرجعون } للجزاء.

الإشارة: إنما يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويتَرقَّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فَتهُبُ عليهم نفحات الهداية؛ لِما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود.

@{ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىا أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } * { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىا رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقالوا } ـ حين سمعوا ذكر البعث والرجوع إلى الله ـ: { لولا نُزل عليه آية من ربه } تدل على ما ادعاه من البعث والرجوع إلى الله، وعلى أنه رسول من عند الله، { قل } لهم: { إن الله قادر على أن ينزل آية } خارقة للعوائد، يرونها عيانًا، وتضطرهم إلى الإيمان، { ولكن أكثرهم لا يعلمون } أن إنزالها وبالٌ عليهم؛ لأنهم إن عاينوها ولم يؤمنوا عُوجلوا بالعقاب، أو: لا يعلمون أن الله قادر على أكثر مما طلبوا؟.

وهذا الطلب قد تكرر منهم في مواضع من القرآن، وأجابهم الحق تعالى بأجوبة مختلفة، منها: ما يقتضي الرد عليهم في طلبهم الآيات؛ لأنهم قد أتاهم بآيات، وتحصيل الحاصل لا ينبغي، كقوله:
{ قَدْ بَيَّنَّا الأَيَاتِ }
[البَقَرَة:118 } ،
{ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ }
[العنكبوت:51]، ومنها: ما يقتضي الإعراض عنهم؛ لأن الخصم إذا تبين عناده سقطت مكالمته. ويحتمل أن يكون منه قوله هنا: { قل إن الله قادر... } الآية.

فإن قيل: كيف طلبوا آية وهم قد رأوا آيات كثيرة، كانشقاق القمر، وإخبارهم بالغيب، وغير ذلك؟ فالجواب: أنهم لم يعتدوا بما رأوا؛ لأن سر الربوبية لا يظهر إلاَّ ومعه شيء من أردية القهرية، وهم قد طلبوا آية يدركونها من غير نظر ولا تفكر، وهو خلاف الحكمة.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث وغيره، فقال: { وما من دابة } تَدِبُّ { في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه } في الواء، { إلا أمم أمثالكم }؛ مقدرة أرزاقها، محدودة آجارها، معدودة أجناسها وأصنافها، محفوظة ذواتها، معلومة أماكنها، كلها في قبضة

الحق، وتحت قدرته ومشيئته، فدل ذلك على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، فيدل على قدرته على أن ينزل آية، وعلى بعثهم وحشرهم؛ لأنه عالم بما تنقص الأرض منهم، كما قال تعالى: { ما فرطنا في الكتاب } أي: اللوح المحفوظ، { من شيء }؛ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق، لم يهمل فيه أمرَ حيوان ولا جماد، ظاهرًا ولا باطنًا، أو القرآن؛ فإنه قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً ومجملاً، حتى قال بعض السلف: (لو ضَاع لي عِقالٌ لوجتُه في كِتَابِ الله) أي: باعتبار العموم وأصول المسائل.

قال تعالى: { ثم إلى ربهم يُحشرون } أي: الأمم كلها، فيُنصف بعضها من بعض. كما رُوِي أنه يُؤخذ للجَمَّاء من القَرنَاء وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: يُحشر الخلقُ كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغُ من عَدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كُوني ترابًا، فذلك حيث يقول الكافر:
{ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا }
[النّبَأ:40]. وفي المسألة اضطراب بين العلماء، والصحيح هو حشرها، كما قال تعالى:
{ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ }
[التّكوير:5]، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (حشرها موتها). والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد تقدم مرارًا أن طلب الكرامات من الأولياء: لقلة الاعتقاد فيهم وقلة الصدق. وأكمل الكرامات: الاستقامة على التوحيد في الباطن، وتحقيق العبودية في الظاهر. وبالله التوفيق.

@{ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { والذين كذبوا بآياتنا } الدالة على كمال قدرتنا وتحقيق وحدانيتنا، أو بآياتنا المنزلة على رسولنا، هم { صمٌّ } لا يسمعون مثل هذه الآيات ـ الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظيم قدرته ـ سماعًا تتأثر به نفوسهم، { و } هم أيضًا { بُكم } لا ينطقون بالحق، وهم { في الظلمات } أي: خائضون في بحر ظلمات الكفر والجهل، وظلمة العناد، وظلمة التقليد، فوصفهم بالصمم والبَكَم والعَمى، ويؤخذ العمى من قوله: { في الظلمات } ، وهذا كله داخل تحت مشيئته وعلمه السابق؛ { من يشأ الله يُضلله } عدلاً، { ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم }؛ بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه، فيتبع الطريق الذي لا عوج فيه.

الإشارة: أولياء الله في أرضه من آيات الله، فمن كذب بهم بقي في ظلمة الجهل بالله وظلمة حجاب النفس وحجاب الأكوان، محجوبًا بمحيطاته، محصورًا في هيكل ذاته، قلبه أصم عن تَذَكُّرِ الحقائق، ولسانه أبكم عن النطق بحكم العلم والأسرار، لم تسبق له في مشيئة الحق عناية، ولا هَبَّ عليه شيءٌ من رياح الهداية، عائذًا بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء.

@{ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } * { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ }

قال في المشارق: أرأيتك: معناه: الاستخبار والاستفهام، أي: أخبرني عن كذا، وهو بفتح التاء في المذكر والمؤنث والواحد والجمع، تقول: أرأيتك وأرأيتكما وأرأيتكم، ولم تُثَنّ ما قبل علامة المخاطب ولم تَجمعَهُ، فإذا أردت معنى الرؤية ـ أي البصرية ـ ثَنيت وجمعت وأنثت، فقلت: أرأيتك قائمًا، وأرأيتُكِ قائمة، وأرأيتكما وأرأيتموكم وأرأيتيكن. هـ. وقال في الإتقان: إذا دخلت الهمزة على " رأيت " امتنع أن يكون من رؤية العين والقلب، وصار المعنى: أخبرني، وهو خلاف ما قال في المشارق، فانظره وانظر الحاشية الفاسية.

قال البيضاوي: { أرأيتكم }: استفهام تعجب، والكاف: حرف خطاب، أكد به الضمير للتأكيد، لكن لا محل له من الإعراب، لأنك تقول: أرأيتك زيدًا ما شأنه، فلو جعلت الكاف مفعولاً ـ كما قاله الكوفيون ـ لعدَّيت الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، ولزم في الآية أن يقول: أرأيتكموكم، بل الفعل معلق، أو المفعول محذوف، وتقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها إن أتاكم عذاب الله، ويدل عليه: { أغير الله تدعون }. هـ. وجواب { إنْ }: محذوف؛ أي: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة فمن تدعون؟ وجواب { إن كنتم }: محذوف أيضًا؛ أي: إنَّ كنتم صادقين في أنَّ غير الله ينفعكم فادعوه، ثم وصفهم بأنهم لا يدعون حينئذٍ إلا الله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد: { أرأيتكم } أي: أخبروني { إن أتاكم عذاب الله } في الدنيا كما أتى من قبلكم، { أو أتتكم الساعة } وأهوالها، { أغير الله تدعون } وتلتجئون إليه في كشف ما نزل بكم { إن كنتم صادقين } أن الأصنام آلهة، لا، { بل أياه تدعون } وحده، { فيكشف ما تدعون إليه } أي: ما تدعونه إلى كشفه، { إن شاء } أن يتفضل عليكم بالكشف في الدنيا، وقد لا يشاء، { وتنسون ما تشركون } أي: وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت؛ لِما ركز في العقول من أنه قادر على كشف الضر دون غيره، أو تنسون من شدة الأمر وهوله.

الإشارة: إنما يظهر توحيد الرجال عند هجوم الأحوال، فإن رجع إلى الله وحده ولم يلتفت إلى شيء سواه، علمنا أنه من الأبطال، وإن فزع إلى شيء من السَّوى، علمنا أنه من جملة الضعفاء. وعندهم من جملة أصول الطريق: الرجوع إلى الله في السراء والضراء، فإن رجع إليه أجابه فيما يريد، وفي الوقت الذي يريد، وقد لا يريد على حسب إرادة المريد. والله تعالى أعلم.

@{ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } * { فَلَوْلا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـاكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } * { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُواْ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } * { فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: تخويفًا لهذه الأمة: { ولقد أرسلنا إلى أمم } مضت { من قبلك } رسلاً فأنذروهم، فكذبوا وكفروا { فأخذناهم بالبأساء } أي: الشدة، كالقحط والجوع، { والضراء } كالأمراض والموت والفتن، تخويفًا لهم { لعلهم يتضرعون } أي: يتذللون ويتوبون من ذنوبهم، فلم يفعلوا، { فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا } أي: هلاَّ تذللوا حين جاءهم البأس فنرحمهم، وفيه دليل على نفع التضرع حين الشدائد،

{ ولكن قست قلوبهم } أي: صلُبت ولم تلن، { وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون }؛ فصرَفهم عن الضرع، أي: لا مانع لهم من التضرع إلا قساوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

{ فلما نسوا ما ذكروا به } أي: تركوا الاتعاظ بما ذُكروا به من البأساء والضراء، ولم ينزجروا، { فتحنا عليهم أبواب كل شيء } من أنواع الرزق وضروب النعم، مراوحة عليهم بين نوبَتي الضراء والسراء، وامتحانًا لهم بالشدة والرخاء، إلزامًا للحجة وازاحة للعلة، أو مكرًا بهم، لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: " مُكر بالقوم ورب الكعبة " { حتى إذا فرحوا } أي: أعجبوا { بما أوتوا } من النعم، ولم يزيدوا على البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه، { أخذناهم بغتة } أي: فجأة { فإذا هم مبسلون } مُتحيرون آيسون من كل خير، { فقطع دابر القوم الذين ظلموا } أي: قطع آخرهم، ولم يبق منهم أحد، وهي عبارة عن الاستئصال بالكلية، { والحمد لله رب العالمين } على إهلاكهم، فإن إهلاك الكفار والعصاة نعِمٌ جليلة، يحق أن يحمد عليها؛ من حيث إنه خلاص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: المقصود من إظهار النقم الظاهرة؛ ما يؤول الأمر إليه من النعم الباطنة، فإن الأشياء كامنة في أضدادها، النعمة في النقمة، والرخاء في الشدة، والعز في الذل، والجمال في الجلال، إن وقع الرجوع إلى الله والانكسار والتذلل. " أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم مِن أجلي ". فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة، تُوجب نعمًا غزيرة، فإذا قسَت القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع، كان النازل بلاءً ونقمة وطردًا وبُعدًا. فإنَّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها: ما يكون أدبًا وكفارة، ومنها: زيادة وترقية، ومنها: ما يكون عقوبة وطردًا، فإن صحبها التيقظ والتوبة، كان أدبًا مما تقدم من سوء الأدب، وإن صحبه الرضى والتسليم، ولم يقع ما يوجب الأدب، كان ترقية وزيادة، وإن غضب وسخِط كان طردًا وبُعدًا. أعاذنا الله من موارد النقم.

@{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } * { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم أيضًا: { أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم } أي: أصمَّكم وأعماكم، { وختم على قلوبكم }؛ بأن غطى عليها بما يزول به عقلكم وفهمُكم، { مَن إله غير الله يأتيكم به } أي: بذلك المأخوذ. { انظر كيف نُصرف الآيات } أي: نُكررها على جهات مختلفة، كتصريف الرياح، تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبية والتذكير بأحوال المتقدمين، { ثم هم يصدفون } أي: يعرضون عنها ولم يلتفتوا إليها، و { ثُم }: لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

و { قل } لهم أيضًا: { أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة } من غير مقدمة { أو جهرة } بتقديمها، فالبغتة: ما لم يتقدم لهم به شعور، والجهرة: ما قدمت لهم مخايلة، وقيل: بغتة بالليل، وجهرة بالنهار، { هل يُهلك } أي: ما يُهلك به هلاك سخط وتعذيب، { إلا القوم الظالمون } بالكفر والمعاصي.

الإشارة: إنما خلق الأسماع والأبصار، لسماع الوعظ والتذكار، ولنظرة التفكر والاعتبار، فمن صرفهما في ذلك فقد شكر نعمتهما، ومن صرفهما في غير ذلك فقد كفر نعمتهما، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة، وكذلك نور العقل، ما جعله الله في العبد إلا ليعرفه به، ويعرف دلائل توحيده، ويتبصرّ به في أمره. فإذا صرفه في تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته، فيوشك أيضًا أن يؤخذ منه.

وإذا أنعم الله عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله؛ فليكن على حذر من أخذ ذلك منه أيضًا، فلا يأمن مكر الله، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد الله، يُقلبها كيف شاء، فإن أخذها لن يقدر على ردها، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، والعذاب الذي يأتي بغتة، هو السلب بغتة، أي: فقد القلب في مرة واحدة، والذي يأتي جهرة هو فقده شيئًا فشيئًا، وسبب هذا الهلاك: هو ظلم العبد لنفسه، إما بسوء أدب مع الله، أو نقض عهد الشيوخ العارفين بالله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@{ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } * { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وما نرسل المرسلين إلا مبشرين } للمؤمنين بالنعيم المقيم، { ومنذرين } للكفار بالعذاب الأليم، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم، { فمن آمن } بهم، { وأصلح } ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم، { فلا خوف عليهم } من العذاب، { ولا هم يحزنون } لفوات الثواب، { والذين كفروا وكذبوا بآياتنا يمسهم العذاب } أي: يلحقهم، جعل العذاب ماسًّا لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن توصيفه. وذلك المس { بما كانوا يفسقون } أي: بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

الإشارة: ما من زمان إلا ويبعث الله أولياء عارفين، مبشرين لم أطاعهم واتبعهم بطلعة أنوار الحضرة على أسرارهم، ومنذرين لمن خالفهم بظهور ظلمة الكون على قلوبهم وانطباع الأكوان في أسرارهم، فمن آمن بهم وصحبهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بدليل قوله:
{ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }
[يُونس:62]، ومن كذب بهم وبما يظهر على أيديهم من أسرار المعارف يمسهم عذاب القطيعة، بما كانوا يفسقون، أي: بخروجهم على طاعتهم والإذعان إليهم.

@{ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد: أنا { لا أقول لكم عندي خزائن الله } فآتيكم منها بكل ما تقترحون عليَّ من المعجزات، بل خزائن مقدوراته تعالى في علم غيبه، ليس لي منها إلا ما يُظهره منها بقدرته، { ولا أعلم الغيب } حتى

أخبركم بالمغيبات، بل مفاتيح الغيب عنده، لا يعلمها إلا هو، إلا ما يُوحى إليّ منها، { ولا أقول لكم إني ملك } فأستغنى عن الطعام والشراب، أو أقدر على ما يقدر عليه الملك، إن أنا إلا بشر أوحى إليَّ أن أنذركم، فأتبع ما يوحى إليّ؛ وأبترأ من دعوى الألوهية والملكية، وأدعي النبوة التي هي من كمالات البشر.

{ قل } لهم: { هل يستوى الأعمى } الذي هو ضال جاهل، { والبصير } الذي هو مهتدٍ عالم، أو: هل يستوي مدعي المستحيل؛ كالألوهية والمَلَكية ومُدَّعي الحق، كالنبوة والرسالة، { أفلا تتفكرون } فتميزوا بين أدعاء الحق والباطل، فتهتدوا إلى اتباع الحق وتجنب الباطل.

الإشارة: ما قالته الرسل للكفار حين اقترحوا عليهم المعجزات، تقوله الأولياء لأهل الإنكار، حيث يطلبون منهم الكرامات، وتقول لهم: إن نتبع إلا ما أمرنا به ربنا وسنّه لنا رسولُنا، فمن اهتدى وتبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها.

وقال الورتجبي ـ بعد قوله ـ: { ولا أقول لكم إني مالك }: تواضع صلى الله عليه وسلم حين أقام نفسه مقام الإنسانية، بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب الله سبحانه، خضوعًا لجبروته، وخُنوعًا في أنوار ملكوته، بقوله: { ولا أقول لكم إني ملك } ، وليس لي اختيارٌ في نبوتي، { إن اتبع إلا ما يوحى إليّ }. هل يكون من هذا وصفه، بعد كونه بصيرًا بنور الله، ورأفته به، كالذي عمي عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرًا بنور القدم، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله. انتهى كلامه.

@{ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَىا رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

قلت: الضمير في { به }: يعود على { ما يوحى } وجملة { ليس }: حال من ضمير { يُحشروا }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وأنذر } أي: خوِّف بما أوحي إليك، المؤمنين المقصرين في العمل؛ { الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم } بالبعث للحساب، حال كونهم في ذلك الوقت { ليس لهم من دونه وليٌّ } ينصرهم من عذابه، { ولا شفيع } يرده عنهم بشفاعته، { لعلهم يتقون } أي: كي يصيروا بإنذارك متقين، وإنما خص الإنذار هنا بالذين يخافون؛ لأنه تقدم في الكلام ما يقتضى اليأس من إيمان غيرهم، فكأنه يقول: أنذر الخائفين؛ لأنه ينفعهم الإنذار، وأعرض عمن تقدم ذكرهم من الذين لا يسمعون ولا يعقلون، أو: أنذر من يتوقع البعث والحساب، أو يتردد فيه مؤمنًا أو كافرًا. قاله البيضاوي.

الإشارة: لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير؛ إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق، وأما من سَوّدت قلبَه الخطايا، وانطبعت في مرآته صور الأشياء، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم، والعياذ بالله.

@{ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } * { وَكَذالِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ }

قلت: { فتطردهم }: جواب النفي، و { فتكون }: جواب النهي، أي: ولا تطرد فتكون من الظالمين، فليس عليكم من حسابهم شيء فتطردهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حين طلب منه صناديدُ قريش أن يطرد عنه ضعفاء المسلمين ليجالسوه، فَهَمَّ بذلك طمعًا في إسلامهم، فنزلت: { ولا تطرد الذين يدعون ربهم } أي: يعبدونه بالذكر وغيره، أو يدعونه بالتضرع والابتهال، { بالغداة والعشي } أي: على الدوام. وخص الوقتين بالذكر؛ لشرفهما. وفي الخبر: " يا ابنَ آدمَ، اذكُرني أول النهار وآخره، أكفِكَ ما بينهما " وقيل: صلاة الصبح والعصر، وقيل: الصلاة بمكة قبل فرض الخمس.

قال البيضاوي: بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا ـ أي: على التفسير الثاني في الآية المتقدمة ـ أمره بإكرام المتقين وتقريبهم، وألاَّ يطردَهم، ترضية لقريش، رُوي أنهم قالوا: لو طَردتَ هؤلاء الأعبُدِ ـ يُعنُون فقراء المُسلِمِينَ، كعمَّار وصُهَيب وخبَّاب وبِلال وسَلمان ـ جلَسنا إليك، فقال: " ما أنا بطاردِ المؤمنين " قالوا: فأقمهُم عنا، قال: " نَعَم " [رُوي أن عمر قال له: لَو فَعَلتَ حتَّى تنظرَ إلى ما يَصِيرُونَ؟] قالوا: فاكتُب بِذَلِكَ كِتَابًا، فدَعَا بالصَّحِيفَةِ وبَعَليٍّ؛ ليَكتُبَ، فنزلت. هـ. وفي ذكر سلمان معهم نظر لتأخر إسلامه بالمدينة.

ثم وصفهم بالإخلاص فقال: { يريدون وجهه } أي: يدعونه مخلصين طالبين النظر لوجهه، وفيه تنبيه على أن الإخلاص شرط من الأعمال، ورتب النهي عليه؛ إشعارًا بأنه يقتضي إكرامهم، وينافي إبعادهم، ثم علل عدم طردهم فقال: { ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم } أي: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلأي شيء تطردهم؟ وقيل: الضمير: للكفار، أي: أنت لا تحاسب عنهم، وهم لا يحاسبون عنك، فلا تهتم بأمرهم، حتى تطرد هؤلاء من أجلهم، { فتكون من الظالمين } بطردهم، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يفعل، فلا ظلم يلحقه في ذلك؛ لسابق العناية والعصمة.

{ وكذلك فتنا بعضهم ببعض } أي: ومثل ذلك الاختبار، وهو اختلاف أحوال الناس في أمر الدنيا، { فتنا بعضهم ببعض } أي: ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين، فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش؛ بالسبق إلى الإيمان { ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا } أي: أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء، وهم المساكين والضعفاء، فنحن أحق منهم به إن كان حقًا، وهذا إنكار منهم لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير، كقولهم { لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ } [الأحقاف:11]. واللام في { ليقولوا }: للعاقبة. قال تعالى في الرد عليهم: { أليس الله بأعلم بالشاكرين } أي: بمن يقع منهم الإيمان والشكر فيوفقهم، وبمن لا يقع منه فيخذُله.
وبالله التوفيق.

الإشاره: في صحبة الفقراء خيرٌ كثير وسرٌ كبير، وخصوصًا أهل الصفاء والوفاء منهم، وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضي الله عنه:

مَا لذّةُ العَيش إلاّ صُحبَةُ الفُقَرا هُم السّلاَطين والسَّادَاتُ والأُمَرا
فَاصْحَبْهُمُو وتأدَّب في مَجَالِسِهِم وخلِّ حظَّكَ مَهمَا خلَّفُوكَ ورَا

إلى آخر كلامه.

فلا يحصل كمال التربية والتهذيب إلا بصحبتهم، ولا تصفوا المعاني إلا بمجالستهم والمذاكرة معهم، والمراد من دخل منهم بلاد المعاني، وحصَّل مقام الفناء في الذات، فالجلوس مع هؤلاء ساعة تعدل عبادة الثقلين سِنين، ومن شأن شيوخ التربية: العطف على الفقراء والمساكين وتقريبهم، ولا يطردون أحدًا منهم ولو عمل ما عمل، اقتداء بما أمر به نبيهم صلى الله عليه وسلم. بل شأنهم الإقبال على من أقبل إليهم، عصاة كانوا أو طائعين وإقبالهم على العصاة المذنبين أكثر، جبرًا لكسرهم، وتألفًا لهم، وسوقًا لهم إلى الله بملاطفة الإحسان. وبالله التوفيق.

@{ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىا نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُواءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قلت: من فتح { أنه } ، جعله بدلاً من الرحمة، ومن كسره؛ فعلى الاستئناف، و { بجهالة }: حال، ومن قرأ { فإنه } بالكسر؛ بالجملة: جواب الشرط، ومن فتح؛ فخبر عن مضمر، أي: فجزاؤه الغفران، أو مبتدأ؛ فالغفران جزاؤه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا }؛ وهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، خصهم بالإيمان بالقرآن، بعد ما وصفهم بالمواظبة على الطاعة والإحسان، فإذا أقبلوا إليك { فقل } لهم: { سلام عليكم }؛ تحية مني عليكم، أو من الله أبلغه إليكم، { كَتب ربكم على نفسه الرحمة } أي: حتمها عليه فضلاً منه، وهي { أنه من عمل منكم سوءًا } أي: ذنبًا { بجهالة } أي: بسفاهة وقلة أدب، أو جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، { ثم تاب من بعده } أي: من بعد عمل السوء { وأصلح } بالتدارك والندم على إلا يعود إليه، { فأنه غفور } لذنبه، { رحيم } به بقبول توبته.

قال البيضاوي: أمرَه أن يبدأ بالتسليم، أو يُبلغ سلام الله ويبشرهم بسعة رحمته وفضله، بعد النهي عن طردهم؛ إيذانًا بأنهم الجامعون لفضيلَتَي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقَّرب ولا يُطرَد، ويُعز ولا يُذل، ويُبشِّر من الله بالسلامة في الدنيا وبالرحمة في الآخرة، وقيل: إن قومًا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا أصبَنا ذنوبًا عِظامًا، فلم يَرُدَّ عليهم، فانصرَفوا، فنزلت. هـ.

قال القُشَيري: أحلَّه محل الأكابر والسَّادات، فإنَّ السلام من شأن الجَائِي إلاَّ في صفة الأكابر، فإنَّ الجائي والآتي يسكت لهيبة المأتِي، حتى يبتدىء ذلك المقصودُ بالسؤال، فعند ذلك يجيب الآتي. هـ.

الإشارة: مِن شأن الأكابر من الأولياء، الداعين إلى الله، إكرامُ مَن أتى إليهم بحُسن اللقاء وإظهار المَسَّرة والبُرور، وخصوصًا أهل الانكسار فيُؤنسونهم، ويُوسعون رجاءهم، ويفرحونهم بما يسمعون منهم من سعة فضل الله وكرمه.

كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه إذا دخل عليه أحد من أهل العصيان ـ كأرباب الدولة والمخزن ـ، قال إليهم، وفرح بهم، وأقبل عليهم، وإذا أتى إليه أحد من العلماء أو الناسكين لم يَعتَنِ بشأنهم، فقيل له في ذلك، فقال: أهل العصيان يأتوننا فقراء منكسرين من أجل ذنوبهم، لا يرون لأنفسهم مرتبة، فأردت أن أجبر كسرهم، وهؤلاء أهل الطاعة يأتوننا أغنياء معتمدين على طاعتهم، فلا يحتاجون إلى ما عندنا، أو كلامًا هذا معناه، ذكره في لطائف المنن. والله تعالى أعلم.

@{ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ }

قلت: قرىء بتاء الخطاب، ونصب السبيل؛ على أنه مفعول به، وقرىء بتاء التأنيث ورفع السبيل؛ على أنه فاعل مؤنث، وبالياء والرفع؛ على تذكير السبيل؛ لأنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكذلك نُفصل الآيات } أي: ومثل ذلك التفصيل الواضح نفصل الآيات، أي: نشرح آيات القرآن ونوضحها في صفة المطيعين والمجرمين، والمصرين والأوابين، ليظهر الحق، ولتستوضح يا محمد { سبيل المجرمين } فتعاملهم بما يحق لهم من الإبعاد إن بَعُدوا، أو الإقبال إن أقبلوا. أو لتتبين طريقهم ويظهر فسادها ببيان طريق الحق.

الإشارة: سبيل المؤمنين من أهل اليمين، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية؛ بامتثال الأمر واجتناب النهي، والمبادرة إلى التوبة، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرِّ لما وراء ذلك، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين: تصفية القلوب وتهيؤها لإشراق أسرار علم الغيوب؛ بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل؛ لتتهيأ بذلك لطلوع شموس العرفان، والدخول في مقام الكشف والعيان، الذي هو مقام الإحسان، وما خرج عن هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين: إما بالكفر، وإما بالإصرار على العصيان، والعياذ بالله.

@{ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ } * { قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ } * { قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد: { إني نُهيتُ } أي: نهاني ربي { أن أعبدَ الذين تدعُون } أي: تعبدون { من دون الله } ، أو ما تدعونها آلهة؛ أي: تسمونها بذلك، وتخضعون لها من دون الله، { قل } لهم: { لا أتبع أهواءكم } الفاسدة وعقائدكم الزائغة، { قد ضللتُ } عن الحق { إذًا } أي: إذا اتبعت أهواءكم، { وما أنا من المهتدين } أي: ما أنا في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم إن اتبعت أهواءكم، وفيه تعريض بهم، وأنهم ضالون حائدون عن طريق الهدى، ليسوا على شيء منها.

{ قل إني على بيّنة } أي: طريق واضحة { من ربي } تُوصلني إلى تحقيق معرفته، واستجلاب رضوانه، أنا ومن اتبعني، { و } أنتم { كذبتم به } أي: بربي؛ حيث أشركتم به وعبدتم غيره، أو كذبتم بطريقه؛ حيث أعرضتم عنها، واستعجلتم عقابه

في الدنيا، { ما عندي ما تستعجلون به } من العذاب أو المعجزات، { إن الحكم إلا لله } في تعجيل العذاب وتأخيره، أو في إظهار الآيات وعدم إظهارها، { يقَصُّ } القصص { الحق } وهو القرآن، أي: ينزله عليّ لأنذركم به، أو يقضي القضاء الحق من تعجيل ما يعجل وتأخير ما يؤخر، فيحكم بيني وبينكم إن شاء، { وهو خير الفاصلين } أي: القاضين.

{ قل لو أن عندي } أي: في قدرتي وطوقي { ما تستعجلون به } من العذاب { لقُضي الأمر بيني وبينكم } أي: لأهلكتكم عاجلاً؛ غضبًا لربي، وانقطع ما بيني وبينكم، ولكن الأمر بيد خالقكم الذي هو عالم بأحوالكم، { والله أعلم بالظالمين } أي: عالم بما ينبغي أن يؤخذ عاجلاً، وبمن ينبغي أن يمهل، فمفاتح الغيب كلها عنده، كما سيذكره.

الإشارة: قل، أيها العارف، المتوجه إلى الله، المنقطع كليته إلى مولاه، الغائب عن كل ما سواه: إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله؛ من حب الدنيا، ومن الرياسة والجاه. قل: لا أتبع أهواءكم؛ لأني قد اجتمعت أهوائي في محبوب واحد، حين وصلت إلى حضرته، وتنعمت بشهود طلعته، فانحصرت محبتي في محبوب واحد، وفي ذلك يقول القائل:

كَانَت لِقَلبيَ أهوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ فَاستَجمَعَت مُذ رأتكَ العَينُ أهوائِي
فَصَارَ يَحسُدُنِي مَن كُنتُ أحسُدُهُ وَصِرتُ مَولَى الوَرَى مُذ صِرت مَولائِي
تَرَكتُ لِلنَّاسِ دنياهم ودِينَهُم شُغلاً بِذِكرك يَا دِينِي ودُنيَائِي

وقال آخر:

تَركتُ للنَّاسِ، ما تَهوَى نُفوسُهم مِن حُبِّ دُنيا ومن عزٍّ ومن جَاهِ
كذَاكَ تَركُ المقَامَات هُذَا وَهُنَا والقَصدُ غَيبَتُنَا عَمَّا سِوَى اللهِ

{ قل إني على بينة من ربي } أي: بصيرة نافذة في مشاهدة أسرار ربي، فقد كذَّبتم بخصوصيتي، وطلبتم دلائل ولايتي، ما عندي ما تستعجلون به من الكرامات، { إن الحكم إلا لله } ، يقضي القضاء الحق، فيُظهر ما يشاء، ويُخفي مَن يشاء، { وهو خير الفاصلين } أي: الحاكمين بين عبادة، قل لو أن عندي ما تستعجلون به؛ من نفوذ دعوتي في إظهار كرامتي، لقُضي الأمر بيني وبينكم، والله أعلم بالمكذبين بأوليائه.
@{ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }

قلت: { مفَاتِح }: جمع مفتح ـ بكسر الميم ـ مقصور، من مفتاح، وهو آلة الفتح، وهو مستعار لما يتوصل به إلى الغيوب، أو يفتحها، وهو المخزن.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وعنده مفاتح الغيب } أي: علم المغيبات، لا يعلمها غيره، إلا من ارتضى من خلقه، أو: عنده خزائن علم الغيوب لا يعلمها غيره، والمراد بها الخمسة التي ذكرها الحق تعالى في سورة لقمان:
{ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ }
[لقمَان:34] الآية؛ لأنها تعم جميع الأشياء، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله، فقد اختص سبحانه بعلم المغيبات { لا يعلمها إلا هو }؛ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها

وتأخيرها من الحِكَم، فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أن الله تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، وهو أمر ضروري.

{ ويعلم ما في البر والبحر } من عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات؛ على اختلاف أجناسها وأنواعها، حيها وجامدها، فيعلم عددها وصفتها وأماكنها، { وما تسقط من ورقة إلا يعلمها } كيف تسقط، على ظهرها أو بطنها، وما يصل منها إلى الأرض وما يتعلق في الهواء، وهو مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات، كما تعلق بالكليات، { ولا حبة في ظلمات الأرض } من حبوب الثمار وبذور سائر النبات، والرمل، وغير ذلك من دقائق الأشياء وجلائلها، { ولا رطب ولا يابس } من الأشجار والنبات والحيوانات التي فيها الحياة والتي فارقتها، فهي من جنس اليابس، { إلا في كتاب مبين } أي: علم الله القديم، أو اللوح المحفوظ، فعلى الأول، يكون بدلاً من الاستثناء الأول، بدل الكل من الكل، وعلى الثاني: بدل اشتمال. وقرئت بالرفع، على العطف على محل: { من ورقة } ، أو على الابتداء، والخبر: { في كتاب مبين }.

الإشارة: مفاتح الغيب هي أسرار الذات وأنوار الصفات، أو أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، لا يعلمها إلا هو، فما دام العبد محجوبًا بوجود نفسه، محصورًا في هيكل ذاته، لا يذوق شيئًا من هذه الغيوب، فإذا أراد الحق جل جلاله أن يفتح على عبده شيئًا من هذه الغيوب، غطى وصف عبده بوصفه، ونعته بنعته، فغيَّبه عن وجود نفسه، فصار هو سمعه وبصره وقلبه وروحه، فيعلم تلك الأسرار به، لا بنفسه، فما علم تلك الأسرار غيره، ويحيط بأسرار الأشياء كلها، برها وبحرها؛ لأنه يصير خليفة الله في أرضه. وقال الورتجبي: غَيبُه ذاته القدسية، وهي خزانة أسرار الأزل والأباد، ومفاتحها: صفاتها الأزلية، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فَنَفى الغير عن البين، حيث لا حيث ولا بين. انظر تمامه فيه.

@{ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَا أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } * { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّا إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ } * { ثُمَّ رُدُّواْ إِلَا اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي يتوفاكم } أي: يقبض أرواحكم { بالليل } إذ نمتم، وفي ذلك اعتبار واستدلال على البعث الأخروي، { ويعلم ما جَرَحتم } أي: ما كسبتم من الأعمال { بالنهار } ، وخص الليل بالنوم والنهار بالكسب جريًا على المعتاد، { ثم إذا } توفاكم بالليل { يبعثكم فيه } أي: في النهار، { ليُقضى أجل مُسمى } أي: ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا، وهو أجل الموت، { ثم إليه مرجعكم } بالموت { ثم يُنبئُكم بما كنتم تعملون } فيعاتب المسيء ويكرم المحسن.

رُوِي: أن العبد إذا قُبض عَرجت الملائكة برُوحه إلى سِدرة المنتهَى، فيُوقف به هناك، فيُعاتبه الحق تعالى على ما فرط منه حتى يَرفَضَّ عرقًا، ثم يقول له: قد غفرتُ لك، اذهبوا به ليرى مقعدَه في الجنة، ثم يُردّ إلى السؤال.

{ وهو القاهر فوق عباده } بالقهر والغلبة، { ويُرسل عليكم حفظةً }؛ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه: أن العبد إذا علم أن أعماله تكتب

عليه وتُعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر له عن المعاصي، ثم لا تزال الملائكة تكتب عليه أعماله { حتى إذا جاء أحدَكُم الموتُ توفتهُ رسُلنا } أي: ملك الموت وأعوانه، { وهم لا يُفرطون } بالتواني التأخير، ولا يجازون ما حد لهم بالتقديم والتأخير. { ثم رُدّوا إلى الله } أي: إلى حُكمه وجزائه، أو مشاهدته وقربه، { مولاهم } الذي يتولى أمرهم، { الحقِّ } أي: المتحقق وجوده، وما سواه باطل، { ألا له الحُكم } يومئذٍ، لا حكم لغيره فيه، { وهو أسرع الحاسبين }؛ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة، لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن، سبحانه لا إله إلا هو.

الإشارة: وهو الذي يتوفاكم، أي: يخلصكم بليل القبض، ويعلم ما كسبتم في نهار البسط، ثم يبعثكم من ليل القبض إلى نهار البسط، وهكذا؛ ليقضى أجل مسمى للإقامة فيهما، ثم إليه مرجعكم بالخروج عنهما؛ لتكونوا لله لا شيء دونه، وفي الحكم: " بسطك كي لا يبقيك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البسط، وأخرجك عنهما، كي لا تكون لشيء دونه ".

وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقعان في الوجود؛ أي؛ في وجود النفس، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ. أي: فلا قبض ولا بسط؛ لأن العارف الواصل مقبوض في بسطه، مبسوط في قبضه، لا تؤثر فيه هواجم الأحوال؛ لأنه مالك غير مملوك. والله تعالى أعلم.

ومن علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر، (وهو القاهر فوق عباده)، وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيا من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رؤوس الأشهاد.

@{ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـاذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } * { قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل من ينجيكم } أي: يُخلصكم { من ظلمات البر والبحر } أي: من شدائدهما، استعير الظلمة للشدة، لمشاركتهما في الهول، فقيل لليوم الشديد: يوم مظلم، أو: من الخسف في البر والغرق في البحر، حال كونكم { تدعونه تضرعًا وخُفية } أي: جهرًا وسرًا، قائلين: { لئن أنجيتنا من هذه } الظلمة، أي: الشدة، { لنكونن من الشاكرين } بإقرارنا بوحدانيتك، { قل الله يُنجيكم منها ومن كل كرب } أي: غم سواها، { ثم أنتم تُشركون } أي: تعودون إلى الشرك ولا تُوفون بالعهد، وهذا شأن النفس اللئيمة؛ في وقت الشدة ترجع إلى الحق وتوحده، وفي وقت السعة تنساه وتشرك معه، كما قال تعالى:
{ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ } [الرُّوم:33].

الإشارة: ظلمات البر هو ما يخوض القلب ويظلمه؛ من أجل ما يدخل عليه من حس الظاهر، الذي هو بر الشريعة، وظلمات البحر هو ما يدهش الروح ويحيرها من أجل ما يدهمها من علم الحقائق، عند الاستشراف عليها، أو ما يشكل عليها في علم التوحيد، فإذا رجع إلى الله فيهما، وتمسك بشيخ كامل في علم الحقائق ـ أنجاه الله منهما، فإذا شكر الله وأفرد النعمة إليه دامت نجاته، وإن التفت إلى غيره خيف عليه العوُد إلى ما كان عليه. وبالله التوفيق.

@{ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىا أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } * { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } * { لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد: { هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم } ، كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل، { أو من تحت أرجُلِكُم } ، كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: من فوقكم: بتسليط أكابركم وحكامكم عليكم، ومن تحت أرجلكم: سفلتكم وعبيدكم، { أو يَلبسكم } أي: يَخلطكم { شيعًا } أي: فِرَقًا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم، { ويُذيق بعضكم بأس بعض } ، بقتال بعضكم بعضًا.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: أنه لما نزلت: { أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم } قال: " أعُوذُ بِوَجهِكَ " ، ولما نزلت: { أو من تحت أرجلكم } قال أيضًا: " أعُوذُ بِوَجهِكَ " ولما نزلت: { أو يلبسكم شيعًا } قال: " هذَا أهوَنُ " ، فقضى الله على هذه الأمة بالقتل والقتال إلى يوم القيامة، نعوذ بالله من الفتن.

قال تعالى: { انظر كيف نُصرف الآيات } أي: نُقبلها بورود الوعد والوعيد { لعلهم يفقهون } ما نزل إليهم.

{ وكذَّب به قومك } أي: بالعذاب، أو بالقرآن، { وهو الحق } أي: الواقع لا محالة، أو الصدق في أخباره وأحكامه، { قل لست عليكم بوكيل } أي: وكُل إليَّ أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم، إنما أنا منذر، والله هو الحفيظ. { لكل نبأ } أي: خبرٍ بعذاب أو إيعاد به، { مستقر } أي: وقت استقراره ووقوعه، يعرف ـ عند انقضائه ـ صدقة من كذبه، { وسوف تعلمون } ما يحل بكم عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

الإشارة: الخطاب للمريدين السائرين، أو الواصلين. خوفهم بأن يحول بينهم وبين شهود عظمته الفوقية والتحتية، فينزل عليهم عذاب الفرق من جهة العلو أو السُّفل، فلا يشهدون إلا الأكوان محيطة بهم، أو يخالف بين وجوههم ويلبسهم شيعًا، فإذا تفرقت الوجوه تفرقت القلوب غالبًا، والعياذ بالله، لأن الفتح والنصر مرتب على الجمع، قال تعالى:
{ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ }
[سَبَأ:26]. قال القشيري: فيه إشارة إلى أن الجمع مُؤذِن بالفتح. هـ. فينبغي للمريد أن يشهد الصفاء في الجميع، ويتودد إلى الجميع، حتى لا يبقى معه فرق. والله تعالى أعلم.

@{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيا آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّا يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } * { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـاكِن ذِكْرَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } * { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ }

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيا آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّا يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـاكِن ذِكْرَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا... }

قلت: { ولكن ذكرى }: مفعول بمحذوف، أي: يذكرونهم ذكرى، أو مبتدأ، أي: عليهم ذِكرَى.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا } أي: القرآن؛ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها { فأعرض عنهم } ولا تجالسهم، بل قُم عنهم { حتى يخوضوا في حديث غيره } أي: غير القرآن، { وإما يُنسينكَ الشيطانُ } النهيَ عن مجالستهم، وجلست نسيانًا، { فلا تقعد بعد الذكرى } أي: بعد أن تذكر النهي، { مع القوم الظالمين } ، ونسبة النسيان إلى الشيطان أدبًا مع الحضرة،
{ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ }
[النِّساء:78]، ووضع المظهر موضع المضمر، أي: معهم، للدلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم.

{ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء } أي: ما على المتقين الذين يجالسونهم شيء من حسابهم، بل عقابهم على الخوض خاصٌّ بهم، { ولكن } عليهم { ذِكرَى } أي: تذكيرهم ووعظهم ومنعهم من الخوض إن قدروا، وكراهية ذلك إن لم يقدروا، فيعظونهم { لعلهم يتقون } ، فَيجتَنِبُون ذلك الخوض؛ حياء أو كراهية مُساءتهم، وإنما أبيح للمؤمنين القعود مع الكفار الخائضين ومخالطتهم؛ لأن ذلك يشق عليهم، إذ لا بد لهم من مخالطتهم في طلب المعاش وفي الطواف، وغير ذلك بخلافه ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأن الله أغناه عنهم به، فنهاه عن مخالطة أهل الخوض مطلقًا.

ثم قال له: { وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا } أي: بنوا أمر دينهم على التشهِّي، وتدَّينوا بما لا يعود عليهم بنفع، عاجلاً وآجلاً، كعبادة الأصنام واتخاذ البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوا بالدخول فيه لعبًا ولهوًا، حيث سخروا به، أي: أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم. ومن جعله منسوخًا بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم، وترك التعرض لهم، { وغرتهم الحياةُ الدينا } وزخرفها، حتى نسُوا البعث وأنكروه، والعياذ بالله.

الإشارة: قد تقدم مرارًا التحذير من مخالطة أهل الخوض وصحبة العوام، وكل من ليس من جنس أهل النسبة، فإن ألجأه الحال إلى صحبتهم ـ فليُذكرهم، ويعظهم، ويُنهضهم إلى الله بمقاله أو حاله ما استطاع. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالتذكير، فقال:

{... وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ }

قلت: { تُبسل }: تُحبس وتُسلم للهلكة، وفي البخاري: " تُسبلَ: تُفضح، أُبلسوا: فُضِحُوا وأُسلموا ".
يقول الحقّ جلّ جلاله: لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: { وذكِّر } بالقرآن الناس؛ مخافة { أن تُسبل نفس بما كسبت } أي: لئلا تُحبس كل نفس وتُرتهن بما كسبت أو تُسلم للهلكة، أو لئلا تفضح على رؤوس الأشهاد بما كسبت، { ليس لها من دون الله وليّ ولا شفيع } يدفع عنها العذاب، { وإن تَعدل كل عَدلٍ } أي: وإن تفد كل فداء { لا يُؤخذ منها } أي: لا يُقبل منها.

{ أولئك الذين أُبسلوا بما كسبوا } أي: أُسلموا للعذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة، أو افتضحوا بما كسبوا { لهم شراب من حميم } وهو الماء الحار، { وعذاب أليم بما كانوا يكفرون } ، والمعنى: هم بين ماء مغَلى يتَجَرجر في بطونهم، ونار تُشعل بأبدانهم بسبب كفرهم، والعياذ بالله.

الإشارة: لا ينبغي للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء، ولا ينبغي للمريد أن يمل من التصفية والتشمير، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ، أو أظهرت له من الاستقامة ما أظهرت، قال تعالى: { وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها }.

قال أبو حفص النيسابوري رضي الله عنه: من لم يتَّهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه، كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؛ والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يقول:
{ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ } [يوسف:53]. وقال أيضًا: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي ـ أن الله ينظر إليَّ نظر السخط، وأعمالي تدل على ذلك. وقال الجنيد رضي الله عنه: لا تسكن إلى نفسك، وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك. وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: (ما رضيت عن نفسي طرفة عين). إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة منها بالتصفية التي آظهرت.

ويُحكى عن القطب بن مشيش؛ أنه لما بلغ في تلاوته هذه الآية، تواجد وأخذه حالٌ عظيم اقتطعه عن حسه، حتى كان يتمايل، فيميل الجبل معه يمينًا وشمالاً. نفعنا الله بذكرهم آمين.

فإن قلت: العارف لم تبق له نفس يتهمها؛ لفنائه في شهوده وانطوائه في وجوده؟ قلت: العارف الكامل هو الذي لا يحجبه جمعه عن فرقة، ولا فرقة عن جمعه، فإذا رجع إلى شهود فرقه، رأى نفسه عبدًا متصفًا بنقائص العبودية التي لا نهاية لها، ولذلك قالوا: للنفس من النقائص ما لله من الكمالات. فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعًا في الحضرة، متصفًا

بالكمالات التي لا نهاية لها، فيغيب عن شهود عبوديته في عظمة ربوبيته، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه؛ لكماله، وإلى هذا المعنى أشار في الحكم بقوله: لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك. وبالله التوفيق.

@{ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىا أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىا وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } * { وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيا إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } * { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ }

قلت: { ونُردُّ }: عطف على { ندعو } والهمزة للإنكار، والرد على العقب: الرجوع إلى وراء، لعلَّةٍ في المشي، واستعير للمعاني، و { كالذي استهوته }: الكاف في موضع نصب على الحال من الضمير في { نُردّ } أي: كيف نرجع مشبهين بمن استهوته الشياطين، أو نعت لمصدر محذوف، أي: ردًا كرد الذي...الخ. واستهوى: استفعل، من هَوَى في الأرض إذا ذهب، وقال الفارسي: استهوى بمعنى أهوى، مثل استزل بمعنى أزل، و { حيران }: حال من مفعول استهوى.

و { أن أقيموا }: عطف على { لنُسلم } ، أو { أمرنا }. { قوله الحق }: مبتدأ، و { يوم يقول }: خبر مقدم، أي: قوله الحق حاصل يوم يقول: { كن فيكون } ، وفاعل { يكون }: ضمير فاعل كن، أي: حين يقول للشيء: كن فيكون ذلك الشيء، و { يوم ينفخ }: ظرف لقوله: { الملك } ، كقوله:
{ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ }
[غَافر:16].

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد { أندعو من دون الله } أي: نعبد { ما لا ينفعنا ولا يضرنا } من الأصنام الجامدة، { ونُرد على أعقابنا } أي: نرجع إلى الشرك { بعد إذ هدانا الله } وأنقذنا، ورزقنا الإسلام، وهذا على الصحابة. وأما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتقدم له شرك؛ لعصمته، أي: كيف نرد على أعقابنا ردًا { كالذي استهوته الشياطين } ، أي: أضلته مَرَدَةُ الجن عن الطريق المستقيم، فذهب { في الأرض حيران }؛ متحيرًا ضالاً عن الطريق، { له أصحاب } أي: رفقة { يدعونه إلى الهدى } أي: إلى الطريق المستقيم، يقولون له: { ائتنا } وكن معنا لئلا تتلف. وهو مثال لمن ترك الإسلام وضل عنه.

{ قل } لهم: { إن هدى الله } ، وهو الإسلام، { هو الهدى } وحده، وما عداه ضلال. { و } قد { أمرنا لنسلم لرب العالمين } نكون على الجادة من الهدى، { و } أُمرنا { أن أقيموا الصلاة واتقوه }: أي: أمرنا بإقامة الصلاة والتقوى، رُوي أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت، وعلى هذا أُمِر الرسول بهذا القول؛ إجابة عن الصديق تعظيمًا لشأنه، وإظهارًا للاتحاد الذي كان بينهما. قاله البيضاوي. وقال ابن جزي: ويبُطل هذا قول عائشة: ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا برائتي. هـ. قلت: ليس بحجة؛ لصغر سنِّها وقت نزول الآية بمكة، والإسلام يمحو ما قبله. ثم قال جل جلاله: { وهو الذي إليه تحشرون } يوم القيامة؛ فيظهر من تبع الحق من الباطل.

{ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق }. أي: قائمًا بالحق والحكمة، فهو أحق بالعبادة وحده، { ويوم يقول كن فيكون قوله الحق } أي: قوله العدل حاصل يوم يقول للبعث والحشر: كن فيكون، { وله الملك يوم ينفخ في الصور } أي: انفرد الملك له يوم ينفخ في الصور فيقول: لمن الملك اليوم؟ فلا يُجاب، فيقول: لله الواحد القهار، { عالم الغيب والشهادة } أي: هو عالم بما غاب وما ظهر، { وهو الحكيم } في صنعه، { الخبير } بأمر عباده.
الإشاره: إذا توجه العبد إلى مولاه، وانقطع بكليته إلى الله، طالبًا منه معرفته ورضاه، قد يمتحن بشيء من شدائد الزمان؛ كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان، فيقال اختبارًا له: تعلق في دفع ما نزل بك بشيء من السِّوى، فيجب عليه أن يقول: { أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا } بالالفتات إلى غير ربنا، بعد إذ هدانا الله إلى توحيده ومعرفته، ونكون كالذي استهوته الشياطين في الأرض، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان، { قل إن هدى الله } أي: هدايته الخاصة، وهي الإنقطاع إليه وحده في الشدائد، { هو الهدى } ، وقد أمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا، وأمرنا إذا حزبنا شيء بإقامة الصلاة؛ لأنها مفتاح الفرج، وبالتقوى؛ لأنها سبب النصر؛ { إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا } ، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا، والاستراحة إلى الروح والريحان. وبالله التوفيق.

@{ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّيا أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }

قلت: { آزر }: عطف بيان، أو بدل من أبيه، ومنع من الصرف؛ للعلمية والعجمة. وقرأ يعقوب بالضم ـ على النداء، وقيل: إن آزر اسم صنم؛ لأنه ثبت أن اسم أبي إبراهيم تارخ. فعلى هذا يحتمل أن يكون لقب به؛ لملازمته له، وقيل: هما عَلَمَانِ له كإسرائيل ويعقوب.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } أذكر { إذ قال إبراهيم لأبيه آزر } ، حين دعاه إلى التوحيد: { أتتخذ أصنامًا آلهة } تعبدها من دون الله، وهي لا تنفع ولا تضر، { إني أراك وقومك في ظلال مبين }: بيِّن الضلالة، ظاهر الخطأ.

الإشارة: كل من سكن إلى شيء دون الله، أو مال إليه بالعشق والمحبة، فهو صنم في حقه، فإن لم ينزع عن محبته، ولم يقلع عن السكون إليه، كان حجابًا بينه وبين شهود أسرار التوحيد. وفي الحِكَم: " ما أحببت شيئًا إلا وكنت عبدًا له، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا ". وفي الحديث: " تَعِس عبدُ الدينار والدرهم " .. أي: خاب وخسر، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلاً لغيره، حجب عنه أنوار قدسه، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه:

لِي حَبِيبٌ إنما هو غَيُور، يُطلُّ في القَلبِ كَطَيرٍ حَذُور،
إذا رأى شَيئًا امتَنَع أن يَزُور

@{ وَكَذَلِكَ نُرِيا إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } * { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـاذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ } * { فَلَمَّآ رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـاذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } * { فَلَماَّ رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـاذَا رَبِّي هَـاذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ

قَالَ ياقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } * { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

قلت: المُلك: ما ظهر في عالم الشهادة من المحسوسات، والملكوت: ما غاب فيها من معاني أسرار الربوبية، والجبروت: ما لم يدخل عالم التكوين من أسرار المعاني الأزلية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكذلك } أي: مثل ذلك التبصر الذي بَصَّرنا به إبراهيم حتى اهتدى للرد على أبيه، نُريه { ملكوت السماوات والأرض } أي: نكشف له عن أسرار التوحيد فيهما، حتى يشاهد فيهما صانعهما، ولا يقف مع ظاهر حسهما، وإنما فعلنا له ذلك { ليكون من الموقنين } بمعرفتنا، عارفًا بأسرار قدسنا.

ولما كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والقمر والشمس، أراد أن يرشدهم إلى التوحيد من طريق النظر والاستدلال؛ { فلما جن عليه الليل } أي: ستره بظلامه، { رأى كوكبًا } وهو الزهرة أو المشتري، { قال هذا ربي } على سبيل التنزل إلى قول الخصم، وإن كان فاسدًا؛ فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يَكرّ عليه بالفساد؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق، وأقرب إلى رجوع الخصم، { فلما أفل } أي: غاب، { قال لا أحب الآفلين }؛ فضلاً عن عبادتهم؛ فإن التغير بالاستتار والانتقال يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

{ فلما رأى القمر بازغًا }: متبدئًا في الطلوع، { قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين }. استعجزَ نفسه واستعان ربه في دَرك الحق، وأنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه؛ إرشادًا لقومه. وتنبيهًا لهم على أن القمر أيضًا؛ لتغيُّر حاله، لا يَصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهًا، فهو ضالٌّ.

{ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي } ، إنما ذكَّر الإشارة لتذكير الخبر، وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث { هذا أكبر } لكبر النور وسطوعه أكثر، { فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون } من الأجرام المحدثة المحسوسة، المحتاجة إلى محدث يحدثها، ومخصص يخصصها.

ولما تبرأ من عبادتها توجه إلى موجدها ومبدعها، فقال: { إني وجهت وجهي للذي فطر } أي: أبدع { السماوات والأرض } حال كوني { حنيفًا } أي: مائلاً عن دينكم { وما أنا من المشركين } مثلكم. وإنما احتج بالأفول دون البزوغ، مع أنه تغير؛ لأن الأفول أظهر في الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب. ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال. وقيل: إن هذا الاستدلال والاحتجاج كان في حال طفولته قبل التكليف. فقد رُوِي أنه لما ولدته أمه في غار، خوفًا من نمرود؛ إذ كان يقتل الأطفال؛ لأن المنجمين أخبروه أن هلاكه على يد صبي يُولد في هذا العصر، فكان يستدل بما رأى على توحيد ربه، وهو في الغار، وهذا ضعيف لأن قوله: { إني بريء مما تشركون } يقتضي المحاججة والمخاصمة لقومه.

وقوله عليه السلام: { هذا ربي } مع قوله:
إِنّي سَقِيمٌ }
[الصَّافات:89]، و
{ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا }

[الأنبياء:63]، ليس بكذب؛ للعصمة، وإنما هو تورية. وفي الحديث: " ليس بكاذبٍ من كاذَب ظالمًا، أو دفع ضررًا، أو رعى حقًا، أو حفظ قلبًا " وفي رواية أخرى: " ليس بكاذب، من قال خيرًا أو نواه " وأما اعتذاره في حديث الشفاعة؛ فلهول المطلع، فيقع الحذر من أدنى شيء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لمَّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت، رأى الله في الأشياء كلها، كما ورد في بعض الأثر: (ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه). وإنما قال: { لا أحب الآفلين }؛ حذرًا من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال. وإنما تتغير الأواني دون المعاني، فشمس المعاني مشرقة على الدوام ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال، ولذلك قيل:

طَلَعت شَمسُ مَن أُحِبُ بِلَيلٍ واستنَارَت فمَا تَلاها غُرُوبُ
إنَّ شَمسَ النَّهَارِ تَغرُبُ باللَّيلِ وشَمسُ القُلوبِ ليس لهَا مَغِيبُ

أي: طلعت شمس نهارعرفانهم على ليل وجودهم، فامتحت ظلمة وجودهم في شهود محبوبهم، وفي الحِكَم: " أنا الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفَلت أنوار الظواهر، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر ".

قال الجَوزِي: لما بدا لإبراهيم نجم العلم، وطلع قمر التوحيد، وأشرقت شمس المعرفة ـ قال: { إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي... } الآية. هـ. قيل: لما نظر إبراهيم عليه السلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسي، نودي في سره: يا إبراهيم، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية؛ لأن الوجود كله عين الأحدية، فافهم معاني الأسماء، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى. فقال إبراهيم: { إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين }. هـ. وفي ذلك يقول الششتري أيضًا:

لا تنظُر إلَى الأوَاني
وَخُضِ بَحرَ المعَانِي
لَعَّـلَكَ تَـرَانِي

@{ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّوانِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ } * { وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } * { الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـائِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ }

{ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونّي فيِ اللهِ وقد هَدَآنِ... }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وحاجه قومه } أي: خاصموه في التوحيد، فقال لهم: { أتحاجُّوني في الله } أي: في وحدانيته، أو في الإيمان به، وقد هداني إلى توحيده وأرشدني إلى معرفته، فلا ألتفت إلى غيره، ولا أعبأ بمن خاصمني فيه، والأصل: تحاجونني، فحذف نافع وابن عامر نون الرفع، وأبقى نون الوقاية، وقيل: العكس، وأدغم الباقون أحدى النونين في الأخرى.

الإشارة: مخاصمة العموم لأهل الخصوصية سُنَّة ماضية؛

{ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً } [الأحزاب:62]؛ لأَنَّ من أنكر شيئًا عاداه، فأهل الخصوصية يَعذرون من أنكر عليهم؛ لأن ذلك مبلغهم من العلم، والعامة لا يعذرون أهل الخصوصية؛ لخروجهم عن بلادهم؛ فلا يعرفون ما هم فيه. والله تعالى أعلم.

ولما خاصموا إبراهيم عليه السلام فلم يلتفت إليهم، خوفوه بأصنامهم، فقال لهم:

{... وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـائِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ }

قلت: الاستثناء في قوله: { إلا أن يشاء }: منقطع. قاله ابن جزي. وظاهر كلام البيضاوي: أنه متصل، وهو المتبادر، أي: ولا أخاف ما تشركون في حال من الأحوال إلا أن يشاء ربي أن يصيبني بمكروه من جهتها؛ استدراجًا لكم، وفتنة. وقال الواحدي: لا أخاف إلا مشيئة ربي أن يعذبني.

يقول الحقّ جلّ جلاله: حاكيًا عن خليله إبراهيم: { ولا أخاف ما تُشركون به } أي: لا أخاف معبوداتكم أن تصيبني بشيء؛ لأنها جوامد لا تضر ولا تنفع، { إلا أن يشاء ربي شيئًا } يصيبني بقدَره وقضائه، فإنه يصيبني لا محالة، لا بسببها، { وَسِعَ ربي كل شيء علمًا } ، كأنه علَّة الاستثناء، أي: لا أخاف إلا ما سبق في مشيئة الله، لأنه أحاط بكل شيء علمًا، فلا يبعد أن يكون في علمه وقدره أن يحيق بي مكروه من جهتها، { أفلا تتذكرون } فتُمَيزوا بين الصحيح والفاسد، والقادر والعاجز؟.

{ وكيف أخافُ ما أشركتم } وهو جامد عاجز لا يتعلق به ضرر ولا نفع؟ { ولا تخافون أنكم أشركتم بالله } وهو أحق أن يُخاف منه كل الخوف، لأنه القادر على الانتقام ممن أشرك معه غيره، وسوَّى بينه وبين مصنوع عاجز، لا يضر ولا ينفع، فأنتم أحق بالخوف؛ لأنكم { أشركتم بالله ما لم يُنزِّل به عليكم سلطانًا } أي: لم يُنَزل بإشراكه كتابًا، ولم ينصب عليه دليلاً، { فأيُّ الفريقين أحق بالأمن }: أهل التوحيد والإيمان، أو أهل الشرك والعصيان؟ { إن كنتم تعلمون } ما يَحق أن يُخاف منه.
ثم أجاب عن الاستفهام: الحق تعالى أو خليلهُ، فقال: { الذين آمنوا ولم يلبسوا } أي: يخلطوا { إيمانهم بظلم } أي: بشرك، بل آمنوا بالله ولم يعبدوا معه غيره، { أولئك لهم الأمن } في الآخرة، { وهم مهتدون } في الدنيا. أما الطائع فأمنه ظاهر، وأما المعاصي فيؤمن من الخلود وتحريم الجنة عليه.

ولمَّا نزلت الآية أشفق منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ لأنهم فهموا عموم الظلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس ما تظنون، إنما هو ما قال لقمانُ لابنه: { يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إَنَّ الشِرْكِ لَظُلْمٌ } [لقمَان:13] " وقد كان المشركون يُقِرُّون بالصانع ويخلطون معه التصديق بربوبية الأصنام، فقد آمنوا بوجود الصانع، ولكنهم لبسوا إيمانهم بالشرك، فلا آمن لهم ولا هداية. وبهذا يرد جهالة الزمخشري في إنكاره الحديث الصحيح، ولو بقي الظلم على عمومه ـ أي: ولم يخلطوا إيمانه بمعصية ـ لصَحَّ، ويكون المراد بالأمن أمنًا خاصًا وهداية خاصة، لكن ما قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُوقف عنده.

الإشارة: العارف بالله، المتحقق بوحدانية الله، لا يسكن خوفُ الخلق في قلبه، ولا ينظر إلا إلى ما يبرُز من عند ربه، فإن وعدَه بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرعَ والالتجاء إلى ربه؛ لسعة علمه تعالى، وقد يكون ذلك متوقفًا على أسباب وشروط، أخفاها الحق تعالى إظهارًا لقهريته، ولذلك قال الخليل عليه السلام: { ولا أخاف ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا }. وقال سيدنا شعيب عليه السلام:
{ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا } [الأعراف:89]. فالعارف لا يزول اضطرارهُ، ولا يكون مع غير الله قراره، وأما الأمن من التحويل والانقلاب، فاختلف فيه؛ فقال بعضهم: يحصُل للوليِّ الأمنُ، إذا تحقق بمقام القُرب، وحصل له الفناء والبقاء، متمسكًا بقوله تعالى: { الَّذِين آمَنُوا وَلَم يَلبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمن }. وقال بعضهم: لا يحصل الأمن إلا للأنبياء ـ عليهم السلام ـ؛ للعصمة.

قال الورتجبي: مقام الأمن لا يحصل لأحد، ما دام هو بوصف الحدثَية، وكيف يكون آمنًا منه وهو في رِقِّ العبودية ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت؟ وقال تعالى:
{ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }
[الأعراف:99]. فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتّصف بصفات الحق، بدا له أوائل الأمن، لأن في صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء، لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ما داموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.
فظاهر كلامه، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء، يحصل له الأمن من الشقاء، وكذلك قال أبو المواهب: من رجع إلى البقاء أمِنَ من الشقاء. وقال في نوادر الأصول: مَن حَظُّه من أهل التقريب: الجلال والجمال، وقد أقيم في الهيبة والأنس، قد غاب عن خوف العقوبة، ولكنه يخاف التحويل والهُوِي والسقوط، لِما رُكب في نفوس بني آدم من الشهوات، فهن أبدًا يُهوِين بصاحبهن عن الله إلى الإخلاد والبُطء، وإنما يسكن خوف التحول إذا خلَص إلى الفردانية وتعلَّق بالوحدانية؛ لتلاشِي الهوى منه والشهوة؛ بكشف الغطاء، ولا يذهب خوف ذلك بالكُلِّية عنه، وإن سكن؛ لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء. وأما هُم فلم يبقَ لهم ظِلُّ الهوى، فبُشِّروا بالنجاة؛ فلَم تَغُرهم البُشرى؛ لأنهم لم يبق لهم نفوس، فتستبدّ وتجور إذا أمِنَت السقوط، ومَن بعَدَهم بَقِي لهم في نفوسهم شيء فمُنعوا البشرى، وأبهم عليهم الأمر؛ صنعًا بهم؛ ونظرًا لهم، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال. هـ. هذا هو الأصل فافهمه. هـ.

وحاصل كلامه: أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوفُ التحويل، بل يسكن خوفه فقط، ولا يُبَشَّر بالأمن إلا الأنبياء، وهو الصواب، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية، قال تعالى:
{ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ }
[الأنعَام:18]. والله تعالى أعلم.

@{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىا قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }

قلت: { على قومه }: متعلق بحجتنا، إن جُعل خبرًا عن { تلك } ، وبمحذوف، إن جعل بدلَه، أي: وتلك الحجة آتيناها إبراهيم حُجة على قومه. ومن قرأ: { درجات }: بالتنوين؛ فَمن نشاء: مفعول، و { درجات }: تمييز.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه } ، إشارة إلى ما تقدم من استدلاله على وحدانيته تعالى بأفول الكوكب والقمر والشمس، واحتجاجه بذلك على قومه، وإتيانه إياها: وإرشاده لها وتعليمه إياها، قال تعالى: { نرفع درجات من نشاء } في العلم والحكمة، أو في اليقين والمعرفة، { إن ربك حكيم } في رفعه وخفضه، { عليم } بحال من يرفعه ويخفضه، وبحال الاستعداد لذلك.

الإشارة: رفعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين. والترقي في شهود رب العالمين. وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأُنس. والله تعالى أعلم.

@{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } * { وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ } * { وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ } * { وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } * { ذالِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } * { أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـاؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ } * { أُوْلَـائِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىا لِلْعَالَمِينَ }

قلت: الضمير في { ذريته } لإبراهيم عليه السلام؛ لأن الحديث عليه، أو لنوح عليه السلام؛ لذكر لوط، وليس من ذرية إبراهيم، لكنه ابن أخيه فكأنه ابنه، و { داود }: عطف على { نوح }؛ أي: وهدينا من ذريته داود، و { من آبائهم }: في موضع نصب، عطف على { نوح }؛ أي وهدينا بعض آبائهم، والهاء في { اقتده }: للسكت، فتحذف في الوصل، ومن أثبتها راعَى فيها خط المصحف، وكأنه وصلَ بنية الوقف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ووهبنا } لإبراهيم { إسحاق } ابنه، { ويعقوب } حفيده، { كُلاًّ } منهما { هدينا } { ونوحًا } قد هديناه { من قبل } إبراهيم، وعدَّه نعمة على إبراهيم؛ من حيث إنه أبوه، وشَرفُ الوالد يتعدَّى إلى الولد، { ومن ذريته } أي: إبراهيم، { داود } بن أيشا، { وسليمان وأيوب } بن قوص بن رَازَح بن عيصُو بن إسحاق { ويوسف } بن يعقوب بن إسحاق، { وموسى وهارون } ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب. { وكذلك نجزي المحسنين } أي: نجزي المحسنين جزاء مثل ما جازينا إبراهيم؛ برفع درجاته وكثرة أولاده، وجعل النبوة فيهم.

{ وزكريا } بن آذنِ بن بَركيَا، من ذرية سليمان، { ويحيى } بن زكريا، { وعيسى } ابن مريم بنت عمران، وفيه دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت، { وإلياس } بن نُسى فنحاص بن إلعَازر بن هارون. وقيل: هو إدريس جَد نوح، وفيه بُعد. { كلٌّ من الصالحين } الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز مما لا ينبغي.

{ وإسماعيل } بن إبراهيم، قد هدينا أيضًا، وهو أكبر ولد إبراهيم، وهو ابن هاجر، { واليسع } بن أخطوب بن العجوز، وقرىء: " والليسع " بالتعريف، كأن أصله: ليسع، و " أل " فيه: زائدة، لا تفيد التعريف؛ لأنه علَم، { ويونس } بن متى، اسم أبيه، وهو من ذرية إبراهيم، خلافًا للبيضاوي. قال القرطبي: لم يبعث الله نبيًا من بعد إبراهيم إلا من صُلبه. هـ. ويونس مثلث النون كيوسف، يعني بتثليث السين. { ولوطًا } هو ابن هاران أخى إبراهيم، فهو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، فقد يُطلق على العم أب مجازًا، { وكُلاًّ فضلنا على العالمين } أي: عالَمِي زمانِهم بالنبوة والرسالة، فكل واحد فِضِّل على أهل زمانه.

{ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم } أي: فضَّلنا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم، { واجتبيناهم } أي: اخترناهم للرسالة واصطفيناهم للحضرة، { وهديناهم إلى صراط مستقيم }؛ الذي يُوصل إلى حضرة قدسنا. { ذلك هُدَى الله } أي: ذلك الدين الذي دانوا به هو هدى الله { يهدي به } أي: بسببه، { من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون } ، تحذيرًا من الشرك، وإن كانوا معصومين منه.

{ أولئك الذين آتيناهم الكتاب } أي: جنس الكتب، { والحُكم } أي: الحكمة، أو الفصل بين العباد، على ما يقتضيه الحق، { والنبوة }؛ الرسالة { فإن يكفر بها هؤلاء }: أهل مكة، { فقد وكَّلنا بها } أي: بالإيمان بها والقيام بحقوقها، { قومًا ليسوا بها بكافرين }؛ وهُم الأنبياء المذكورون، وتابعوهم، وقيل: الصحابة المهاجرون والأنصار، وهو الأظهر.
وقيل: كل مؤمن، وقيل: الفرس. والأول أرجح؛ لدلالة ما بعده عليه، وهو قوله: { أولئك الذين هَدى الله } ، الإشارة إلى الأنبياء المذكورين، { فبهداهم اقتَدِه } أي: اتبع آثارهم، والمراد بهديهم: ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافًا إلى الكل، ولا يمكن التأسِّي بهم جميعًا؛ فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبّد بشرع مَن قبله. قاله البيضاوي.

{ قل لا أسألُكم عليه } أي: التبليغ أو القرآن، { أجرًا } أي: جُعلاً من جهتكم، كحال الأنبياء قبلي؛ اقتداء بهم فيه، فهو من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه، { إن هو } أي: ما هو، أي: التبليغ أوالقرآن، { إلا ذكرى للعالمين }؛ إلا تذكرة وموعظة لهم.

الإشارة: فُضِّل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية. وفي قوله لحبيبه: { فبهداهم اقتده } فتح لباب اكتساب التفضيل، فكلَّ مَن اقتدَى بهم فيما ذُكر شُرِّف على أهل زمانه، وقد جمع في حبيبه صلى الله عليه وسلم ما افترق فيهم، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات، فكان هو سيد الأولين والآخرين، فكل من اقتدى به في أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه، وأمرُه سبحانه له بالاقتداء بهم، إنما هو في الآداب، وكان ذلك قبل أن يتَرقَّى عنهم إلى مقامه الذي خصَّه الله به. للأنبياء سيرًا وتَرَقِّيًا يليق بهم. كما للأولياء سيرٌ وتَرَقٍّ يليق بهم.

قال الورتجبي: أمَر حبيبَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبلَه في آداب الشريعة، لأن هناك منازلَ الوسائط، فإذا أوصله بالكُلِّية إليه، وكَحّل عيون أسراره بكُحل الربوبية، جعَله مستقلاً بذاته مستقيمًا بحاله، وخرج عن حَدِّ الإرادة

إلى حد المعرفة والاستقامة، وأمره بإسقاط الوسائط، حتى قال: " لَو كَانَ مُوسَى حَيًا ما وَسِعَهُ إلاَّ اتّبِاعي " ، وغير ذلك. هـ. وقال الشاذلي رضي الله عنه: أمَره بالاقتداء بهم فيما شاركوه فيه، وإن انفرد عنهم بما خُصَّ به. هـ.

@{ وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىا بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَىا نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }

يقول الحقّ جلَ جلاله: في الرد على اليهود: { وما قدروا الله حق قدره } أي: ما عَرفُوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد بالوحي وغيره، إذ لو عرفوه لَهابُوا أن يُنكروا بعثة الرسل، أو ما جَسَرُوا على هذه المقالة، أو ما عظّموه حق تعظيمه. حيث كذَّبوا رسله وأنكروا أن يكون أنزل عليهم كتابًا، إذ لو عظّموه حق تعظيمه لصدَّقوا الرسول الوارد عنه، وهو معنى قوله: { إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء } ، والقائلون هم اليهود، كفنحاص ومالك بن الصيف وغيرهما، قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فردَّ الله عليهم بما لا بدَّ لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى؛ فقال: { قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهُدًى للناس } ، فالنور للبواطن، والهداية للظواهر، { تجعلونه } أي: التوارة، { قراطيسَ } أي: تُجَزِّؤُونه أجزاء متفرقة، ما وافقَ أهواءكم أظهرتموه وكتبتموه في ورقات متفرقة، وما خالف أهواءكم كتمتموه وأخفيتموه.

رُوِي أنَّ مَالك بنَ الصَّيف قاله، لَمّا أغضَبَهُ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " أنشدُكُ الله الذي أنزَلَ التَّورَاة عَلَى مُوسَى، هَل تجِد فيها أنَّ الله يبغضَ الحَبرَ السَّمِين، فَأنتَ الحَبرُ السّمِين " ، فغَضب، وقال: ما أنزَلَ الله علَى بَشَرٍ مِن شَيء، فَرَدّ الله عَلَيهِ بِما تقَّدم. وقيل: القائلون ذلك: المشركون، وإلزامهُم بإنزال التوراة؛ لأنه كان مشهورًا عندهم يُقِرُّون به، ولذلك قالوا:
{ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهدى مِنْهُمْ }
[الأنعَام:157].

{ وعُلِّمتُم } على لسان محمد صلى الله عليه وسلم { ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم } ، زيادة على ما في التوراة وبيانًا لما التبس عليكم على آبائكم الذين كانوا أعلم منكم. ونظيرهُ:
{ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقَصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[النَّمل:76] أو: وعُلِّمتم من التوراة ما لم تكونوا تعلَّمتم أنتم ولا آباؤكم قبل إنزاله، وإن كان الخطاب لقريش؛ فالذي عُلِّموه: ما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم من القَصص والأخبار.

ثم أجاب عن استفهامه بقوله: { قُل اللهُ } أي: أنزلَه الله، أو الله أنزله. قال البيضاوي: أمره بأن يجيب عنهم؛ إشعارًا بأن الجواب بهذا مُتَعيّن لا يمكن غيرُه، وتنبيهًا على أنهم بُهتُوا بأنهم لا يقدرون على الجواب هـ. { ثم ذَرهُم في خوضهم يلعبون } في أباطيلهم. فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة، وأصلُ الخَوض في الماء، ثم أستُعير للمعاني المُشكِلة، وللقلوب المتفرقة في أودية الخواطر.

الإشارة: يُفهَم من الآية أنَّ من أقَرَّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل، فقد قَدَر الله حق قدره وعظّمه حق تعظيمه. وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله؛ وإلاَّ فتعظيم الحق حق تعظيمه، ومعرفته حق معرفته، لا يمكن انتهاؤها، ولا الوصول إلى عشر العشر منها.

قال تعالى
{ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا }
[طه:110]، وقال:
{ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ }
[عَبَسَ:23] فلو بقي العبد يترقى في المعرفة أبدًا سرمدًا، ما عرف الله حق معرفته، حتى ينتهي إلى غايتها، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه.

وقوله تعالى: { قل الله } استشهد به الصوفيةُ، في طريق الإشارة، على الانفراد والانقطاع إلى الله، وعدم الالفتات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار، والخروج عنهم إلى مقام الصفا، وهو شهود الفردانية، والعكوف في أسرار الوحدانية. قال ابن عطاء الله ـ لما تكلم على أهل الشهود ـ قال: (لأنهم لله لا لشيء دونه، { قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون }). وقد يُنكِر عليهم من لم يفهم إشارتهم، تجمدًا ووقوفًا مع الظاهر، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون. نفعنا الله بهم، آمين.

@{ وَهَـاذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىا وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىا صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهذا كتاب أنزلناه مبارك } أي: كثير البركة، حسًا ومعنًى، لكثرة فوائده وموم نفعه، أو: كثير خيره، دائم منفعته، قال القشيري: مبارك: دائم باق، لا ينسخُه كتابٌ، من قولهم: بَرك الطير على الماء. هـ. { مُصدقُ الذي بين يديه } من الكتب المتقدمة. { ولتُنذر } أنت { أُمَّ القرى } أي: مكة، { ومَنْ حولها } من المشرق والمغرب أو لينذر القرآنُ أمَّ القرى ومن حولها أي: أنزلناه للبركة والإنذار، وإنما سميت مكة أمَّ القرى؛ لأنها قبلة أهل القرى وحجهم ومجمعهم، وأعظم القرى شأنًا. وقيل: لأن الأرض دُحِيت من تحتها أو لأنها مكان أول بيت وضُع للناس.

{ والذين يؤمنون بالآخرة } هم الذين { يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون }؛ لأنَّ من مصدق بالآخرة، وخاف عاقبتها، تحرى لنفسه الصواب، وتفكر في صدق النجاة، فآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدّق بما جاء به، وحافظ على مراسم الشريعة، وأهمها: الصلاة؛ لأنها عماد الدين وعلم الإيمان، من حافظ عليها حفظ ما سواها، ومن ضيَّعها ما سواها.

الإشارة: مفتاح القلوب هو كتاب الله، وهو عُنوان السير، فمن فُتح له في فهم كتاب الله، عند سماعه والتدبر في معانيه، فهو علامة فتح قلبه، فلا يزال يزداد في حلاوة الكلام، حتى يُشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة؛ وذلك غاية السير، وابتداء الترقي في أنوار التوحيد وأسرار التفريد، التي لا نهاية لها. والله تعالى أعلم.

@{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىا عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىا إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاائِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } * { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىا مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ }

قلت: { كما خلقناكم }: بدل من { فُرَادى } ، أو حال ثانية، و { لقد تقطع بينكم }؛ من قرأ بالرفع، فهو فاعل، أي: تقطع وصلُكم، ومن قرأ بالنصب، فظرف، على إضمار الفاعل، أي: تقطع الاتصال بينكم، أو على حذف الموصول؛ لقد تقطع ما بينكم.

يقول الحقّ جلَ جلاله: { ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا } فزعم أنه يوحى إليه، كمسيلمة الكذاب والأسود العَنسي، أو: غيَّر الدين، كعَمرو بن لحي وأمثاله { أو قال أُوحي إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء } كابن أبي سَرح ومن تقدم، إلا من تاب، كابن أبي سرح. { ومَن قال سأنزل مثل ما أنزل الله } الذين قالوا:
{ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا }
[الأنفَال:31] كالنضر بن الحارث وأشباهه.

{ ولو ترى إذ الظالمون } من اليهود والكذابين والمستهزئين، حين يكونون { في غمرات الموت }: شدائده { والملائكة باسطو أيديهم } لقبض أرواحهم، أو بالضرب لوجوههم وأدبارهم، قائلين لهم: { أخرجوا أنفسكم } من أجسادكم؛ تغليظًا عليهم، { اليوم } وما بعده { تُجزون عذاب الهون } أي: الهوان، يريد العذاب المتضمن للشدة والهوان، وإضافته للهوان لتمكنه فيه. وذلك العذاب { بما كنتم تقولون على الله غير الحق } ، كادعاء النبوة كذبًا، وادعاء الولد والشريك لله، { وكنتم عن آياته تستكبرون } فلا تستمعون لها، ولا تؤمنون بها، فلو أبصرت حالهم ذلك الوقت لرأيت أمرًا فظيعًا وهولاً شنيعًا.

يقول الحق سبحانه لهم: { ولقد جئتمونا } للحساب والجزاء، { فُرادى }. متفرَّدين عن الأعوان والأوثان، أو عن الأموال والأولاد، وهذا أولى بقوله: { كما خلقناكم أول مرة } أي: على الهيئة التي وُلدتم عليها من الانفراد والتجريد حفُاة عُراة غُرلاً { وتركتم ما خولناكم } أي: تفضَّلنا به عليكم من الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة، { وراء ظهوركم } ، فلم تقدموا منه شيئًا، ولم تحملوا معكم منه نقيرًا، { وما نرى معكم شفعاءكم } أي: أصنامكم { الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء } أي: أنهم شركاء مع الله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم، { لقد تقطَّع بينكم } أي: تفرَّق وصلُكم وتشتت شملكم، { وضَلَّ } أي: غاب { عنكم ما كنتم تزعمون } أنهم شفعاؤكم، أو لا بعث ولا حساب الظهور كذبكم.

الإشارة: كل من ادعى حالاً أو مقامًا، يعلم من نفسه أنه لم يُدركه ولم يتحقق به، فالآية تَجُرُّ ذيلَها عليه. وفي قوله: { ولقد جِئتُمُونَا فرادى... } الخ، إشارة إلى أن الدخول على الله والوصول إلى حضرته، لا يكون إلا بعد قطع الطلاق والعوائق والشواغل كلها، وتحقيق التجريد ظاهرًا وباطنًا؛ إذًا لا تتحقق الفردانية إلا بهذا.

وقال الورتجبي: ولي هنا لطيفةٌ أخرى، أي: ولقد جئتمونا موحدِّين بوحدانيتي شاهدين بشهادتي، بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدَم في بدء الأمر، حين عَرَّفتُكم نفسي بقولي:
{ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى }
[الأعرَاف:172] بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه صلى الله عليه وسلم:
" كُلُّ مَولُد يُولَدُ عَلَى الفِطرَةِ " ، يعني: على فطرة الأزل بلزوم سمة العبودية بلا علة الاكتساب، عند سبق الإرادة. انتهى. قلت: وحاصل كلامه، أن مجيئهم فُرادى، كناية عن دخولهم الحضرة القدسية بعد تقديس الأرواح وتطهيرها، حتى رجعت لأهلها، كما خلقها أول مرة، أعني: مقدسة من شواهد الحس، مُطهرة من لُوثِ الإغيار، على فطرة الأزل، فشبه مجيئها الثاني بعد التطهير ببروزها الأول، حين كانت على أصل التطهير، كأنه قال: ولقد جئتمونا فرادى من الحس وشهود الغير كما خلقناكم كذلك في أول الأمر. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: { وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم } أي: من العلوم الرسمية، والطاعات البدنية والكرامات الحسية، قال شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن الفاسي العارف: كنت أعرف أربعة عشر عِلمًا، فلما علمت علم الحقيقة شرطت ذلك كله، فلم يبق لي إلا التفسير والحديث والمنطق. هـ. وقوله تعالى: { وما نرى معكم شفعاءكم } إشارة إلى أنهم دخلوا من باب الكرم لا من باب العمل. والله تعالى أعلم.

@{ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذالِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ } * { فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذالِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ }

قلت: { ومُخرج }: معطوف على { فالق } ، على المختار؛ لأنَّ { يُخرج الحي } ـ واقع موقع البيان له، و { سكنًا }: مفعول بفعل محذوف، أي: جعله سكنًا، إلا أن يريد بجاعل: الاستمرار، فحينئذٍ ينصب المفعول.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الله فالق الحب والنوى } أي: يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها، { يُخرج الحي } أي: كل ما ينمو من الحيوان والنبات؛ ليطابق ما قبله، { من الميت } مما لا ينمو كالنطف والحب. { ومُخرِج الميت من الحي } أي: ومخرج الحب والنُّطَف من الحي، { ذلكم الله } أي: ذلكم المخرج والمحيي المُميت هو الله المستحق للعبادة دون غيره، { فأنَّى تُؤفكون }؛ تُصرفون عنه إلى غيره.

{ فالق الإصباح } أي: شاقّ عَمُود النهار عن ظُلمة الليل، { وجاعل الليل سكنًا } أي: يُسكن فيه من تَعَب النهار للاستراحة، { و } جعل { الشمس والقمر حُسبانًا } أي: على أدوار مختلفة، يُعلم بها حساب الأزمنة والليل والنهار، أو حُسبانًا كحسبان الرَّحا يدور بهما الفلك دورة بين الليل والنهار، { ذلك } التسيير بالحساب المعلوم، هو { تقدير العزيز العليم } الذي قهرهما بعزته، وسيرهما على ذلك السير البديع بعلمه وحكمته.

الإشارة: إذا أحب الله عبدًا فلق حبة قلبه بعشقه ومحبته، وفلق نواة عقله بالتبصر في عجائب قدرته، فلا يزال قلبُه يميل إلى حضرته، وعقلُه يتشعشع أنواره بازدياد تفكره في عجائب عظمته، حتى تُشرق عليها شمس العرفان، فيفلق عمود فجرها عن ظلمة ليل وجود الإنسان، فيصير حيًّا بمعرفته، بعد أن كان ميتًا بجهله وغفلته، فيميته عن شهود نفسه، ثم يُحييه بشهود ذاته، يُخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحي، جاعل ليل العبودية سكنًا، وشمس العرفان وقمر الإيمان حسبانًا، تدور الفكرة بأنوارهما، كما يدور الفلك بالشمس والقمر الحِسيِّين ذلك تقدير العزيز العليم.

@{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها } أي: ببعضها { في ظلمات البر والبحر } أي: في ظلمات الليل في البر والبحر، وأضاف الظلمات إليهما؛ لملابستها بهما، أول في مشتبهات الطرق في البر والبحر، وسماها ظلمات على الاستعارة، { قد فصلنا الآيات }؛ بيناها { لقوم يعلمون } فإنهم المنتفعون بها.

الإشارة: جعل الحق ـ جل جلاله ـ نجوم العلم يهتدي السائرون بها في مشكلات أمور الشريعة وأمور الحقيقة، فلبر الشريعة علم يسير به أهلُه إلى جنته ورضوانه، ولبحر الحقيقة علم يسير به أهلها الطالبون لها إلى معرفة ذاته وصفاته، وشهودها في حال جلاله وجماله، ولله در المجذوب رضي الله عنه، حيث قال:

العلم مرايا من هند، والجهل صندوق راشي من لا قرايش يعرف الله ما هو مبني على شي

@{ وَهُوَ الَّذِيا أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ }

قلت: من قرأ (مستقر) بفتح القاف، فمصدر، أو اسم مكان ومن قرأه بالكسر، فاسم فاعل، وعلى كل ـ هو مبتدأ، حذف خبره؛ الجار والمجرور، أي: لكم مستقر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة } آدم عليه السلام { فمستقر ومستودع } أي: فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع فيهما، أو: فمنكم مُستَقِّر في الأصلاب أو في الأرض، أي: قارٌّ فيهما، ومنكم مستودَع في الأرحام أو تحت الأرض.

وقيل: الاستقرار: في الأرحام، والاستيداع: في الصلب، بدليل قوله: { وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ } [الحَجّ:5].

{ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون } أي: يفهمون دقائق أسرار القدرة، ذكر مع النجوم، { يعلمون }؛ لأن أمرها ظاهر، وذكر مع تخليق بني آدم؛ { يفقهون }؛ لأن إنشاءهم من نفس واحدة، وتصريفهم على أحوال مختلفة، دقيق يحتاج إلى زيادة تفهم وتدقيق نظر.

الإشارة: بعض الأرواح مستقرها الفناء في الذات، ومستودعها الفناء في الصفات، وهم العارفون من أهل الإحسان، وبعضها مستقرها الفناء في الصفات، ومستودعها الاستشراف على الفناء في الذات، وهم أهل الإيمان بالغيب. وقال الورتجبي: بعض الأرواح مستقرها الصفات، ومستودعها الذات، بنعت البقاء في الصفات، والفناء في الذات، لأن القَدَم مُنزه أن يحل فيه الحدث. هـ.

@{ وَهُوَ الَّذِيا أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُواْ إِلِىا ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذالِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }

قلت: الضمير في { منه }: يعود على النبات، و { خَضِرًا }: نعت لمحذوف، أي: شيئًا خضرًا، و { قِنوَانٌ }: مبتدأ، و { من النخل }: خبر، و { مِن طَلعها }: بدل، والطَّلع: أول ما يخرج من التمر في أكمامه، والقنوان: جمع قنو، وهو العنقود من التمر، و { مُشتبهًا }: حال من الزيتون والرمان، أو من كل ما تقدم من النبات، و { جنات }: عطف على { نبات كل شيء }. و { ينعِهِ } أي: نضجه وطيبه، يقال: يَنَعتِ الثمرة، إذا أدركت وطابت.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي أنزل من السماء } أي: السحاب أو جانب السماء، { ماء فأخرجنا } ، فيه الالتفات من الغيبة إلى التكلم، { به } أي: بذلك الماء، { نبات كل شيء } أي: نبت كل صنف من النبات على اختلاف أنواعه، فالماء واحد والزهر ألوان، { فأخرجنا منه } أي: من النبات، شيئًا { خَضِرًا } وهو ما يتولد من أصل النبات من الفراخ، { نُخرجُ منه } أي: من الخَضِر، { حبًّا مُتراكبًا } وهو السنبل؛ لأن حبه بعضه فوق بعض، وكذلك الرمان والذرة وشبهها، { ومن النخل من طلعها قِنوانٌ دانية } أي: ويخرج من طلع النخل عناقيد متدانية مقربة من المتناول، أو ملتفة، قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على المتداني دون العالي؛ لزيادة النعمة والتمكن من النظر فيه، دون ضده.

{ و } أخرجنا أيضًا بذلك الماء، { جناتٍ } أي: بساتين، { من أعناب } مختلفة الألوان والأصناف { و } أخرجنا به { الزيتونَ والرمانَ } على اختلاف أصنافها، { مُشتبِهًا وغير مُتشَابه } أي: من النبات والثمار ما يُشبه بعضه بعضًا، في اللون والطعم والصورة، ومنه ما لا يُشبه بعضُه بعضًا، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار القدير العليم المريد، ولذلك أمر بالنظر والاعتبار فقال: { انظروا إلى ثمره } أي: انظروا إلى ثمرة كل واحد من ذلك { إذا أثمر } ، { و } انظروا إلى { يَنعِه }؛ إذا ينع، أي: طاب ونضج، والمعنى: انظروا إلى ثمره أول ما يخرج ضعيفًا لا منفعة، فيه، ثم ينتقل من طَور إلى طور، حتى يينع ويطيب.

{ إنَّ في ذلكم لآياتٍ } دالة على وجود الحكيم ووحدانيته، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة، ونقلها من حال إلى حال، لا يكون إلا بإحداث قادر، يعلم تفاصيلها، ويُرجِّح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها، ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه، أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك فقال: { وجعلوا لله شركاء... } الخ. قاله البيضاوي.

الإشارة: مَن كحَّل عينه بإثمد التوحيد، غرق الكائنات كلها في بحر التوحيد والتفريد، فكل ما يبرز لنا من المظاهر والمطالع ففيه نور من جمال الحضرة ساطع، ولذلك قال ابن الفارض رضي الله عنه:

عَينِي لِغَيرِ جَمَالِكُمُ لا تَنظرُ وَسِوَاكُمُ فِي خَطِرِي لا يَخطُرُ

وقال الششتري رضي الله عنه:

انظُر جَمالِي شاهدًا في كلِّ إنسان
كالماءِ يَجرِي نافِذًا في أُس الإغصان
يُسقَى بِماءٍ واحِد والزَّهرُ ألوان

وقال صاحبُ العَينية:

تَجلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فَفي كُلِّ مَرئًى لِلحبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمّا تَبَدى حُسنُهُ مُتَنَوّعًا تَسَمَّى بأسمَاءٍ فَهُون مَطَالِعُ

فما برز في عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق، فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت، (كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)، ولا يعرف هذا ذوقًا إلا أهل العيان، الذين وحدوا الله في وجوده، وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه.

@{ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىا عَمَّا يَصِفُونَ } * { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّا يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } * { ذالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لااَ إِلَـاهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىا كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ }

قلت: { الجن }: مفعول أول لجعلوا، و { شركاء }: مفعول ثانٍ، وقدّم لاستعظام الإشراك، أو { شركاء }: مفعول أول، و { لله }: في موضع المفعول الثاني، و { الجن }: بدل من شركاء، وجملة { خلقهم }: حال، و { بديع }: خبر عن مضمر، أو متبدأ وجملة { أنَّى }: خبره، وهو من إضافة الصفة إلى مفعولها أي: مبدع السماوات، أو إلى فاعلها: أي: بديع سماواته، من بَدُعَ؛ إذا كان على نمط عجيب، وشكل فائق، وحُسن لائق.

يقول الحقّ جلّ جلاله: توبيخًا للمشركين: { وجعلوا لله شركاء } في عبادته، وهم { الجن } أي: الملائكة؛ لاجتنانهم أي: استتارهم، فعبدوهم واعتقدوا أنهم بنات الله، أو الجن حقيقة، وهم الشياطين؛ لأنهم أطاعوهم كما يُطاع الله تعالى، أو: عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، فقد أشركوا مع الله، و { و } الحال أن الله قد { خلقهم } أي: الجن أي: عبدوهم وهم مخلوقون، أو الضمير للمشركين، أي: عبدوا الجن، وقد عَلِمُوا أن الله قد خلقهم دون الجن لعجزه، وليس من يَخلُق كمَن لا يَخلُق.

{ وخرقوا له } أي: اختلفوا وافترَوا، أو زوَّرُوا برأيهم الفاسد له { بنين } كالنصارى في المسيح، واليهود في عُزَير، { وبنات } كقول العرب في الملائكة: إنهم بنات الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ قالوا ذلك { بغير علم } أي: بلا دليل ولا حجة، بل مجرد افتراء وكذب، { سبحانه وتعالى } أي: تنزيهًا له، وتعاظم قدره { عما يصفون } من أن له ولدًا أو شريكًا.

وكيف يكون له الولد أو الشريك، وهو { بديعُ السماوات والأرض }؟. أي: مبدعهما ومخترعهما بلا مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه، والمعنى: أنه تعالى مُبدع لقطري العالم العلوي والسفلي بلا مادة: لأنه تعالى مُنزه عن الأفعال بالمادة. والوالد عنصر الولد، ومُنفصل بانتقال مادته عنه، فكيف يمكن أن يكون له ولد؟. ولذلك قال: { أنى يكونُ له ولدٌ } أي: من أين، أو كيف يكون له ولد، { ولم تكن له صاحبة } يكون منها الولد، فإن انتفاء الصاحبة مستلزم لانتفاء الولد، ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة في العادة، وانتفاء الصاحبة مما لا ريب فيه، وكيف أيضًا يكون له ولد { و } قد { خلقَ كلَّ شيء } ، فيكف يتصور أن يكون المخلوق ولدًا لخالقه؟ { وهو بكل شيء عليم } أي: أحاط بما من شأنه أن يعلَم كائنًا ما كان، فلا تخفى عليه خافية مما كان، ومما سيكون من الذوات والصفات، ومن جملتها: ما يجو عليه تعالى وما يستحيل كالولد والشريك.

{ ذلكم } المنعوت بما ذكر من جلائل الصفات، هو { الله } المستحق للعبادة خاصة، { ربُكم } أي؛ مالك أمركم لا شريك له أصلاً، { خالقُ كل شيء } ، مما كان وسيكون، ولا تكرار مع ما قبله؛ لأن المعتبر فيما تقدم خالقيته لِمَا كان فقط، كما تقتضيه صيغة الماضي، بخلاف الوصف يصلح للجميع، وإذا تقرر أنه خالق كل شيء { فاعبدوه }؛ فإن من كان خالقًا لكل شيء، جامعًا لهذه الصفات، هو المستحق للعبادة وحده، { وهو على كل شيء وكيل } أي: هو متولي أمور جميع عباده ومخلوقاته، التي أنتم من جملتها، فَكِلُوا أمركم إليه، وتوسلوا بعبادته إلى جميع مآربكم الدنيوية والأخروية، فإنه يكفيكم أمرها بقدرته وحفظه.
الإشارة: كل من خضع لمخلوق في نيل حظ دنيوي، إنسيًا أو جنيًا، أو أطاعه في معصية الخالق، فهو مشرك به مع ربه،
{ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا }
[النساء:116]، فلذلك عمل الصوفية على مجاهدة نفوسهم في مخالفة الهوى؛ لئلا تميل بهم إلى شيء من السِّوى، وتحرروا من رق الطمع، وتوجهوا بمهمتهم إلى الحق وحده، ليتبرأوا من أنواع الشرك كلها، جليها وخفيها. حفظنا الله بما حفظهم به. آمين.

@{ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لا تدركه الأبصار } أي: لا تحيط به، ولا تناله بحقيقته، وعن ابن عباس: (لا تدركه في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة)، ومذهب الأشعرية: أن رؤية الله في الدنيا جائزة عقلاً، لأن موسى عليه السلام سألها، ولا يسأل موسى ما هو محال، وأحالته المعتزلة مُطلقًا، وتمسكوا بالآية، ولا دليل فيها؛ لأنه ليس الإدراك مطلق الرؤية، ولا النفي في الآية عامًا في الأوقات، فلعله مخصوص ببعض الحالات، ولا في الأشخاص؛ فإنه في قوة قولنا: لا كل بصر يدركه، مع أن النفي لا يوجب الامتناع. قاله البيضاوي.

ثم قال تعالى: { وهو يُدرك الأبصارَ } أي: يحيط علمه بها؛ إذ لا تخفى عليه خافية، { وهو اللطيف الخبير } فيدرك ما لا تدركه الأبصار، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكمَين السابقين على طريق اللفّ، أي: لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مقابلاً للكثيف، لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها. قاله البيضاوي وأبو السعود.

الإشارة: اعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده في مظاهره الأكوان، لكنه لحكمته وقدرته، قد تجلى بين الضدين، بين الأنوار والأسرار، بين الحس والمعنى، بين مظهر الربوبية والب العبودية، فالأنوار ما ظهر من الأواني، والأسرار ما خَفِيَ من المعاني، فالحس ما يُدرك بحاسة البصر، والمعنى ما يُدرك بالبصيرة. فالحس رداء للمعنى، فمن فتح الله بصيرته استولى نورُ بصيرته على نور بصره، فأدرك المعاني خلف رقة الأواني، فلم تحجبه الأواني عن المعاني، بل تمتحق في حقه الأواني، ولا يرى حينئذٍ إلا المعاني. لذلك قال الحلاج، لما سئل عن المعرفة، قال: (استهلاك الحس في المعنى). فإذا فَنِيَ العبد عن شهود حِسِّه بشهود معناه، غاب وجوده في وجود معبوده، فشاهد الحقَّ بالحق. فالعارفون لَمَّا فنوا عن أنفسهم، لا يقع بصرهم إلا على المعاني، فهم يشاهدون الحق عيانًا. ولذلك قال شاعرُهم:

مُذَ عَرَفت الإله لَم أرَ غَيرًا وعدَا الغَيرُ عِندَنا مَمنُوعُ

وقال في الحِكَم: " ما حَجَبَكَ عن الحَقِّ وجُودُ مَوجُودٍ مَعَه؛ إذ لا شَيءَ مَعَهَ، وَإنَّما حَجَبك تَوّهُّمُ مَوُجُودٍ مَعَهُ ".

وقوله تعالى: { لا تُدركه الأبصارُ } أي: الأبصار الحادثة، وإنما تدركه الأبصار القديمة في مقام الفناء. وقال الورتجبي: لا تدركه الأبصار، إلا بأبصار مستفادة من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان؟ ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم. هـ. أو لا تحيط به، إذ الإحاطة بكُنه الربوبية متعذرة. وعلى هذا حمل الآية في نوادر الأصول، قال: إدراك الهوية ممتنع، وإنما يقع التجلي بصفة من صفاته.

وقال ابن عبد الملك في شرح مشارق الصغاني، ناقلاً عن المشايخ: إنما يتجلى الله لأهل الجنة، ويريهم ذاته تعالى، في حجاب صفاته، لأنهم لا يطيقون أن يروا ذاته بلا حجابٍ مرَتبةٍ من مراتب الصفات.
وقال الورتجبي: التجلي لا يكون بكلية الذات، ولا بكلية الصفات، وإنما يكون على قدر الطاقات، فيستحيل أن يقال: تجلى كل الهوى لذرة واحدة، وإنما يتجلى لها على قدرها. هـ.

وتتفاوت الناس في لذَّة النظر يوم القيامة على قدر معرفتهم في الدنيا، وتدوم لهم النظرة على قدر اسغراقهم هنا، فمن كان هنا محجوبًا لا يرى إلا الحس، كان يوم القيامة كذلك، إلا في وقت مخصوص، يُغيبه الحق تعالى عن حسه، فيشاهد معاني أسرار الربوبية في مظاهر أنوار صفاته. ومن كان هنا مفتوحًا عليه في شهود المعاني، كان يوم القيامة كذلك، لا تغيب عنه مشاهدة الحق ساعة.

قال الغزالي في كتاب الأربعين: إذا ارتفع الحجاب بعد الموت انقلبت المعرفة بعينها مشاهدة.

قلت: ومعنى كلامه: أن ما عرفه به هنا من التجليات، صار بعينه هناك مشاهدة؛ لأن المعنى هناك غالب على الحس، بخلاف دار الدنيا، الحس فيها غالب، إلاَّ لمن غاب عنه واستهلكه. ثم قال: ويكون لكل واحد على قدر معرفته، ولذلك تزيد لذة أولياء الله تعالى في النظر على لذة غيرهم، ولذلك يتجلى الله تعالى لأبي بكر خاصة، ويتجلى للناس عامة.

وقال في الإحياء: ولَمَّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي على درجات متفاوتة، ثم ذكر حديث التجلي لأبي بكر المتقدم. ثم قال: فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر، ممن هو دونه، يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر، بل لا يجده، إلا عُشرَ عُشرِه، إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشره، ولما فَضَل الناسَ بسر وقر في صدره، فضل لا محالة بِتَجلَّ انفرد به.

وقال أيضًا: يتجلى الحق للعبد، تجليًا يكون انكشاف تجلَّيه، بالإضافة إلى ما علمه، كانكشاف تجلي المرئيات بالإضافة إلى ما تخيله ـ أي: إلى ما وصفه له الواصف. ثم قال: وهذه المشاهدة والتجلي هي التي تسمى رؤية، ثم قال: المعرفة الحاصلة في الدنيا هي التي تستكمل، فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف، إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح. وقال أيضًا: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنه جلاله مُحال، وكلما كثرت المعرفة وقويت؛ كثر النعيم في الآخرة، وعظم، كما أنه كلما كثر البذر وحسن؛ كثر الزرع وحسن، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا، ولا يزرع إلا في صعيد القلب، ولا حصاد إلا في الآخرة. هـ.

قال شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه: بل الرجال زرعوا اليوم وحصدوا اليوم، وفي تفسير الأقليشي لقوله:
{ اهْدِنَا الصِّرَاط المُسْتَقِيمَ }
[الفاتحة:6]: ليس لهذه الهداية ما دام العبد في الدنيا ـ نهاية، حتى إذا حصل في جوار الجبار، ونظر إلى وجهه العظيم، كان حظه من النعيم بقدر ما هداه في الدنيا لصراطه المستقيم.
وقال في نوادر الأصول: في الحديث: " إنَّ مِن أهل الجنَّة من ينظرُ إلى الله عزَّ وجَلَّ غُدوَةً وعَشيًّا " ورُوِي عن معاذ أنه قال: " صِنفٌ مِن أهلِ الجَنَّة مَن يَنظُر إلى الله عزَّ وجَلَّ، لا يُستر الربُّ عنهم ولا يحتَجِبُ " ثم قال: وذُكِر أن الرضوان آخر ما ينال أهلُ الجنة، ولا شيء أكبر منه، وكل عبد من أهل الجنة حظه من الرضوان هناك فيها على قدر جوده بنفسه على الله في الدنيا. هـ.

وقوله تعالى: { وهو اللطيف الخبير } ، قال الورتجبي: هو بلطف ذاته ممتنع عن مطالعة خلقه، مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم، وجودًا وعدمًا، أي: وإنما يُرى بنوره، لا بالحواس الخفاشية، فإنها تضعف عن مقاومة شعاعه، وتنخنس عند انكشاف سبحاته. هـ. على نقل الحاشية الفاسية. والله تعالى أعلم.

@{ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ }

قلت: البصائر: جمع بصيرة، وهي عَينُ القلب، كما أن البصر عين البدن، فالبصيرة ترى المعاني القديمة، والبصر يرى الحسيات الحادثة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قد جاءكم } أيها الناس { بصائرُ من ربكم } أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلةً من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه، { فمن أبصرَ } الحق، وآمن به، واستعمل الفكر فيه حتى عرفه، { فلنفسه } أبصر، ولها نفع، { ومن عَميَ } عنها، ولم يرفع رأسًا، وضل عن الحق، { فعليها } وباله

وضرره، ولا يتضرر بها غيره، { وما أنا عليكم بحفيظ } أرقب أعمالكم وأُجازيكم، وإنما أنا منذر، والله هو الحفيظ عليكم، يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

الإشارة: البصيرة كالبصر، أدنى شيء يقع فيها يَضُرُّ بناظرها، وهي على أقسام: منها ما تكون عمياء، والعياذ بالله، وهي التي فسد ناظرها بفساد الاعتقاد، كبصيرة الكفار ومن قاربهم، ومنها ما تكون مريضة فقط، لا تقاوم شعاع شمس التوحيد الخاص، وهي بصيرة أهل الغفلة، ومنها ما يخف مرضها فيكون لها شعاع، تدرك قرب نور الحق منها؛ وهي بصيرة المتوجهين من العباد والزهاد ونهاية الصالحين.

ومنها ما تكون قريبة البُرء والصحة، قد انفتحت، لكنها حيرى؛ لما فاجأها من النور، وهي بصيرة المريدين السائرين من أهل الفناء، ومنها ما تكون صحيحة قوية، قد تمكنت من شهود الأنوار، ورسخت في بحر الأسرار، وهي بصيرة العارفين المتمكنين في مقام البقاء، وقد أشار في الحِكَم إلى الثلاثة فقال: " شُعاعُ البصيرة يُشهدك قرب الحق منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجود الحق لا عدمك ولا وجودك، كان اللهُ ولا شيءَ معهُ، وهو الآنَ علَى ما عليه كان ".

@{ وَكَذالِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

قلت: تصريف الشيء: إجراؤه على أحوال متعاقبة وجهات مختلفة، ومنه: تصريف الرياح لهبوبه من جهات مختلفة، ولما كانت آيات القرآن تنزل على أنواع مختلفة في أوقات متعاقبة، شبهت بتصريف الرياح على أنحاء مختلفة، { وليقولوا }: متعلق بمحذوف، أي: وليقولوا: درست، صرفنا الآيات، واللام للعاقبة، وكذلك: { ولنبينه }: المتعلق واحد.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ومثل ذلك التصريف الذي صرفنا من الآيات، من قوله: { إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } [الأنعَام:95]، إلى قوله: { قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِكُمْ } [الأنعَام:104] ـ { نُصرِّف الآيات } في المستقبل لتكون عاقبة قوم الشقاء بها بتكذيبهم إياها، { وليقولوا } لك: { دارسْتَ } أهل الكتاب، وتعلمت ذلك منهم، وليس بوحي، أو { درسَت } هذه الأخبار وعفت، وأخبرت بها من إملاء غيرك عليك، كقولهم: أساطير الأولين، وليكون عاقبة قوم آخرين الاهتداء، وإليهم الإشارة بقوله: { ولنبينه لقوم يعلمون } أي: وليتضح معناه عند قوم آخرين، فيهتدوا به إلى معرفتي وتوحيدي ومحل رضواني وكرامتي، فالخطاب متحد، والأثبر مختلف على حسب السابقة.

الإشارة: ظهور الآيات على يد أهل الخصوصية ـ كالعلوم اللدنية والمواهب الربانية ـ لا يوجب لهم التصديق لجميع الخلق، فلو أمكن ذلك لكان النبي صلى الله عليه وسلم أولى به، بل لا بد من الاختلاف، فقوم قالوا: هذه العلوم... دارس فيها وتعلمها، وقوم قالوا: بل هي من عند الله لا كسب فها، قال تعالى: { وَلاَ يَزَالُون مُخْتَلِفِينَ } [هُود:118].

@{ اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لااَ إِلَـاهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } * { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { اتبع ما أُوحى إليك من ربك } بالدوام على التمسك به، والاهتداء بهديه، ودم على توحيده، { لا إله إلا هو }؛ فلا تصغ إلى من يعبد معه غيره، { وأعرض عن المشركين } ، فلا تحتفل بأقوالهم، ولا تلتفت إلى رأيهم، وهذا محكم، أو: أعرض عن عقابهم وقتالهم، وهو منسوخ بآية السيف، { ولو شاء الله ما أشركوا }: لكن سبقت مشيئته بإشراكهم، ولو أراد إيمانهم لآمنوا، وهو حجة على المعتزلة، { وما جعلناك عليهم حفيظًا }: رقيبًا، { وما أنت عليهم بوكيل } تقوم بأمرهم، وتُلجئهم إلى الإيمان؛
{ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ }
[فَاطِر:23].

الإشارة: الإعراض عن الخلق والاكتفاء بالملك الحق ركن من أركان الطريق، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع الرسول في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضا عن الله في القليل والكثير. هـ.

@{ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىا رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولا تَسُبُّوا } أصنامهم { الذين } يدعونها آلهة، ويخضعون لها { من دون الله } أي: ولا تذكروا آلهتهم بسوء، { فيَسُبوا الله عَدْوًا } أي: ظُلْمًا وتجاوزًا عن الحق إلى الباطل، { بغير علم } أي: على جهالة بالله تعالى، وبما يجب أن يذكر به من التعظيم، رُوِي أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن في آلهتهم، فقالوا: لتنتهين عن آلهتنا أو لَتَهجُونَّ إلهك، فنزلت. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنُهوا؛ لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى، واستدل المالكية بهذا على سد الذرائع. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت لمعصية راجحة وجب تركها، فإنَّ ما يُؤدي إلى الشر شر. هـ. وقال ابن العربي: وقاية العرض بترك سنة واجب في الدنيا. هـ.

قال تعالى: { كذلك زيَّنَّا لكل أمة عملهم } من الخير والشر، نحملهم على ما سبق لهم توفيقًا أو تخذيلاً، أو يكون مخصوصًا بالشر، أي: زيَّنا لكل أمة من الكفرة عملهم السوء؛ كَسَب الله تعالى وغيره من الكفر، { ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئُهم بما كانوا يعملون } من الخير فيُجازيهم عليه، أو من الشر فيعاقبهم عليه.

الإشارة: العارف الكامل لا يُنقِص شيئًا من مصنوعات الله، ولا يصغر شيئًا من مقدورات الله، بل يتأدب مع كل شيء؛ لرؤية صنعة الله في كل شيء، وكذلك المريد اللبيب، يتأدب مع كل من ظهر بالخصوصية في زمنه، كان صادقًا أو كاذبًا؛ لئلا يؤدي إلى تنقيص شيخه، حين يذكر غيره بنقص أو غض. وفي الحديث: " لَعَن الله مَن يَسُبُّ والدَيهِ " فقالُوا: وكيف يسبُّ والدَيه يا رسول الله؟ قال " يَسُبُّ أبا الرجُلِ فيسُبُّ الرجلُ أباهُ وأمه " أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

@{ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ } * { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }

قلت: { جهد }: مصدر لعامل محذوف، أي: واجتهدُّوا جهد أيمانهم، وهو حال، أي: وأقسموا جاهدين أيمانهم، ومن قرأ: { أنها }؛ بالفتح، فهو مفعول بيُشعركم، أي: وما يُدريكم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون، وقيل: { لا }: مزيدة، أي: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون إذا رأوها، وقيل: إن، هنا، بمعنى لعل. ومَن قرأ بالكسر فهو استئناف، وتم الكلام في قوله: { وما يشعركم } أي: وما يشعركم ما يكون منهم، فعلى القراءة بالكسر، يُوقف على: { ما يشعركم } ، وأما على القراءة بالفتح، فإن كانت أنَّ ـ مصدرية لم يوقف عليه؛ لأنه عامل فيها، وإن كانت بمعنى: لعل، فأجاز بعض الناس الوقف، ومنعه بعضهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وأقسموا } أي: المشركون، { بالله } واجتهدوا في أيمانهم، { لئن جاءتهم آية } ظاهرة يشهدونها، { ليُؤمنن بها } وبمن جاء بها، { قل } لهم: { إنما الآيات عند الله } وفي قدرته وإرادته، يُظهرها حيث شاء، وليس في قدرتي منها شيء، { وما يُشعركم } أي: وما يُدريكم أيها المؤمنون، { أنها إذا جاءت لا يؤمنون } بها، لما سبق لهم من الشقاء، وقد كان المؤمنون يتمنَّون إنزالها طمعًا في إيمانهم، وفي تنبيه على أنه تعالى إنما لم ينزلها؛ لعلمه بأنها { إذا جاءت لا يؤمنون } بها. وقيل: الخطاب للمشركين، ويتأتى هذا على كسر " إن " ، أو على قراءة ابن عامر وحمزة: { لا تؤمنون }؛ بتاء الخطاب، وقرىء: { وما يُشعركم } بالغيبة، فيكون إنكارًا لهم على حلفهم.

ثم ذكر سبب عدم إيمانهم فقال: { ونُقلب أفئدتهم وأبصارهم } عند نزول الآية، أي: نصرف قلوبهم ونحولها عن الحق، فلا يفقهون بها، ونقلب أبصارهم عن النظر والتفكر، فلا يُبصرون بها الحق، فيصرون عن الإيمان بما أنزل إليك { كما لم يؤمنوا به } أي: بما أنزل من الآيات، { أول مرة ونذرهم في طغيانهم } أي: في كفرهم وجحدهم { يعمهون } أي: يتحيرون، فلا نهديهم هداية المؤمنين.

الإشارة: سألني بعض العوام، فقال لي: ليس لكم ولا لأصحابكم كرامات تظهر فيمن آذاكم، فقد كان أصحاب سيدي فلان وفلان يُظهرون الكرامات، وينفذون في من آذاهم؟ فقلت له: نحن على دم نبينا صلى الله عليه وسلم، أرسله الله رحمة للعالمين، فقد أُوذي وضُرِب، فلما خيَّره ملكُ الجبال في أن يُطبق عليهم الأخشَبين ـ أي الجَبلَين ـ قال: " لا، لعل الله تعالى يُخرج منهم مَن يعبُد الله " وقال حين أكثروا إيذاءه: " اللهُمَّ اغفِر لِقَومي فإنَّهُم لا يَعلَمُون " فالأولياء المحققون: رحمة للعباد، يتحملون أذاهم، ويتوجهون لمن آذاهم في الدعاء له بالهداية والتوفيق، فهم قوم لا يشقَى جليسهم، جالَسَهم بالإنكار أو بالإقرار، وقد ظهرت الكرامات على بعض الأولياء ولم ينقطع عنهم الإنكار، فإنَّ الإيمان أو التصديق بالنبي أو الولي إنما هو محض هداية من الكبير العلي.

@{ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلاائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىا وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواا إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ }

قلت: { قبلاً }: بكسر القاف؛ معاينة، وبضمتين: جمع قبيل، أي: ضمناء، وهو حال.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في الرد على المشركين، حين أقسموا: لئن رأوا آية ليؤمنن بها، فقال تعالى: { ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة } تشهد لك بالنبوة كما اقترحوا، { وكلمهم الموتى } كما طلبوا بقولهم:
{ فَأْتُواْ بِآبَآئِنَآ }
[الدخان:36]، وقالوا: إنَّ قُصيًّا كان شيخ صِدق، فابعثه لنا يكلمنا ويشهد لك بما تدعي.

{ و } لو { حشرنا عليهم } أي: جمعنا عليهم، { كل شيء } من الحيوانات والجمادات، معاينة، أو ضمناء، تشهد لك بالرسالة والنبوة، { ما كانوا ليؤمنوا } بك في حال من الأحوال، { إلا أن يشاء الله } إيمانهم فيمن لم يسبق له الشقاء، { ولكن أكثرهم يجهلون } أنهم لو أُوتوا بكل آية لم يؤمنوا، فكيف يقسمون بالله جَهدَ أيمانهم على ما لا يعلمون؟، فالجهل بهذا المعنى حاصل لأكثرهم، ومطلق الجهل حاصل لجميعهم، أو: ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون، فيتمنون نزول الآية طمعًا في إيمانهم. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الآية تسكين لقلوب الأولياء الداعين إلى الله، حين يرون الخلق قد حادوا عن باب الله، وتعلقت هممهم بالدنيا الدنية، وتشتتت قلوبهم، وضاعت عليهم أعمارهم، فيتأسفون عليها، فإذا تفكروا في هذه الآية وأمثالها سكنوا وردوا أمر عباد الله إلى مشيئته وإرادته، فلو شاء الله لهدى الناس جميعًا، ولا يزالون مختلفين: { ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله }. وبالله التوفيق.

@{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىا بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } * { وَلِتَصْغَىا إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ }

قلت: { شياطين }: بدل من { عدو }؛ إذ هو بمعنى الجمع، أو مفعول أول لجعلنا، و { عدوًا }: مفعول ثان، والضمير في { فعلوه }: للوحي، أو للعداوة، و { غرورًا }: مفعول له، أو مصدر في موضع الحال { لتصغى }: عطف على غرورًا، أو متعلق بمحذوف، أي: فعلنا ذلك لتصغى...الخ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في تسلية نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وكما جعلنا لك أعداء من الكفار، { جعلنا لكل نبيٍّ عدُوًّا } من شياطين { الإنس والجن } أي: من مردة الفريقين، وشياطين الإنس أقبح؛ لأنه يأتي في صورة ناصح، لا يدفع بتعوذ ولا غيره. { يُوحِي } أي: يُوسوس، { بعضهم إلى بعض } ، فيوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، ثم يوسوس شياطين الإنس إلى من يريد الحق اختباره وابتلاءه، يُلقى إليه ذلك الشيطان { زخرف القول } أي: أباطيله، أي: قولاً مزخرفًا مُزَوَّقًا { غرورًا } أي: لأجل الغرور، فإن أراد الله خذلان ذلك العبد غره ذلك الشيطان بزخرف ذلك القول فيتبعه، وإن أراد توفيقه وزيادته أيده وعصمه، وكل شيء يقدره وقضائه، { ولو شاء ربك } هدايتهم ما فعلوا ذلك الوحي، أو ما ذكر من المعاداة للأنبياء، { فذرهم وما يفترون } على الله من الكفر وغيره، فلا تهتم بشأنهم.

وإنما فعلنا ذلك الإيحاء { لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة } فيغتروا به، { وليَرضَوهُ } لأنفسهم، { وليقترفوا ما هم مقترفون } أي: وليكتسبوا من الإثم والكفر ما هم مكتسبون بسبب ذلك الوحي من الجن أو الأنس، وفي الآية دليل لأهل السنة في أن الله خالق الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، فالمعصية خلقها وقدرها، ولم يَرضهَا،
{ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ } [الأنبيَاء:23].

الإشارة: كما جعل الله لكل نبي عدوًا من شياطين الإنس والجن؛ جعل للأولياء كذلك؛ تحويشًا لهم إليه، وتطهيرًا لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته، قال في الحِكَم: " إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكنًا إليهم، أراد أن يُزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء ". وقال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله حكمهم في بدايتهم أن يُسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، كي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رزق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: " من أسدى إليكم نعمًا فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له " كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسانٌ فضقت به ذرعًا، فرأيتُ يُقال لي: مِن علامة الصديقية كثرةُ أعدائها ثم لا يبالي بهم. وقال بعضهم: الصيحة من العدو، سَوطٌ من الله يزجرُ بها القلوب إذا ساكنت غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم.
وقال شيخ شيوخنا سيدي على الجمل رضي الله عنه: (عداوة العدو حقًا: اشتغالك بمحبة الحبيب حقًا، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك، وفاتتك محبة الحبيب). وقال بعض أشياخ الشعراني في بعض وصاياه له: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يرده عنك؛ فإنه هو الذي حركه عليك؛ ليختبر دعواك في الصدق، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، فاشتغلوا بأذى من آذاهم، فدام الآذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم وكفاهم أمرهم. هـ.

وهذا كله إنما يكون في البدايات، كما قال الشاذلي رضي الله عنه: (اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا).. فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم، حكَّمهم في العباد، وأذلهم لهم، فيكون العبد المجتبى سيفًا من سيوف الله، ينتصر الله به لنفسه؛ كما نبه على ذلك في لطائف المنن. وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام؛ تشريعًا لما ذكرنا، وتحذيرًا من الانتصار للنفس، وعدم تمحض النصرة للحق. وعند الرسوخ في اليقين، والأمن من مزاحمة الصدق غيره، وقع الإذن في الجهاد، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكامل من أول نشأته، وإنما ذلك تشريع لغيره، وترفيع لرتبته. والله تعالى أعلم.

@{ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِيا أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } * { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

قلت: { غير }: مفعول، و { حَكَمًا }: حال، وهو أبلغ من حاكم، ولذلك لا يوصف به غير العادل، و { صدقًا وعدلاً }: تمييز، أو حال، أو مفعول به.

يقول الحقّ جلّ جلاله: قل يا محمد: { أفغير الله } أطلبُ { حَكَمًا } يحكم بيني وبينكم، ويفصل المحق منَّا من المبطل، { وهو الذي أنزل إليكم الكتاب } أي: القرآن المعجز، { مُفصَّلاً }؛ مُبينًا قد بيّن فيه الحق من الباطل، بحيث انتفى به الالتباس، فهو الحاكم بيني وبينكم، فلا أطلب حاكمًا غيره، وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه مُغنٍ عن سائر الآيات. { والذين آتيناهم الكتاب } كأحبار اليهود، { يعلمون أنه منزل من ربك بالحق }؛ لتصديقه ما عندهم، وموافقته له في كثير من الأحبار، { فلا تكونن من الممترين } في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل من ربك، والمراد غيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ ممن يطرقه ارتياب، والمعنى: أن الأدلة تعاضدت على صحته، فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

{ وتمت كلمة ربك }؛ آيات القرآن، بلغت الغاية في التمام والكمال، { صدقًا وعدلاً } أي: من جهة الصدق والعدل، صدقًا في الأخبار والمواعيد، وعدلاً في الأقضية والأحكام، فلا أصدَق منها فيما أخبرت، ولا أعدل منها فيما حكمت، { لا مبدل لكلماته } أي: لا أحد يقدر أن يبدل منها شيئًا بما هو أصدق وأعدل، ولا أن يحرف شيئًا منها، كما فُعل بالتوراة، فهو ضمان من الحق لحفظ القرآن، كما قال: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحِجر:9] أو: لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها، { وهو السميع } لكل ما يقال، { العليم } بكل ما يضمر، فمن ألحد أو بدل فالله عليم به.

الإشارة: من قواعد أهل التصوف: الرجوع إلى الله في كل شيء، والاعتماد عليه في كل نازل، والتحاكم إلى الله في كل أمر، إن توقفوا في حكم رجعوا إلى كتاب الله، فإن لم يجدوه نصًا، رجعوا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجدوه، استفتوا قلوبهم، وفي الحديث عنه: " استَفت قلبَكَ وإن أفتَاكَ المُفتُونَ وأفتوك " وفي بعض الآثار قالوا: يا رسول الله؛ أرأيت إن اختلفنا بعدك، ولم نجد نصًا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال: " ردوه إلى صلحائكم، واجعلوه شُورَى بينهم ولا تَتَعَدّوا رأيهم " أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

@{ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } * { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }

قلت: { من يضل }: موصولة، أو موصوفة في محل نصب بفعل دل عليه { أعلم } ، أي: يعلم من يضل، فإن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به إجماعًا. أو مبتدأ، والخبر: { يضل } على أن { من } استفهامية، والجملة: معلق عنها الفعل المقدر، كقوله تعالى:
{ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى } [الكهف:12].

يقول الحقّ جلّ جلاله: لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولمن كان على قدمه: { وإن تُطع أكثر من في الأرض }؛ من الكفار أو الجهال أو من اتبع هواه

{ يضلوك عن } طريق { الله } ، الموصلة إلى معرفته، وحلول رضوانه، فإن الضال لا يأمر إلا بما هو فيه، مقالاً أو حالاً. والمراد بهم: من لا يقين عندهم، بل { إن يتبعون إلاَّ الظن } ، وهو ما استحسنته عقولهم، إما تقليدًا، كظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو ما ابتدعوه برأيهم الفاسد من العقائد الزائفة والآراء الفاسدة، { وإن هم إلا يخرصون } أي: يكذبون على الله فيما ينسبون إليه؛ كاتخاذ الولد، وجعل عبادة الأوثان وصُلة إلى الله، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدّرون في عقولهم أنهم على شيء، وكل ذلك عن تخمين وظن لا يقين فيه، ثم قال لنبيه: { إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين } أي: هو عالم بالفريقين، لا يخفى عليه أهل الحق من أهل الباطل.

الإشارة: مخالطة العموم والركون إليهم والمعاملة معهم سموم قاتلة، قال بعض الصوفية: قلت لبعض الأبدال: كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق؟ قال: لا تنظر إلى الخلق، فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بد لي، قال: لا تسمع كلامهم؛ فإن كلامهم قسوة، قلت: لا بُد لي، قال: فلا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة، قلت: أنا بين آظهرهم، لا بد لي من معاملتهم، قال: لا تسكن إليهم؛ فإن السكون إليهم هلكة، قلت: هذا لعله يكون، قال: يا هذا، تنظر إلى اللاعبين، وتسمع إلى كلام الجاهلين، وتعامل البطَّالين، وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة المعاملة في قلبك مع الله عز وجل!! هيهات، هذا لا يكون أبدًا. هـ.

وفي الخبر المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أخوَفُ ما أخافُ على أُمَّتِي ضَعفُ اليَقِين " وإنما يكون برؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة، وتربية اليقين وصحته إنما تُكتسب بصحبة أهل اليقين واستماع كلامهم، والتودد إليهم وخدمتهم، وفي بعض الأخبار: (تعلموا اليقينَ بمجالسةِ أهل اليقين)، وفي رواية: " فَإنَّي أتعلَّمُه " ، والحاصل: أن الخير كله في صحبة العارفين الراسخين في عين اليقين. أو حق اليقين، وما عداهم يجب اعتزالهم، كيفما كانوا، إلا بقصد الوعظ والتذكير، ثم يغيب عنهم، وإلى هذا أشار ابن الفارض رضي الله عنه بقوله:

تَمَسّك بأذيالِ الهَوَى واخلعَ الحَيَا وخَلّ سَبِيلَ النَّاسِكينَ وإن جَلُّوا

وبالله التوفيق.

@{ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } * { وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } * { وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ } * { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىا أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فكلوا مما ذُكر اسم الله عليه } عند ذبحه، ولا تتورعوا منه، { إن كنتم بآياته مؤمنين }، فإن الإيمان يقتضي استباحة ما أحل الله تعالى، واجتناب ما حرمه، { وما لكم ألاَّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه } أي: ما يمنعكم منه، وأيّ غرض لكم في التحرُّج عن أكله؟. { وقد فصَّل لكم } في الكتاب، أو فصَّل الله لكم { ما حرم عليكم } مما لم يحرم بقوله:

{ حُرِمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ... }

[المَائدة:3] الآية { إلا ما اضطررتم إليه } مما حرم عليكم؛ فإنه حلال حال الضرورة.

{ وإنَّ كثيرًا ليُضلون } بتحليل الحرام وتحريم الحلال { بأهوائهم } أي: بمجرد أهوائهم { بغير علم } ولا دليل، بل بتشهي أنفسهم، { إن ربك هو أعلم بالمعتدين } المجاوزين الحق إلى الباطل، والحلال إلى الحرام، { وذَرُوا } أي: اتركوا { ظاهرَ الإثم وباطنه } أي: سره وعلانيته، أو ما يتعلق بالجوارح والقلب، { إن الذين يكسبون الإثم } سرًا أو علانية، { سيُجزون بما كانوا يقترفون }؛ يكتسبون.

ولما أمرهم بأكل الحلال نهاهم عن الحرام، فقال: { ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه } ، بأن ترك التسمية عليه عمدًا لا سهوًا؛ كما هو مذهب مالك وأبي حنيفة. وقال الشافعي: تؤكل مطلقًا، لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: " ذَبِيحَةُ المُسلِم حَلالٌ وإن لَم يُذكَر اسمُ اللهِ عَلَيهِ " ، وقال أحمد وداود: لا تؤكل إن تركت مطلقًا، عمدًا أو سهوًا.

وقال ابن جزي: إنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها مما ذُبح للنُصب، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك. وقال عطاء: هذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب. هـ.

{ وإنه } أي: الأكل مما لم يُذكر اسم الله عليه { لفسق } أو: وإنه ـ أي: عدم ذكر اسم الله على الذبيحة، لفسق ومن تزيين الشياطين، { إن الشياطين ليُوحون }؛ ليوسوسون { إلى أوليائهم } من الكفار { ليُجادلوكم } بقولهم: إنكم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله. وهذا يؤيد أن المراد بما لم يذكر اسم الله عليه هو الميتة، { وإنْ أطعتموهم } في استحلال ما حرمتُ عليكم، { إنكم لمشركون } مثلهم، لأن مَن أحلّ ما حرّم الله فقد كفر، والجواب عن شبهتهم: أن الذكاة تطهير لخبث الميتة، مع ضرب من التعبّد.

الإشارة: ليس المراد من التسمية على الطعام أو غيره مجرد اللفظ، وإنما المراد حضور المسمى، وهو شهود المنعم في تلك النعمة؛ لأن الوقت الذي يغلب فيه حظ النفس، ينبغي للذاكر المتيقظ أن يغلب فيه جانب الحق، فيكون تناوله لتلك النعمة بالله من الله إلى الله، وهذا هو المقصود من الأمر بذكر اسم الله، لأن الاسم عين المسمى في التحقيق، فإن كان الأكل أو غيره مما شرعت التسمية في أوله، على هذا التيقظ، فهو طائع لله وعابد له في أكله وشربه، وسائر أحواله، وإن كان غافلاً عن هذا، فأكله فسق، قال تعالى: { وَلا تَأكُلُوا مِمَّا لَم يُذكَرِ اسمُ اللهِ عَلَيهِ وَإِنَّهُ لَفسقٌ } ، سبب ذلك: غلبة الغفلة.
والغفلة من وحي الشيطان، { وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم }. أو: ولا تنظروا إلى الأشياء بعين الفرق والغفلة، بل اذكروا اسم الله عليها وكلوها بفكرتكم { ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله } عليه من الأشياء؛ فإنه غفلة وفسق في الشهود، وقوله تعالى: { وَذَرُوا ظاهِرَ الإثمِ }؛ هو ما ظهر على الجوارح من الذنوب، وقوله: { وباطنه }؛ هو ما كمن في السرائر من العيوب. والله تعالى أعلم.
@{ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

قلت: { كَمَنَ }: موصولة، و { مَّثَلُه }: مبتدأ، و { في الظلمات }: خبره، وقيل: مثل ـ هنا ـ زائدة، أي: كمن هو في الظلمات، و { ليس بخارج }: حال من الضمير في الخبر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { أو من كان ميتًا } بالكفر والجهل { فأحييناه } بالإيمان والعلم، { وجعلنا له نورًا } في قلبه أي: نور الإيمان والعلم، { يمشي به في الناس } ، فيذكرهم بالله، ويدلهم على الله، { كمن مثله } غريق { في الظلمات } في ظلمة الكفر والجهل والتقليد والذنوب، { ليس بخارج منها } أي: لا يفارق ضلالته بحال. { كذلك } أي: كما زُين الإيمان لهؤلاء { زُين للكافرين ما كانوا يعملون }.

قال البيضاوي: مَثل به من هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال، وجعل له نورَ الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ثم قال: والآية نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: في عمّار وعُمر وأبي جهل. هـ. ولفظها أعم، وفي الآية من أنواع البيان: الطباق؛ في قوله: { ميتًا فأحييناه }.

الإشارة: الروح تكون أولاً على الفطرة التي فطرها الله عليها، من العلم والإقرار بالربوبية، فإذا بلغت قد تطرأ عليها موتات، ثم تحيا من كل واحدة على حسب المشيئة، فقد تموت بالكفر، ثم تحيا بالإيمان، وقد تموت بالذنوب والجرائم، ثم تحيا بالتوبة، وقد تموت بالحظوظ والشهوات، ثم تحيا بالزهد والورع والرياضة، وقد تموت بالغفلة والبطالة ثم تحيا باليقظة والإنابة، وقد تموت برؤية الحس وسجن الأكوان والهيكل، ثم تحيا برؤية المعاني وخروج الفكرة إلى فضاء الشهود والعيان، ثم لا موت بعد هذا إلى أبد الأبد. والله تعالى أعلم.

@{ وَكَذالِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }

قلت: { جعلنا } بمعنى صيَّرنا، يتعدى إلى مفعولين، و { مجرميها }: مفعول أول، مؤخر، و { أكابر }: مفعول ثان، وفيه ضعف من جهة الصناعة؛ لأن أكابر جمع أكبر، وهو من أفعل التفضيل، فلا يستعمل إلا بالإضافة، أو مقرونًا بمن. قاله ابن جزي.

قلت: ويُجاب بأنه لم يقصد به المفاضلة، وإنما المراد مطلق الوصف، أي: جعلناهم كبراء، فلا يلزم إفراده ولا اقترانه بمن. فتأمله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وكذلك } أي: كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها، ليمكروا فيها بأهلها، { جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها } أي: مجرميها أكابر، { ليمكروا فيها } بمن فيها، فيمكروا بالناس فيتبعوهم على ذلك المكر، لأنهم أكابر تصعب مخالفتهم، فيحملونهم على الكفر والعصيان، ويخذلونهم عن الإسلام والإيمان، { وما يمكرون إلا بأنفسهم }؛ لأن وبال مكرهم راجح إليهم، { وما يشعرون } بذلك.

الاشارة: إذا أراد الله بقوم خيرًا جعل الخير في أكابرهم: فيجعل أُمراءهم عُدولاً حُلَماء، وعلماءهم زهَّادًا أعفَّاءً، وأغنياءهم رحماء أسخياء، وصُلحاءهم قانعين أغنياء، وإذا أراد بهم شرًا جعل الشر في كبرائهم، فيجعل أمراءهم فجارًا يحكمون بالهوى، وعلماءهم حراصًا جامعين للدنيا، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم، وصلحاءهم طماعين

في الناس، منتظرين لما في أيديهم، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا، ويفسد إذا فسدوا، وفي ذلك يقول ابن المبارك رحمه الله:

وَهَل أفسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ وأحبارُ سُوءٍ وَرُهبَانُها

وقد تقدم تمامه في تفسير سورة البقرة. وبالله التوفيق.

@{ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ }

قلت: { حيث }: مفعول بفعل مقدر، لا بأعلم؛ لأن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، أي: يعلم حيث يجعل رسالته، أي: يعلم المكان الذي يصلح للرسالة، إلا إن أوِّلَ أفعل بما لا تفضيل فيه، فينتصب المفعول به، ويحتمل أن يكون هذا منه، قال أبو حيان: ويحتمل أن تكون حيث على بابها من الظرفية المجازية، ويُضَمَّنُ أعلم معنى يتعدى إلى الظرف، والتقدير: الله أنفذ علمًا حيث يجعل رسالته. انظر المحشي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإذا جاءتهم } أي: هؤلاء المجرمين الأكابر، { آية } نزلت على نبي، { قالوا لن نؤمن } بها { حتى نُؤتى } من النبوة { مثل ما أوتي رسلُ الله } ، فنكون أنبياء مثلهم، والقائل لهذه المقالة أبو جهل، قال: تزاحمنا: بنو عبد مناف الشرف مع بني هاشم، حتى إذا صِرنا كَفَرَسَى رهان، قالو: منا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت الآية. وقيل: في الوليد بن المغيرة، قال: أنا أولى بالنبوة من محمد. فرد الله على من قال ذلك بقوله: { اللهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسَالَتَهُ }. فَعَلِم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أهل للرسالة، فخصه بها، وعلم أنهم ليسوا بأهل لها، فحرمهم إياها، فإن النبوة ليست بمجرد النسب والمال، وإنما هي بفضائل نفسانية يَخُصُّ الله بها من يشاء من عباده، بل بمحض الفضل والكرم، فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي فيه يضعها.

ثم ذكر وعيد المنكرين، فقال: { سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله } أي: ذل وحقارة يوم القيامة، بعد تكبرهم وارتفاعهم في الدنيا. رُوِي " أنهم يُبعثون في صورة الذَّرِّ، يطؤهم الناس في المَحشَر ". { و } يصيبهم { عذاب شديد بما كانوا يمكرون } أي: بسبب مكرهم، أو جزاء مكرهم. كما تدين تدان.

الإشارة: ما حَرَم الناسَ من الخير إلا خصلتان: التكبر والحسد، فمن طهر قلبه من الحسد، وتواضع لكل أحد، نال الرفعة والشرف عند الله في الدنيا والآخرة، ولا يضع الله سر الخصوصية إلا في قلب طاهر متواضع، يحط صاحبه رأسه لأقدام الرجال، ويذل نفسه لأهل الصفاء والكمال، وفي ذلك يقول الشاعر:

يا مَن يَلُوم خمْرَة المحَبَّة قُولُوا له عَنِّي هَيَ حَلالْ
ومَن يُرِدْ يُسْقَى منها غِبَّا خَدّ يضَع لأقدام الرَجالْ
رأسِي حطَطت بكُلِّ شَيبه هُم المَوالِي سَقَونِي زلالْ

فكما أن الحق تعالى علم حيث يجعل رسالته، علم حيث يجعل سر ولايته، وهي النفوس المتواضعة المتطهرة من رذائل النفوس؛ كالحسد والكبر وسائر الأوصاف المذمومة.

@{ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ كَذالِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ } * { وَهَـاذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ }

قلت: من قرأ { حرَجًا }؛ بالفتح، فهو مصدر وُصف به للمبالغة، ومن قرأ بالكسر، فوصف، أي: شديد الضيق، ومن قرأ { يَصَّعَّد }؛ بالشد والقصر، فأصله: يتصعد، أدغم التاء في الصاد، ومن قرأ: { يصّاعد }؛ فأصله: يتصاعد، فأدغم أيضًا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فمن يُرد الله أن يهديه } أي: يعزّفه طريق الحق ويوفقه للإيمان { يشرح صدرَه } أي: يوسعه { للإسلام } ، فيتسع له، ويقبله، ويغتبط به، ويبتهج، فرحًا وسرورًا. والشرح: كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيأة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعها منه، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم، حين سُئل عنه، فقال: " نُورٌ يقذفه الله في قَلبِ المؤمن، فينشرح له وينفسح " قالوا: هل لذلك أمارة يعرف بها؟ قال " نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول ".

ثم ذكر ضدَّه، فقال: { ومن يُرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا }؛ شديد الضيق، بحيث ينبو عن قبول الحق، فلا يدخله الإيمان، ولا ينشرح صدره له، بل يفر منه، ويثقل عليه { كأنما يصَّعَّد في السماء } أي: يتكلف الصعود فيه. شَبَّهَهُ ـ على وجه المبالغة ـ بمن يُحاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء غاية فيما يبعد عن الاستطاعة، تنبيهًا على أن الإيمان تَمَنَّع عليه كما يمتنع عليه الصعود إلى السماء، { كذلك } أي: كما يضيق صدر الكافر ويبعد قلبه عن الحق، { يجعل الله الرجس } أي: العذاب والخذلان، { على الذين لا يؤمنون } ، ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

{ وهذا } البيان الذي جاء به القرآن، أو ما سبق من التوفيق والخذلان، { صراط ربك } أي: الطريق الذي ارتضاه، إن قلنا: الإشارة للبيان، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته، إن قلنا ما سبق من التوفيق والخذلان، حال كونه { مستقيمًا } لا عوج فيه، أو عادلاً مطردًا لا جور فيه، { قد فصَّلنا الآيات } أي: بيَّناها { لقوم يذكّرون } فيعلمون أن الفاعل هو الله وحده، وأن كل ما يحدث من خير وشر، أو إيمان وكفر، بقضائه وخلقه، فإنه عالم بأفعال العباد، حكيم عادل فيما يفعل بهم من تقريب أو إبعاد.

الإشارة: فمن يُرد الله أن يهديه لسر الخصوصية ونور الولاية يشرح صدره للدخول في طريقها، ويوفقه لبذل نفسه وروحه في تحصيلها، ويصبَّرُه على حمل لأوائها، وينهضه إلى السير في ميدانها، بعد أن يسقطه على شيخ كامل عارف بطريقها، فيحققه بخصوصيته، ويطلعه على سر ولايته، حتى يُلقى القياد إليه بكليته، فلا يَزَالُ يُسَايره حتى يقول له: ها أنت وربك. ومن يريد أن يضله عنها يجعل صدره ضيقًا عن قبولها، حرجًا عن الدخول فيها، حتى يثقل عليه حمل أعبائها، أو ينكر وجود أهلها، كذلك يجعل الله رجس حجابه على الذين لا يؤمنون بطريق الخصوص، فإنه طريق مستقيم يُوصل إلى حضرة النعيم في الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

@{ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لهم دار السلام } التي هي الجنة. والسلام اسم الحق تعالى، وأضافها إلى نفسه تعظيمًا لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دار التحية؛ { تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ }
[إبراهيم:23؛ يونس:10]، { عند ربهم } ذخيرة لهم عنده حين يقدمون عليه، لا يعلم كنهها غيره، أو في ضمانه وكفالته، { وهو وليهمُ } أي: مولاهم وناصرهم في الدارين، { بما كانوا يعملون } أي: بسبب أعمالهم، أي: تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، فيحفظهم في الدنيا، هم وذريتهم، ويحفظهم في الآخرة كذلك.

الإشارة: من هداه الله لطريق الخصوصية، واستعمله في الوصول إليها، ووصله إلى من يسيره إليها، فقد دخل دار السلام قبل موته، فللّه جنتان؛ جنة المعارف وجنة الزخارف، من دخل جنة المعارف لم يشتق إلى جنة الزخارف، لأن الله تولاه وأغناه عما سواه.

@{ وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِيا أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ } * { وَكَذالِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }

قلت: { خالدين }: حال مقدَّرة من الكاف، والعامل فيه: { مثواكم } ، إن جعل مصدرًا، أو معنى الإضافة، إن جعل مكانًا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكر { يوم نحشرهم } أي: الثقلين، { جميعًا } ونقول: { يا معشر الجن } أي: الشياطين { قد استكثرتم من الإنس } أي: من إغوائهم وإضلالهم، أو استكثرتم منهم بأن جعلتموهم في أتباعكم، فحُشروا معكم، { وقال أولياؤهم من الإنس } الذين أطاعوهم في الكفر: { ربنا استمتع بعضنا ببعض } أي: انتفع الإنس بالجن، بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، وانتفع الجن بالإنس بأن أطاعوهم وحَصَّلوا مرادهم: وقيل: استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذُون بهم في المفارز وعند المخاوف، كان الرجل إذا نزل واديًا يقول: أعوذ بصاحب هذا الواد، يعني كبير الجن، واستمتاعهم بالإنس: اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم، { وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا } وهو الموت أو البعث والحشر، وهو اعترافٌ بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى، وتكذيب البعث، وتحسرٌ على حالهم، وإظهار للأستكانة والضعف. أقروا بذنبهم لعله ينفعهم.

{ قال النار مثواكم }: منزلكم، { خالدين فيها إلا ما شاء الله }؛ إلا أوقات، ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل: ليس المراد بالاستثناء هنا الإخراج، وإنما هو على وجه الآدب مع الله وإسناد الأمور إليه. وسيأتي في الإشارة تكميله إن شاء الله، { إن ربك حكيم } في أفعاله، { عليم } بأعمال الثقلين.

{ وكذلك } أي: كما ولينا الشياطين على الكفرة، { نُوَلِّي بعض الظالمين بعضًا } أي: نَكِّل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضًا يتولى بعض فيقويهم، أو: أولياءهم وقرناءهم في العذاب، كما كانوا قرناء في الدنيا، وذلك التولي والتسليط { بما كانوا يكسبون } من الكفر والمعاصي.

الإشارة: ليست الآية خاصة بالكفار، بل كان عَوَّق الناسَ عن طريق الخصوص، واستكثر من العموم؛ بأن أبقاهم في حزبه، يقال له: يا معشر أهل الرياسة قد استكثرتم من العموم، فيقول أهل اليمين من العموم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتبعناهم في الوقوف مع الحظوظ والعوائد، وتمتعوا بتكثير سوادهم بنا وتنعيش رياستهم، مع ما يلحقهم من الارتفاق من قِبلنا، فيقول الحق تعالى: نار القطيعة والحجاب مثواكم خالدين فيها، إلا وقت الرؤية مع عوام الخلق، وهذه عادته تعالى: يولي بعض الغافلين بعضًا بسبب غفلتهم.

وفي قوله تعالى: { إلا ما شاء الله } ـ إرشاد إلى استعمال الأدب، وردُ الأمور كلها إلى رب الأرباب، وعدم التحكيم على غيب مشيئته وعلمه، وقوفًا مع ظاهر الوعد أو الوعيد، فالأكابر لا يقفون مع وعد ولا وعيد، كقول عيسى عليه السلام:
{ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[المَائدة:118]، وكقوله إبراهيم عليه السلام:
{ وَلآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِي شَيْئًا }
[الأنعَام:80] الآية، وكقوله:
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[إبراهيم:36]، وكقول شعيب عليه السلام:
{ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّنَا }
[الأعرَاف:89]، وكاستغفار نبينا صلى الله عليه وسلم للمنافقين قبل نزول النهي، وبعد نزوله،
{ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً... }
[التَّوبَة:80] الآية. وكقوله، يوم بدر: " إن تهلك هذه العصابة لن تعبد " ، مع تقدم الوعد بالنصر، وكخوف موسى بعد قوله:
{ لاَ تَخَافَآ إِنَّني مَعَكُمَآ... }
[طه:46] الآية.

ومنه: خوف الأكابر بعد تأمينهم؛ لأن ظاهر الوعد والوعيد لا يقضي على باطن المشيئة والعلم، ومثله يجري في سورة هود في قوله:
{ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ }
[هُود:107]، وفي سورة يوسف:
{ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ }
[يُوسُف:110] بالتخفيف، وغير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة، وانظر الورتجبي. فقد انفرد بمقالة، بعد حكاية اتفاق مذاهب المسلمين جميعًا على عدم غفران الشرك، ولكن قول عيسى عليه السلام: { وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ... } الآية، يشير إلى ما أشار إليه ابن عباس وابن مسعود في قوله تعالى:
{ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ }
[هود:107] قال: تؤمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم يجدد خلقهم، ويرجى من كرم الله ولطفه إدخالهم بعد ذلك الجنة، قال: وهذا مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة. هـ.

قال في الحاشية: وهو يرجع عند التحقيق إلى طرح الأسباب وعدم الوقوف معها، نظرًا إلى أن الحق تعالى لا يتقيد في وعيد ولا وعد، فمن غلبه النظر إليه، سرى إليه الرجاء في عين التخويف، كما أنه يسري الخوف في عين الرجاء، لكونه اقتطع من الوقوف مع خصوص وصف، ولما كانت تلك الحالة هي عين الأدب اللائق بالعبودية مع الله تعالى أرشد تعالى إليها بقوله: { إلا ما شاء الله } ،

{ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ }
[هُود:107]، وهو حال أهل الحقيقة، والوقوف مع خصوص الوعد أو الوعيد حال أهل الشريعة. انتهى ببعض اختصار. وقد رد الثعالبي هذه المقالة التي حكاها الورتجبي.

@{ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـاذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىا أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىا أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ } * { ذَالِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىا بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } * { وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } *{ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } * { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ }

قلت: { ذلك أن لم يكن ربك }: خبر عن مضمر، وأن على حذف لام العلة، أي: الأمر ذلك؛ لأجل أن لم يكن ربك متصفًا بالظلم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: يوم القيامة في توبيخ الكفار: { يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم } أي: من مجموعكم، أو رسل الجن: نُذُرُهم الذين يبلغون لهم شريعة الأنس؛ إذ ليس في الجن رسل على المشهور. ورَوى الطبري من طريق الضحاك بن مزاحم إثبات ذلك، واحتج بأنا لله تعالى أخبَر أن من الجن والإنس رسلاً أرسلوا إليهم، يعني ظاهر هذه الآية. وأجاب الجمهور بأن معنى الآية: أن رسل الإنس رسل من قبل الله أليهم، ورسل الجن يبلغون كلام رسل الأنس إليهم، ولهذا قال قائلهم:
{ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى }
[الأحقاف:30] الآية، فالرسالة إلى الجن خاصة بنبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، أي: مع الإنس.

حال كون الرسل الذين أتوكم { يقصون عليكم آياتي ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا } يعني يوم القيامة، قالوا في الجواب: { شهدنا على أنفسنا } بالكفر والعصيان، وهو اعتراف منهم بما فعلوا.

قال تعالى: { وغرتهم الحياة الدنيا }؛ ألهتهم بزخرفها عن النظر والتفكر، { وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين } ، وهذا ذم لهم على سُوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات الفاتية، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد؛ تحذيرًا للسامعين وإرشادًا لهم. قاله البيضاوي.

ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: { ذلك } الإرشال حكمته لـ { أن لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون } أي: إنما أرسلَ الرسل لئلا يكون ظالمًا لهم بإهلاكهم بسبب ظلم فعلوه، وهم غافلون عن الإنذار، بحيث لم ينذرهم أحد، أو: لم يكن مهلك القرى ملتبسًا بظلم حيث أهلكهم من غير إنذار، ففاعل الظلم، على الأول: القرى، وعلى الثاني: الله تعالى، على تقدير إهلاكهم من غير إنذار. والأول يتمشى على مذهب المعتزلة، والثاني على مذهب أهل السنة. انظر ابن جزي.

{ ولكلٍّ } من الإنس والجن { درجات }؛ مراتب، { مما عملوا } من أجل أعمالهم بالخير والشر، فهم متفاوتون في النعيم والعذاب، وظاهر الآية: أن الجن يُثابون

ويُعاقبون؛ لأنهم مكلفون، وهو المشهور، واختلف: هل يدخلون الجنة أم لا؟ فروى الطبري وابنُ أبي حاتم عن أبي الدرداء موقوفًا: أنهم يكونون ترابًا كسائر الحيوانات، ورُوِي عن أبي حنيفة مثله، وذهب الجمهور ـ وهو قول الأئمة الثلاثة والأوزاعي وأبي يوسف، وغيرهم؛ أنهم يثابون على الطاعة ويدخلون الجنة. ثم اختلفوا، هل يدخلون مدخل الإنس، وهو الأكثر، أو يكونون في ربض الجنة، وهو عن مالك وطائفته، أو أنهم أصحاب الأعراف، أو التوقف عن الجواب؟ في هذا أربعة أقوال، والله تعالى أعلم بغيبه.
وما ربك بغافل عما يعملون } فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق عليه من ثواب أو عقاب.

{ وربك الغني } عن العباد وعبادتهم، { ذو الرحمة } يترحم عليهم بالتكليف، تكميلاً، ويمهلهم على المعاصي حلمًا، وليس له حاجة في طاعة ولا معصية، { إن يشأ يُذهبكم } أيها العصاة، { ويستخلف من بعدكم ما يشاء } من الخلق، { كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين }؛ فأنشأكم قرنًا بعد قرن، لكنه أبقاكم رحمة بكم، { إنَّ ما توعدون } من البعث وما بعده، { لآتٍ } لا محالة، { وما أنتم بمعجزين }؛ تعجزون قدرة الله الطالب لكم بالبعث والحساب.

الإشارة: كما أن الحق تعالى لم يُعذب الكفار إلا بعد إرسال الرسل، كذلك لا يُعاقب أهل الإصرار إلا بعد بعث الأطباء؛ وهم أهل التربية النبوية، فكل من لم يصحبهم وينقد إليهم مات مصرًا على الكبائر ـ أي: كبائر القلوب ـ وهو لا يشعر، فيلقى الله بقلب سقيم، فيعاقبه الحق تعالى على عدم صحبتهم، ومعاتبته له: بُعدُهُ عن مشاهدته وعن مقام المقربين، فإذا رأى مقام المقربين وقربهم من الحضرة، قال: غرتنا الحياة الدنيا ورخارفها، وجاهها ورياستها، وشهد على نفسه أنه كان غافلاً.

فحِكمة وجود الأولياء في كل قرن؛ لتقوم الحجة على أهل الغفلة، فإذا وقع البعد لقوم لم يكن الحقّ ظالمًا لهم، فالدرجات على حسب المقامات، والمقامات على حسب الأعمال، وأعمال القلوب هي التي تقرب إلى حضرة علام الغيوب، بها يقع القرب، وبالخلو عنها يقع البعد. وعليها دلت الأولياء بعد الأنبياء، لأن الأنبياء جاؤوا بالشريعة الظاهرة والحقيقة الباطنة، فمن رأوه أهلاً لسر الحقيقة دلّوه عليها، فكان من المقربين، ومن رأوه ضعيفًا عنها دلوه على الشريعة، فكان من أصحاب اليمين. وبالله التوفيق.

@{ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَىا مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }

قلت: { من تكون }: إما مفعول { تعلمون } ، أو مبتدأ، وهي إما موصولة أو استفهامية، والمكانة: التمكن أو الجهة، يقال: مكان ومكانة كمقام ومقامة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد: { يا قوم اعملوا على مكانتكم } أي: تمكنكم من هواكم وشهواتكم التي أنتم عليها، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من الكفر والهوى، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، { إني عامل } على ما أنا عليه من المصابرة والثبات على الدين الحق. والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد، كأن الذي يهدده يريد تعذيبه لا محالة، فيحمله بالأمر

على ما يفضي به إليه، وتسجيلٌ بأن المهدد لا يأتي منه إلا الشر، كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. قاله البيضاوي.

ثم صرح بالتهديد فقال: { فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار } أي: أيُّنا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار، أي: وهي الدار الآخرة، أو: فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة سكنى الدار الآخرة والنعيم المقيم، أو: من تكون له عاقبة هذه الدار بالنصر والظهور على الأديان ـ أنا أو أنتم، وفيه إنصاف في المقال حال الإنذار، وحسن الأدب، وتنبيهٌ على وثوق المنذِر لأنه محق. قال تعالى { إنه } ، أي: الأمر والشأن، { لا يُفلح الظالمون } ، والظلم أعلم من الكفر، ولذلك وضُع موضعه؛ لعمومه.

الإشارة: إذا انكب الناس على الدنيا، وأخذتهم الغفلة، وغلب عليهم الهوى، ثم وقع الوعظ والتذكير من أهل الإنذار، فقابَلوهم بالإبعاد والإنكار، يقول لهم المذكور والواعظ: { يا قوم اعلموا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار... } الآية.

@{ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـاذَا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـاذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَىا اللَّهِ وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىا شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وجعلوا } أي: مشركو العرب، { لله مما ذرأ } أي: خلق، { من الحرث والأنعام نصيبًا } ، وهم حي من خولان، يقال لهم: الأديم، كانوا يجعلون من زروعهم وثمارهم وأنعامهم نصيبًا، { فقالوا هذا لله بزعمهم } أي: بدعواهم من غير دليل، وأكثر ما يستعمل الزعم في الكذب، { وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم }.

رُوِي أنهم كانوا يُعينون شيئًا من حرث أو نتاج إلى الله، فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئًا منها إلى آلهتهم، فينفقونه على سدنتهم ـ أي: خدَّامهم، والقيام بأصنامهم، ويذبحون عندها، ثم إذا رأوا ما عينوا لله أزكى وأكثر، بدلوه لآلهتهم وقالوا: الله غني عنه، وإذا رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها؛ حبًا لآلهتهم، وإذا هبت ريح فحملت شيئًا من الذي لله إلى الذين للأصنام أقروه، وإن حملت شيئًا من الذي للأصنام إلى الذي لله ردوه، وإذا أصابتهم سَنَةٌ، أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم، تعظيمًا لها.

وفي قوله: { مما ذرأ }: تنبيه على فرط جهالتهم، فإنهم أشركوا الخالق في خلقه، جمادًا لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله: { بزعمهم }: تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه، ولم يأمرهم الله تعالى به. { ساء } أي: قبح، { ما يحكمون } حكمهم هذا الذي اخترعوه من عند أنفسهم.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية. وتجر ذيلها عليه، ما يفعله بعض الناس من التساهل في حقوق الله الواجبة، والمسارعة إلى حقوق الناس التي ليست بواجبة عليه، فترى بعض العوام يقدمون مد أبي العباس السبتي، ويتساهل في الزكاة، وترى بعض الناس يُسارع إلى إطعام الطعام وقرى الأضياف، وهو لا يفي زكاته. وبعضهم يجعلون للصالحين شيئًا من أموالهم لتصلح وتنمو ويعتني بشأنها، وقد لا

يعتني بزكاته ولا يخرجها، وهذا كله شعبة من فعل أهل الشرك، وعلامة اتباع الهوى. وبالله التوفيق.

@{ وَكَذالِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ }

قلت: قرأ الجمهور: { زَيَّن }؛ بالبناء للفاعل ونصب قتل، على أنه مفعول به، وخفض { أولادهم } بالإضافة ورفع { شركاؤهم }؛ فاعل { زين } ، فالشركاء على هذه القراءة هم الذين زينوا القتل، وقرأ ابن عامر: بضم الزاي؛ على البناء للمفعول، ورفع { قتل }؛ على النيابة عن الفاعل، ونصب { أولادهم } على أنه مفعول بقتل، وخفض " شركائهم " بالإضافة إلى قتل، إضافة المصدر إلى فاعله، أي: زُين لهم أن يقتل شركاؤهم أولادهم، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بأولادهم، وهو معمول للمصدر، وهو جائز في العربية، قال ابن مالك في الألفية:

فَصلَ مُضَافٍ شِبهِ فِعلٍ مَا نَصب مَفعولاً أو ظَرفًا أجِز، ولم يُعب

وهذا من فصل المفعول، فهو جائز في السعة؛ خلافًا للزمخشري ومن تبعه، وقد شنَّع عليه الشاطبي في حرز الأماني.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ومثل ذلك التزيين الذي وقع لهم في الحرث والأنعام، { زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم }؛ زين لهم ذلك شركاؤهم من الجن، أو من السدنَة، وحملوهم عليه، خوفًا من الجوع أو من العار، وكانوا يقتلون البنات دون البنين، زينوا لهم ذلك { لُيردُوهم } أي: ليهلكوهم بالإغواء، { وليلبسوا عليهم دينهم } أي: ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به، { ولو شاء الله ما فعلوه } أي: ما فعل المشركين ما زين لهم، أو ما فعل الشركاء التزيين، أو الفريقان جميع ذلك، { فذرهم وما يفترون } أي: اتركهم مع افترائهم، أو: والذي يفترونه من الإفك، وهذا قبل الأمر بالسيف، ثم نسخ به.

الإشارة: مما ينخرط في سلك الآية: إهانة البنات وتعظيم البنين، وقد نهى الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن تخصيص الذكور بالوصية، وقال للذي أراد أن يفعله: " لا تُشهدني على جور " ، وهنا إشارة أرق من هذا، وهو أن يراد بالأولاد ما تنتجه الفكرة الصافية من العلوم والمواهب، وقتلها: إهمال الفكرة عن استخراجها حتى ضاعت عليه، والذي زين له ذلك هو شرك القلب، واشتغاله برسوم الفرق، حتى تعطلت الفكرة، وماتت تلك العلوم من قلبه، وقع ذلك التزيين بأهل الفرق ليسقطوهم عن درجة المقربين؛ أهل العلوم اللدنية والأسرار الربانية، وليلبسوا عليهم دينهم بالخواطر والشكوك، والأوهام، ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا.
@{ وَقَالُواْ هَـاذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }

قلت: { حِجْر }: فعل، بمعنى مفعول، يستوي فيه الواحد والكثير، والمذكر والمؤنث، ومعناه: حرام، و { افتراء }: حال، أو مفعول من أجله، أو مصدر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقالوا } أيضًا: { هذه } الأشياء التي جعلوها لأصنامهم، وهي { أنعام وحرث } ، هي { حِجْرٌ } أي: حرام محجر، { لا يَطعمها } ، لا يأكلها { إلا من نشاء } ، وهم خُدام الأوثان وسدنتها، والرجال دون النساء. قالوا ذلك { بزعمهم

} وافترائهم من غير حجة، { وأنعام } أخرى { حُرمت ظهورها }؛ وهي البحائر والسوائب والحوامي، { وأنعام } أخرى { لا يذكرون اسم الله عليها } في الذبح، وإنما يذكرون عليه اسم آلهتهم؛ { افتراء } على الله، لأنهم قسموا أموالهم على هذه القسمة، ونسبوا ذلك إلى الله؛ افتراءً وكذبًا، { سيجزيهم بما كانوا يفترون } أي: بسببه فيعذبهم الله.

الإشاره: ما عاب الله على المشركين إلا الشرك والتحكم على الله، فالواجب على من أراد السلامة أن يُوحد ربه، وينفرد بكُلِّيته إليه، ويُخلص أعماله لله، ويصرف أمواله في مرضاة الله، ويقف في أموره كلها عندما حدد له الله، وبَيَّنه رسولُ الله؛ يكونُ من أولياء الله. والله تعالى أعلم.

@{ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـاذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىا أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ }

قلت: { خالصةٌ }: خبر لـ { ما } ، وأنثه؛ حملاً على المعنى، لأن { ما } واقعة على الأجنة، وذكّر { محرم }؛ حملاً على لفظ { ما } ، ويحتمل أن تكون التاء للمبالغة، ومن قرأ: { تكن } ، بالتأنيث، فالمراد: الأجنة، ومن قرأ بالتذكير فراعى لفظ { ما }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وقالوا ما } استقر { في بطون هذه الأنعام } ، بمعنى: البحائر والسوائب، من الأجنة، { خالصة لذكورنا } لا يشاركون فيه، { ومحرم على أزواجنا } أي: نسائنا، يعني: أن ما يولد للبحائر والسوائب، قالوا هو حلال لذكورهم دون نسائهم، هذا إن وُلد حيًا، { وإن يكن ميتة }؛ بأن ولد ميتًا { فهم فيه شركاء }؛ فالذكور والإناث سواء، { سيجزيهم وصفهم } أي: سيجزيهم على ما صفوا وافترا على الله من الكذب في التحليل والتحريم، فهو كقوله:
{ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ }
[النّحل:62]، { أنه حكيم } في صنعه، { عليم بخلقه }؛ فيجزي كلاًّ على قدر جُرمه.

الإشارة: اعلم أن جيفة الدنيا اشترك النساء مع الرجال فيها، لقوله تعالى: { وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء } ، والزهد في النساء قليل بالنسبة إلى الرحال، واعلم أيضًا أن الحق تعالى يجازي عبده جزاء موافقًا لوصفه، فإن كان وصفه التعظيم لكل شيء عظمه الله، ومن كان وصفه التصغير صغره الله، ومن كان وصفه الإحسان أحسن الله إليه، ومن كان وصفه الإساءة أساء الله إليه، ومن كان وصفه الفرق فرقه الله، ومن كان وصفه الجمع جمعه الله، وهكذا: كما تدين تدان، كما تقابل الأشياء تقابلك، قال تعالى: { سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم }.

@{ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }

قلت: { سفهًا }: حال أو مصدر، وكذلك: { افتراء }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قد خسر الذين قتلوا أولادهم }؛ يعني: العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي أو الفقر، { بغير علم } ولا دليل؛ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله رازق أولادهم كما يرزقهم، وليسوا هم الرزاقين لهم، { وحرَّموا ما رزقهم الله } من البحائر والسوائب ونحوهما؛ { افتراء على الله } من عند أنفسهم، { قد ضلوا وما كانوا مهتدين } إلى الحق الصواب.

الإشارة: قد خسر الذين ضيعوا قلوبهم فلم تنتج لهم شيئًا من أبكار الحقائق وأسرار العلوم، بل اشتغلوا بالسفه من القول والفعل، بغير علم ولا بصيرة نافذة، وحرموا ما رزقهم الله من العلوم والأسرار، لو طهروا قلوبهم، وخربوا ظواهرهم وخرقوا عوائدهم، لكنهم حكموا على فعل ذلك بالتحريم، تجمدوا على علم الرسوم وحفظ المروءة، والمروءة إنما هي التقوى والدين، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه، قد ضلوا عن طريق الوصول، وما كانوا مهتدين إلى طريق الخصوص، ما داموا على ما هم عليه من زيّ اللصوص.

@{ وَهُوَ الَّذِيا أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }

قلت: { مختلفًا }: حال مقدَّرة؛ لم يكن كذلك عند الإنشاء، والضمير في { أُكله }: يعود على النخل، والزرعُ مقيس عليه، أو للجميع؛ على تقدير: كل واحد منهما.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي أنشأ } أي: خلق { جنات }؛ بساتين مشتملة على كروم ـ أي: دوالي ـ { معروشات } أي: مرفوعة بالعرشان والدعائم، { وغير معروشات } أي: مبسوطة على وجه الأرض، قيل: المعروشات: ما غرسه الناس في العمران، وغير المعروشات: ما أنبته في الجبال والبراري.

{ و } أنشأ { النخل والزرع مختلفًا أُكله } أي: ثمره الذي يؤكل منه، واختلافه في اللون والطعم والرائحة والحجم والهيئة والكيفية، وذلك دليل على عظمة القادر المريد، { و } أنشأ { الزيتون والرمان متشابهًا وغير متشابه } أي: تتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم، ولا يتشابه بعضها. { كُلوا من ثمره } أي: من ثمر كل واحد منهما، { إذا أثمر } وإن لم يطب، قيل: فائدة الأمر بالأكل: رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله منه قبل الطيب، أي: قبل أن تجب زكاته، وأما إذا طاب فلا بد من التخريص.

{ وآتوا حقه يوم حصاده }؛ يريد: ما كان يتصدق به يوم الحصاد، لا الزكاة المقدرة؛ لأنها فرضت بالمدينة، وكان ذلك واجبًا ثم نسخ بالعشر. وقيل: الزكاة حقيقةً، والآية مدنية، وقيل: مكية، ولم يعيَّن قدرها إلا بالمدينة، والأمر بإتيانها يوم الحصاد؛ ليُهتم به حينئذٍ، حتى لا يؤخر عن وقت الأداء، خلاف ما يفعله العامة من خزنها مع ماله، حتى يدفعها في نوائب المخزن، وليعلم أن الوجوب بالإفراك والطيب، لا بالتصفية، ولذلك شرع التخريص، { ولا تُسرفوا } بصرفها في غير محلها، ولا تتعدوا ما أمرتم به فتجعلوا ما أنشأ الله للأصنام، أو: لا تسرفوا في التصدق بالكل، كقوله:
{ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ }
[الإسرَاء:29]، { إنه لا يحب المسرفين } أي: لا يرضى فعلهم.

وهو الذي أنشأ جنات المعارف لمن خرق عوائده، معروشات بشهود أسرار الحبروت، وغير معروشات بشهود أنوار الملكوت، أو معروشات بشهود المعاني مع الأواني، وغير معروشات بشهود الأواني فقط، أو معروشات بشهود المؤثر والأثر، وغير معروشات بشهود المؤثر فقط، ولكها ترجع لمعنى واحد، والمعروش أرفع من غيره وأكمل، والأول: مقام البقاء والصحو، والثاني: مقام الفناء والسكر، والنخل والزرع: الحقيقة والشريعة على اختلاف علومهما، والزيتون والرمان: الأعمال والأحوال، متفقة وغير متفقة، وثمره: حلاوة الشهود، فليأكل منها المريد إذا طاب وقته، ولا تُسرفوا في الأحوال، إنه لا يحب المسرفين.

@{ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } * { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } * { وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـاذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىا عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

قلت: { حَمولة وفرشًا }: عطف على جنات، و { ثمانية أزواج }: بدل من حَمولة، و { من الضأن اثنين }: بدل من ثمانية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } أنشأ أيضًا { من الأنعام } أنعامًا { حَمولة }؛ ما يحمل الأثقال، كالكبار منها، { وفَرشًا }؛ ما لا يحمل، كالصغار لدنوها من الأرض، أو حمولة للإبل، وفرشًا للغنم، لأنها تفرش للذبح، ويُفرَشُ ما ينسج من صوفها، { كلوا مما رزقكم الله } أي: كلوا ما أحل الله لكم منها، { ولا تتبعوا خطوات الشيطان } في التحليل والتحريم من عند أنفسكم، { إنه لكل عدو مبين }؛ ظاهر العداوة.

ثم فصلها فقال: { ثمانية أزواج }؛ ذكر وأنثى من كل صنف، والصنف: ما معه آخر من جنسه يزاوجه، ثم بيَّنها فقال: { من الضأن اثنين }؛ ذكر وأنثى؛ كبش ونعجة، { ومن المعز أثنين }؛ التيس وهو الذكر، والعنز وهي الأنثى، { قل } لهم { آلذكرين } أي: ذكر الضأن والمعز، { حرَّم أم الأنثيين } منهما؟ { أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين } من الأجنة ذكرًا كان أو أنثى؟ { نبّئوني بعلم } يدل على أن الله تعالى حرم شيئًا من ذلك، { إن كنتم صادقين } في دعوى التحريم عليه.

{ ومن الإبل اثنين }؛ ذكر وأنثى، { ومن البقر اثنين } كذلك. { قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين } أم حرم ما { اشتملت عليه أرحام الأنثيين } من الجنين مطلقًا؟ وهذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، وتوبيخ لهم، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الأناث مرة، فألزمهم تحريم جميع الذكور، إن كان علة التحريم وصف الذكورة، أو تحريم جميع الإناث، إن كانت العلة الأنوثة، أو تحريم الجميع إن كان المُحرم ما اشتملت عليه الأرحام، ولا وجه للتخصيص، فالاستفهام للإنكار، وأكده بقوله: { أم كنتم شهداء } حاضرين حين { وصّاكم الله بهذا } التحريم، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع، وليس لك شيء من ذلك، وإنما أنتم مفترون على الله.

{ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا }؛ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد: كبراؤهم الأوائل كعمرو بن لحي وأمثاله، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، { ليُضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } إلى مراشدهم، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة: ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية، بشهود الربوبية، فيغلب عليه العز والاستظهار، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية، فيغلب عليه الذل والإنكسار، وإليه الإشارة بقوله: { حمولة وفرشًا } ، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع: أربعة سفلية تناسب العبودية، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالإربعة السفلية: الذل، والفقر، والعجز والضعف. والأربع العلوية: العز، والغنى، والقدرة، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل: يا عزيز من للذليل سواك؟، ومن كوة الفقر: يا غني من للفقير سواك؟، ومن كوة العجز: يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف: يا قوي من للضعيف سواك؟، ير الإجابة طوع يديه، ومن أراد التحقيق بها، فليتحقق بذله يمده بعزه، وليتحقق بفقره يمده بغناه، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته، وليتحقق بضعفه يمده بقوته، " تحقق بوصفك يمدك بوصفه ". وبالله التوفيق.

@{ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } * { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضَّأنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } * { وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَـاذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىا عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

قلت: { حَمولة وفرشًا }: عطف على جنات، و { ثمانية أزواج }: بدل من حَمولة، و { من الضأن اثنين }: بدل من ثمانية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } أنشأ أيضًا { من الأنعام } أنعامًا { حَمولة }؛ ما يحمل الأثقال، كالكبار منها، { وفَرشًا }؛ ما لا يحمل، كالصغار لدنوها من الأرض، أو حمولة للإبل، وفرشًا للغنم، لأنها تفرش للذبح، ويُفرَشُ ما ينسج من صوفها، { كلوا مما رزقكم الله } أي: كلوا ما أحل الله لكم منها، { ولا تتبعوا خطوات الشيطان } في التحليل والتحريم من عند أنفسكم، { إنه لكل عدو مبين }؛ ظاهر العداوة.

ثم فصلها فقال: { ثمانية أزواج }؛ ذكر وأنثى من كل صنف، والصنف: ما معه آخر من جنسه يزاوجه، ثم بيَّنها فقال: { من الضأن اثنين }؛ ذكر وأنثى؛ كبش ونعجة، { ومن المعز أثنين }؛ التيس وهو الذكر، والعنز وهي الأنثى، { قل } لهم { آلذكرين } أي: ذكر الضأن والمعز، { حرَّم أم الأنثيين } منهما؟ { أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين } من الأجنة ذكرًا كان أو أنثى؟ { نبّئوني بعلم } يدل على أن الله تعالى حرم شيئًا من ذلك، { إن كنتم صادقين } في دعوى التحريم عليه.

{ ومن الإبل اثنين }؛ ذكر وأنثى، { ومن البقر اثنين } كذلك. { قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين } أم حرم ما { اشتملت عليه أرحام الأنثيين } من الجنين مطلقًا؟ وهذا

تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، وتوبيخ لهم، حيث حرموا بعض الذكور مرة وبعض الأناث مرة، فألزمهم تحريم جميع الذكور، إن كان علة التحريم وصف الذكورة، أو تحريم جميع الإناث، إن كانت العلة الأنوثة، أو تحريم الجميع إن كان المُحرم ما اشتملت عليه الأرحام، ولا وجه للتخصيص، فالاستفهام للإنكار، وأكده بقوله: { أم كنتم شهداء } حاضرين حين { وصّاكم الله بهذا } التحريم، ولا طريق لكم إلى معرفة هذا إلا المشاهدة والسماع، وليس لك شيء من ذلك، وإنما أنتم مفترون على الله.

{ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا }؛ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد: كبراؤهم الأوائل كعمرو بن لحي وأمثاله، أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، { ليُضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين } إلى مراشدهم، أو إلى ما ينفعهم.

الإشارة: ومن الأحوال ما تحمل صاحبها إلى مقام الحرية، بشهود الربوبية، فيغلب عليه العز والاستظهار، ومنها ما تحمله إلى مقام العبودية، فيغلب عليه الذل والإنكسار، وإليه الإشارة بقوله: { حمولة وفرشًا } ، فليتمتع المريد بما يظهر عليه منهما، ولا يتبع خطوات الشيطان فيتعدى طوره، ولا يعرف قدره.

وهذه الأحوال ثمانية أنواع: أربعة سفلية تناسب العبودية، وأربعة علوية تناسب الربوبية. فالإربعة السفلية: الذل، والفقر، والعجز والضعف. والأربع العلوية: العز، والغنى، والقدرة، والقوة. فمن أراد التعلق بهذه الأوصاف فليناد من كوة الذل: يا عزيز من للذليل سواك؟، ومن كوة الفقر: يا غني من للفقير سواك؟، ومن كوة العجز: يا قدير من للعاجز سواك؟ ومن كوة الضعف: يا قوي من للضعيف سواك؟، ير الإجابة طوع يديه، ومن أراد التحقيق بها، فليتحقق بذله يمده بعزه، وليتحقق بفقره يمده بغناه، وليتحقق بعجزه يمده بقدرته، وليتحقق بضعفه يمده بقوته، " تحقق بوصفك يمدك بوصفه ". وبالله التوفيق.

@{ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىا طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { لا أجد فيما أُوحي إليَّ } في القرآن أو مطلق الوحي، { محرمًا } أي: طعامًا محرمًا، { على طاعم يطعمه } ، أو يطعم منه غيره، { إلاَّ أن يكون } الطعام { ميتة } ، وفي قراءة بالتاء؛ لتأنيث الخبر، { أو } يكون { دمًا مسفوحًا } أي: مصبوبًا كدم المنحر، { أو لحم خنزير فإنه رجس } أي: خبيث، قيل: إنه يورث عدم الغيرة بالخاصية { أو } يكون { فسقًا } ، من صفته: { أُهِلَّ لغير الله به } أي: ذبح لغير الله، وذكر عليه اسم الصنم، وإنما سمي فسقًا؛ لتوغله في الفسق.

والآية تقتضي حصر المحرمات، فيما ذكر، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا، كلحوم الحمر الإنسية والكلاب، وغيرها، فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر، وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب، فلا تقتضي الحصر، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر: مكروه.

وقال البيضاوي: والآية مُحكمة؛ لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أُوحي إليه إلى تلك الغاية محرمًا غير هذه، ولا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد، ولا على حل الأشياء غيرها، إلا مع الاستصحاب. هـ.

ثم استثنى المضطر، فقال: { فمن اضطُرَّ } إلى تناول شيء من ذلك، { غير باغٍ } على مضطر مثله، { ولا عادٍ } أي: متجاوز قدر الضرورة، { فإن ربك غفور رحيم } لا يؤاخذه.

الإشارة: الأحوال كلها تتقوت منها الروح، إلا ما كان غير مباح في الشرع، فلا سير فيه، والمراد بالأحوال: خرق عوائدها، بكل ما يثقل عليها، وأما ما كان محرمًا في الشرع فلا بركة في تناوله؛ لأنه رجس، وأجازه بعض الصوفية محتجًا بقضية لص الحمام، وفيه مقال، فمن اضطر إلى تناوله، لغلبة حال عليه، غير قاصد لمخالفة الشرع، فإن الله غفور رحيم، وعليه حمل بعضهم قصة لص الحمَّام. والله تعالى أعلم.

@{ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَآ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذالِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ }

قلت: { الحوايا } هي الأمعاء، أي: المصارين التي فيها البعر، وتسمى المباعر، جمع حوية، فعيلة، فوزنها على هذا: فعائل، فصنع بها ما صنع بهرَاوا، وقيل: جمع حاوية، فوزنها: فواعل، كقوارب، وهو عطف على ما في قوله: { إلا ما حملت }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر }؛ ماله أصبع، كالإبل والأوز والنعام، وغيرها من الحيوان، الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر، وقيل: كل ذي مخلب وحافر، وسمي الحافر ظفرًا؛ مجازًا.

{ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما } كالثروب وشحوم الكُلى، { إلا ما حملت ظُهورهما } أي: إلا ما علق من الشحم بظهور البقر والغنم، فهو حلال عليهم، لكنهم اليوم لا يأكلونه، حدثني شيخي الفقيه الجنوي أنه سأل بعض أحبارهم: هل هو حرام في كتابكم؟ فقال له: لا، لكنهم قاسوه سدًا للذريعة. هـ. فلما شددوا شدد الله عليهم، { أو الحوايا } أي: ما احتوت عليه الأمعاء والحشوة مما يتحوى في البطن من الشحوم، فهو حلال عليهم { أو ما اختلط بعظم } في جميع الجسد، فإنه حلال عليهم، لكنهم شددوا فحرموا الجميع عقوبة من الله { ذلك } التحريم جزاءٌ { جزيناهم } به بسبب بغيهم، أي: ظلمهم، { وإنا لصادقون } فيما أخبرنا به من التحريم، وفي ذلك تعريض بكذب من حرّم غير ما حرم الله.

الإشارة: يؤخذ من الآية أن الذنوب والمعاصي تضيق على العبد لذائذ متعته، وتقتر عليه طيب رزق بشريته، وتضيق عليه أيضًا حلاوة المعاملة في قلبه، ولذة الشهود في روحه وسره، لقوله تعالى: { ذلك جزيناهم ببغيهم }. وقال تعالى:
{ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىَ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } [الأعرَاف:96]، وقال في شأن القلب:
{ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا }

[الأنفَال:29]، أي: نورًا يفرق بين الحق والباطل، وقال تعالى:
{ وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِمُكُمُ اللهُ }
[البَقَرَة:282]، أي: علمًا لدُّنيا، فالمعصية كلها تُبعد العبد من الحضرة، إن لم يتب، والطاعة كلها تقرب من الحضرة. والتنعم إنما هو على قدر القرب، ونقصانه على قدر البُعد. والله تعالى أعلم.

@{ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فإن كذبوك } يا محمد، { فقل } لهم: { ربكم ذو رحمة واسعة } يُمهلكم على التكذيب، فلا تغتروا بإمهاله؛ فإنه يُمهل ولا يُهمل. ولذلك أعقبه بقوله: { ولا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين } حيث ينزل بهم، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين، وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه: { ولا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين } ، لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم، مع الدلالة على أنه لازب لا يمكن رده. قاله البيضاوي. وفي ابن عطية: ولكن لا تغتروا بسعة رحمته، فإن له بأسًا لا يُرد عن القوم المجرمين. هـ.

الإشارة: يُؤخذ من تقديم الرحمة الواسعة على البأس الشديد أن جانب الرجاء أقوى من جانب الخوف؛ لأن حسن الظن بالله مطلوب من العبد على كل حال، لأن الرجال وحسن الظن يستوجبان محبة العبد وإيحاشه إلى سيده بخلاف الخوف، وهذا مذهب الصوفية: أن تغليب الرجاء هو الأفضل في كل وقت، ومذهب الفقهاء أن حال الصحة ينبغي تغليب الخوف لينزجر عن العصيان، وحال المرض يغلب الرجاء؛ إذ لا ينفع حينئذٍ، فالصوفية يرون أن العبد معزول عن الفعل، فليس له قدرة على فعل ولا ترك. وإنما ينظر ما تفعل به القدرة، فهو كحال المستشرف على الموت. والفقهاء يرون أن العبد له كسب واختيار. والله تعالى أعلم.

@{ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَالِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّىا ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ } * { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } * { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـاذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ }

قلت: { هَلُم }: اسم فعل، وهو عند البصريين بسيط، وعند الكوفيين مركب. انظر البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { سيقول الذين آشركوا } في الاحتجاج لأنفسهم: { لو شاء الله } عدم شركنا { ما أشركنا ولا } أشرك { آباؤنا ولا حرمنا من شيء } من البحائر وغيرها، فلو لم نكن على حق مرضى عند الله ما أمهلنا ولا تركنا عليه؛ فإمهاله لنا وتركه لنا على ما نحن فيه دليل على أنه أراده منا.

والجواب عن شُبهتهم: أنه خلاف ما أنزل الله على جميع رسله، والحق تعالى لم يتركهم على ذلك، بل بعث لهم الرسل يكلفهم بالخروج عنه، والإرادة خلاف التكليف، وأيضًا: قولهم هذا لم يصدر منهم على وجه الاعتذار؛ وإنما صدر منهم على

وجه المخاصمة والاحتجاج. ولا يصح الاحتجاج بالقدر. والحاصل أنهم تمسكوا بالحقيقة ورفضوا الشريعة، وهو كفر وزندقة، إذ لا بد من الجمع بين الحقيقة في الباطن، والتمسك بما جاءت به الرسل من الشريعة في الظاهر، وإلاَّ فهو على باطل.

ولذلك ردّ الله تعالى عليهم بقوله: { كذلك كذب الذين من قبلهم } الرسل، فتمسكوا بالحقيقة الظلمانية، { حتى ذاقوا بأسنا } أي: عذابنا الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم { قل } لهم: { هل عندكم من علم } يدل على أن الله أمركم بالشرك، وتحريم ما أحل، وأنه رضي ذلك لكم، { فتخرجوه } أي: فتظهروه { لنا } ، بل { إن تتبعون } في ذلك { إلا الظن } ولا تحقيق عندكم، { وإن أنتم إلا تخرصون }؛ تكذبون على الله تعالى، وفيه دليل على أن الظن لا يكفي في العقائد.

{ قل } لهم: { فللَّه الحجة } على عباده، { البالغة } ، حيث بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وأمروا بتوحيد الله وطاعته، فكل من خالفهم قامت الحجة عليه، هذا باعتبار التشريع الظاهر، وأما باعتبار باطن الحقيقة، فالأمور كلها بيد الله؛ يضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، { فلو شاء لهداكم أجمعين } ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين،
{ لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ }
[الأنبيَاء:23]، فقول المشركين: { لو شاء الله... } الخ، حق في نفسه، لكنهم لم يعذَروا؛ لإهمالهم الشريعة.

{ قل هلُم } أي: أحضروا، { شهداءكم } أي: كبراءكم وأئمتكم، { الذين يشهدون أن الله حرّم هذا } ، استحضرهم ليلزمهم الحجة، ويَظهر بانقطاعهم ضلالهم، وألاَّ متمسك لهم في ذلك. ثم قال لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: { فإن شهدوا } بشيء من ذلك، { فلا تشهد معهم } أي: لا تصدقهم وبيِّن لهم فساده؛ { ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا } ، والأصل أن يقول: ولا تتبع أهواءهم، فوضع الظاهر موضع المضمر، للدلالة على أن مكذب الآية متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحق لا يكون إلا مصدقًا لها. { و } تتبع أيضًا { الذين لا يؤمنون بالآخرة }؛ كعبدة الأوثان، { وهم بربهم يعدلون }؛ يجعلون له عديلاً ومثيلاً.
الإشارة: اعلم أن الحقّ جلّ جلاله كلف عباده في هذا الدار، بالقيام بوظيفتين: الشريعة والحقيقة، الشريعة محلها الظواهر، والحقيقة محلها البواطن، الشريعة تقتضي التكليف، والحقيقة تقتضي التعريف، الشريعة شهود الحكمة، والحقيقة شهود القدرة، وجعل الشريعة رداء الحقيقة ولباسًا لها، ثم جعل سبحانه في القلب عينين، وتسمى البصيرة، إحداهما تنظر للحكمة فتقوم بالشرائع، والأخرى تنظر للقرة فتقوم بالحقائق. فقوم فتحوا عين الحقيقة وأعموا عين الشريعة، وهم أهل الكفر والزندقة، ولذلك قالوا: { لو شاء الله ما أشركنا } ، وقوم فتحوا عين الشريعة وأهملوا عين الحقيقة، ثم وهم عوام المسلمين من أهل اليمن، فلذلك طال خصمهم للمقادير الأزلية مع إقرارهم بها، فإن أنكروها فقد عَمِيَتْ بصيرتهم.

وقوم أحبهم الله، ففتح لهم عين الحقيقة، فأسندوا الأفعال كلها إلى الله ولم يروا معه سواه، فتأدبوا في الباطن مع الأشياء كلها، وفتح لهم عين الشريعة فقاموا بوظائف العبودية على المنهاج الشرعي، وهم الأولياء العارفون بالله، فمن تمسك بالحقائق العلمية دون الشرائع كان زنديقًا، ومن تمسك بالشرائع دون الحقائق كان فاسقًا، ومن تمسك بهما كان صدِّيقًا، فمن رام تمسك بالشرائع، ولم تُسعفه الأقدار،

فإن كان عن سُكر وجذب فهو معذور، وإن كان عن كسل فهو مخذول، وإن كان عن إنكار لها فهو مطرود معدود من حزب الشيطان، والعياذ بالله.

@{ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } * { وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّا يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَا وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } * { وَأَنَّ هَـاذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

قلت: { تعالوا }: أمر من التعالي، وأصله: أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفل، فاتسع فيه بالتعميم في كل أمر بالقدوم، و { ألاَّ تشركوا }: فيه تأويلات؛ أحدها: أن كون مفسرة لا موضع لها، و { لا }: ناهية جزمت الفعل، أو تكون مصدرية في موضع رفع، أي: الأمر ألاَّ تشركوا، و { لا }: نافية حينئذٍ، أو بدل من { ما } و { لا }: زائدة، أو على حذف الإغراء، أي: عليكم إلا تشركوا.

قال ابن جزي: والأحسن أن يكون ضَمَّنَ { حرَّم } معنى وَصَّى، وتكون { أن } مصدرية، و { لا } نافية، ولا تفسد المعنى؛ لأن الوصية في المعنى تكون بتحريم وتحليل وبوجوب وندب، ويدل على هذا قوله بعد ذلك: { ذلكم وصاكم به } ولا ينكر أن يريد بالتحريم ـ الوصية؛ لأن العرب قد تذكر اللفظ الخاص، وتريد به العموم، كما تذكر اللفظ العام وتريد به الخصوص، فتقدير الكلام على هذا: قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم، ثم أبدل منه، على وجه التفسير والبيان، فقال: ألاَّ تشركوا، ووصاكم بالإحسان بالوالدين، وهكذا.. فجمعت الوصية ترك الإشراك وفعل الإحسان بالوالدين، وما بعد ذلك. انظر بقية كلامه.

وإنما قال الحق سبحانه: { من إملاق } ، وقدّم الكاف في قوله { نرزقكم } ، وفي الإسراء قال:
{ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ }
[الإسرَاء:31]، وأخر الكاف؛ لأن ما هنا نزل في فقراء العرب، فكان الإملاق نازلاً بهم وحاصلاً لديهم، فلذلك قال: { من إملاق } ، وقدم الخطاب لأنه أهم. وفي الإسراء نزلت في أغنيائهم، فكانوا يقتلون خوفًا من لحوق الفقر، لذلك قال: { خشية إملاق } ، وقدم الغيبة فقال: { نحن نرزقهم }؛ حين نخلقهم وإياكم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { تعالَوا } أي: هلموا، { أتلُ } أي: أقرأ { ما حرم ربكم عليكم } ، واجتمعت عليه الشرائع قبلكم، ولم يُنسخ قط في ملة من الملل، بل وصى به جميع الملل، و { ألاَّ تُشركوا به شيئًا } بل توحدوه وتعبدوه وحده، { و } أن تحسنوا { بالوالدين إحسانًا } ، ولا تُسيئوا إليهما؛ لأن من أساء إليهما لم يحسن إليهما. { ولا تقتلوا أولادكم من إملاق } أي: من أجل الفقر الحاصل بكم، وكانت العرب تقتل أولادها خوفًا من الفقر فنزلت فيهم، فلا يفهم منه إباحة قتلهم لغيره، { نحن نرزقكم وإياهم } ، فلا تهتموا بأمرهم حتى تقتلوهم.

{ ولا تقربوا الفواحش }؛ كبار الذنوب { ما ظهر منها } للناس { وما بَطَنَ } في خلوة، أو: ما ظهر منها على الجوارح، وما بطن في القلوب من العيوب، { ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق }؛ كالقود، وقتل المرتد، ورجم المحصن. قال صلى الله عليه وسلم: " لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مُسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ: زِنَىً بعد إحصَانٍ، وكُفرٍ بعد إيمَانٍ، وقَتل نَفسٍ بغيرِ نَفسٍ "
ذلكم } المتقدم، { وصّاكم به لعلكم تعقلون } ، فتتدبرون فيما ينفعكم وما يضركم.

{ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي } بالخصلة التي { هي أحسن }؛ كحفظه وتثميره. والنهي عن القرب: يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة؛ لأنه إذا نهى عن القرب كان الأكل أولى، { حتى يبلغ أشده } وهو البلوغ مع الرشد، بحيث يعرف مصالح نفسه ويأمن عليه التبذير، فيدفع له، { وأوفوا الكيل والميزان بالقسط }؛ بالعدل والتوفية، { لا نُكلِّف نفسًا إلا وسعها }؛ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، ولمَّا أمر بالقسط في الكيل والوزن، وقد علم أن القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج ـ أمر بالوسع في ذلك وعفا عما سواه.

{ وإذا قلتم } في حكومة ونحوها، { فاعدلوا ولو كان } المقول له في شهادة أو حكومة { ذا قربى }؛ فيجب العدل في ذلك، { وبعهد الله أوفوا } أي: ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع، أو ما عاهدتم مع عباده، { ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون }؛ تتعظون به.

{ وأنَّ هذا } أي: ما تقدم في السورة كلها، { صراطي مستقيمًا فاتبعوه }؛ لأن السورة بأسرها إنما هي في إثبات التوحيد، والنبوة، وبيان الشريعة، { ولا تتبعوا السُّبل }؛ الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد، ومقتضى الهوى متعدد؛ لاختلاف الطبائع والعادات، ولذلك تَفرقت. والمراد بالطرق: اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان الباطلة، ويدخل فيه البدع والأهواء، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطًا، ثم قال: " هذا سبيل الله " ، ثم خط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: " هذه سُبُلٌ، وعلى كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يَدعُو إليها " { ذلكم } الاتباع { وصّاكم به لعلكم تتقون } الضلال والتفرق عن الحق. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد وصّى الحقّ ـ جلّ جلاله ـ على التخلص من الشرك، جليه وخفيه، ولا يكون إلا بتحقيق الإخلاص والتوحيد الخاص. وهو مطلب الصوفية، وبالإحسان بالوالدين الروحانيين والبشريين، أي: والد الأرواح ـ وهو الشيخ المربي ـ ووالد الأشباح، ولا بد للمريد من طاعتهما، إلاَّ أنه يقدم طاعة الشيخ، كما تقدم عن الجنيد في (سورة النساء).

ووصى بعدم قتل الأولاد، وهم المواهب والعلوم بإهمال القلب في الغفلة، وعدم قرب الفواحش: الظاهرة الحسية، والباطنية القلبية؛ كالحسد، والكبر، وحب الجاه والدنيا، وسائر العيوب. وعدم قتل النفس بالانهماك في الهوى والغفلة حتى تموت بالجهل عن المعرفة. وعدم قرب مال اليتيم، وهو الذي ليس له شيخ، فإن الغالب عليه عدم المسامحة، وسيأتي عند قوله تعالى:
{ قَالَ رَبِّ أَرِنِيَ أَنظُرْ إِلَيْكَ }
[الأعرَاف:143]، إشارة لها أرق من هذه، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى

الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المُربين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة. وبالله التوفيق.

@{ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيا أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ }

قلت: { ثم }: هنا للترتيب الإخباري، وقال ابن جزي: هذه الوصية قديمة لكل أمة على لسان نبيها، فصح الترتيب. وقال البيضاوي: { أو } للتفاوت في الرتبة، كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديمًا وحديثًا، ثم أعظم من ذلك: أنا آتينا موسى الكتاب... الخ. وهو عطف على { وصّاكم } ، و { تمامًا وتفصيلاً }: حالان، أو علتان، أو مصدران.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ثم } نخبرك أنا { آتينا موسى الكتاب }؛ التوراة، { تمامًا على الذي أحسن } القيام به من بني إسرائيل، ويدل عليه قراءة: { أحسنوا } ، أي: تمامًا للنعمة على العاملين به، أو تمامًا على موسى الذي أحسن القيام به، أي: آتيناه الكتاب تفضلاً وإتمامًا للنعمة؛ جزاء على ما أحسن من طاعة ربه وتبليغ رسالته، ففاعل أحسن: ضمير موسى. أو: { تمامًا } أي: إكمالاً على ما أحسن الله به إلى عباده، فالفاعل على هذا: ضمير الله تعالى، { وتفصيلاً } أي: تبيينًا { لكل شيء } يحتاجون إليه في الدين. { وهدى } أي: هداية للظواهر، { ورحمة } للقلوب، { لعلهم } أي: بني إسرائيل، { بلقاء ربهم } للجزاء، { يُؤمنون } إيمانًا صحيحًا، وهو اللقاء بالأجسام والأرواح، والنعيم أو العذاب للأشباح. الله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أحسن عبادة ربه في الظاهر، وحقق في الباطن، أتم الله عليه نعمته بشهود ذاته وأنوار صفاته، ووهب له علومًا لدنية تفصل له ما أشكل، يكون له هداية لزيادة الترقي، ورحمةً يتهيأ بها قلبه لوحي الإلهام والتلقي. وبالله التوفيق.

@{ وَهَـاذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } * { أَن تَقُولُوااْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىا طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } * { أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَىا مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُواءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ }

قلت: { أن تقولوا }: مفعول له، أي: كراهة أن تقولوا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهذا } القرآن { كتاب أنزلناه مبارك } كثير النفع { فاتبعوه } في الأصول والفروع، { واتقوا } الشرك والمعاصي، { لعلكم تُرحمون } ببركة أتباعه؛ فتحيا به قلوبكم، وتنتعش به أرواحكم، وإنما أنزلناه؛ كراهة { أن تقولوا يوم القيامة } في الحجة: { إنما أُنزل الكتابُ على طائفتين من قبلنا }؛ اليهود والنصارى، وإنما خصهما بالذكر لشهرتهما دون الكتب السماوية، { وإن كنا } وإنه، أي: الأمر والشأن، كنا { عن دراستهم } أي: قراءتهم { لغافلين } أي: كنا غافلين عن قراءة أهل الكتاب، لا ندري ما هي ولا نعرف مثلها، أو لم ندرس مثل دراستهم، ولم نعرف ما درسوا من الكتب، فلا حجة علينا، فقد قامت الحجة عليكم بنزول القرآن.

{ أو } كراهة أن { تقولوا } أيضًا: { لو أنا أُنزل علينا الكتابُ } كما أنزل إليهم، { لكُنا أهدى منهم } لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا، ولذلك تلقفنا فنونًا من العلم، كالقصص والأشعار والخطب والأنساب، مع كوننا أميين، قال تعالى لهم: { فقد جاءكم بينة من ربكم } وهو القرآن؛ حجة واضحة تعرفونها؛ { وهدى ورحمةٌ } لمن تدبره وعمل به، { فمن أظلم } أي: لا أحد أظلم { ممّن كذَّب بآيات الله } بعد أن عرف صحتها، { وصَدَف }؛ أعرض { عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب }؛ ألمه وقبحه، { بما كانوا يصدفون } أي: يعرضون ويصدون عنها.

الإشارة: جعل الله رحمة القلب وحياة الأرواح في شيئين: في التمسك بالقرآن العظيم وتدبر معانيه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وفي التحصن بالتقوى جهد استطاعته، فبقدر ما يتحقق بهذين الأمرين تقوى حياة قلبه وروحه وسره، حتى يصل بالحياة السرمدية، وبقدر ما يُخل بهما يحصل له موت قلبه وروحه، والإنسان إنما فضل وشرف بحياة قلبه وروحه، لا بحياة جسمه، ولا حجة له أن يقول: كنت مريضًا ولم أجد من يعالجني، ففي كل زمان رجال تقوم الحجة بهم على عباد الله، فيقال لهم: قد جاءكم بينة من ربكم، وهو الولي العارف، وهدى ورحمة لأهل عصره، لمن تمسك به وصحبه، وأما من أعرض عنه بعد معرفته فلا أحد أظلم منه، { فَمَن أظلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنهَا... } الآية.

@{ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلاائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيا إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { هل ينظرون } أي: ما ينتظر أهل مكة { إلا أن تأتيهم الملائكة } لقبض أرواحهم، أو بالعذاب، لأجل كفرهم، وهم لم يكونوا ينتظرون ذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين، { أو يأتي ربك } أي: أمره بالعذاب، { أو يأتي بعض آيات ربك } يعني: أشراط الساعة.

وعن حذيفة والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة، إذ أشرق علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " ما تداكرون " قلنا: نتذاكر الساعة، فقال: " إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدجال ودابة الأرض، وخسفًا بالمشرق، وخسفًا بالمغرب، وخسفًا بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، ونارًا تخرج من عدن ".

{ يوم يأتي بعض آيات ربك } ، وهو طلوع الشمس من مغربها، كما في حديث الصحيحين، قال الأقليشي: وذلك أن الله تعالى، إذا أراد طلوعها من مغربها، حبسها ليلة تحت العرش، فكلما سجدت وأستأذنت لم يجر لها جواب، حتى يحبسها مقدار ثلاث ليال، فيأتيها جبريل عليه السلام فيقول: إن الرب تعالى يأمرك أن ترجعي إلى مغربك فتطلعي منه، وأنه لا ضوء لك عندنا ولا نور، فتبكي عن ذلك بكاء يسمعها أهل السبع سماوات، ومن دونها، وأهل سرادقات العرش وحملته من فوقها، فيبكون لبكائها مما يخالطهم من خوف الموت، وخوف يوم القيامة، قال: فيبيت الناس ينتظرون طلوعها من المشرق، فتطلع الشمس والقمر خلف أقفيتهم من الغرب، أسودين مُكدرين، كالقارتين، ولا ضوء للشمس ولا نور للقمر، فيتصايح أهل الدنيا،

وتذهل الأمهات عن أولادها، والأحبة عن ثمرة قلوبها، فتشتغل كل نفس بنفسها، ولا ينفع التوحيد حينئذٍ. هـ.

وهو معنى قوله تعالى: { يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها }؛ كالمختصر إذا صار الأمر عيانًا، وإنما ينفع الإيمان بالغيب، وقد فات يومئذٍ، فلا ينفع الإيمان نفسًا { لم تكن آمنت من قبل }؛ ولا تنفع التوبة من المعاصي وترك الواجبات حينئذٍ؛ لقوله: { أو كسبت في إيمانها خيرًا } أي: لا ينفع نفسًا مؤمنة لم تكن كسبت خيرًا قبل ذلك اليوم، حيث كانت فرطت فيه قبل: وينفع اكتسابه بعد.

والحاصل: أن طلوع الشمس من مغربها يُغلق بعده بابُ التوبة؛ فلا يقبل الإيمان من كافر، ولا التوبة من عاصٍ، وأما الإيمان المجرد عن العمل، إذا كان حاصلاً قبل ذلك اليوم، فإنه ينفع على مذهب أهل السنة، وكذلك العاصي بالبعض ينفعه بعض الذي كان يعمله، كالزاني مثلاً، إذا كان يصلي، فتنفعه صلاته ويعاقب على العصيان، وهكذا، والمنفي قبوله: إنما هو الخير المتروك قبل ذلك اليوم، فلا ينفع استدراكه بعد.

ثم قال تعالى: { قل انتظروا } إتيان أحد الثلاثة؛ الملائكة بعذابكم، أو أمر الله تعالى بإهلاككم، أو بعض آياته، { إنا منتظرون } ذلك، لنا الفوز وعليكم الويل.

الإشارة: ما ينتظر الغافلون والمنهمكون في اللذات والشهوات والإعراض عن الله إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم فجأة، فيموتون على الغفلة، فتنزل بهم الحسرة والندم، وقد زلت القدم بهم، أو يأتي أمر الله بطردهم والطبع على قلوبهم، فلا ينفعهم وعظ ولا تذكير، أو يأتي بعض آيات ربك؛ مصيبة أو داهية تثقل قلوبهم عن التوجه إلى الله، وجوارحهم عن طاعة الله. فالغافل والعاصي بين هذه الثلاثة، إن لم يقلع ويتب. والله تعالى أعلم.

@{ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين فرقوا دينهم }؛ فآمنوا بالبعض وكفروا بالبعض، وهم اليهود والنصارى، وقيل: أهل الأهواء والبدع، فيكون إخبارًا بغيب، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة " قيل: يا رسول الله، وما تلك الواحدة؟ قال: " من كان على ما أنا عليه وأصحابي ".

وقرىء: " فارقوا " أي: تركوا دينهم، { وكانوا شيعًا }؛ جمع شيعة، أي: فرقًا متشيعة، كل فرقة تتشيع لمذهبها وتتشيع إمامها، أي: تنتسب إليه. { لستَ منهم في شيء } أي: أنت بريء منهم، فلست في شيء من السؤال عنهم وعن تصرفهم، أو عن عقابهم، وقيل: هو نهي عن التعرض لهم؛ فيكون منسوخًا بآية السيف، { إنما أمرهم إلى الله } يتولى جزاءهم، { ثم ينبئُهم بما كانوا يعملون } من التفرق فيعاقبهم عليه.

الإشارة: الافتراق المذموم، إنما هو في الأصول؛ كالتوحيد وسائر العقائد، فقد افترقت المعتزلة وأهل السنة في مسائل منه، فخرج من المعتزلة اثنان وسبعون فرقة، وأهل السنة هي الفرقة الناجية، وأما الاختلاف في الفروع فلا بأس به، بل هو رحمة لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: " خلاف أمتي رحمة " ، كاختلاف القراء في الروايات، واختلاف الصوفية في كيفية التربية، فكل ذلك رحمة وتوسعه على الأمة المحمدية، إذ كل من أخذ بمذهب منها فهو سالم، ما لم يتبع الرخص. وقال بعضهم: ما دامت الصوفية بخير ما افترقوا، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم. ومعنى ذلك: إنما هو في التناصح والإرشاد والنهي بعضهم لبعض عما لا يليق في طريق السير، فإذا سكت بعضهم عن بعض؛ مداهنةً وحياءً فلا خير فيهم، وأما قلوبهم فلا بد أن تكون متفقة متوددة، لا بغض فيها ولا تحاسد، وإلا لم يكونوا صوفية. والله تعالى أعلم.

@{ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىا إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { من جاء بالحسنة } قولية أو فعلية أو قلبية، { فله عشر أمثالها } من الحسنات، فضلاً من الله، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة، وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر: الكثرة دون العدد، { ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلا مثلها }؛ قضية للعدل، { وهم لا يظلمون } بنفس الثواب وزيادة العقاب.

الإشارة: إنما تضاعف أعمال الجوارح وما كان من قبل النيات، وأما أعمال القلوب فأجرها بغير حساب، قال تعالى:
{ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الزُّمَر:10]، وقال صلى الله عليه وسلم: " تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة " وقا الشاعر:

كُلُّ وَقْتٍ مِنْ حَبِيبي قَدْرُه كَأَلْفِ حِجَّهْ

وقد تقدم هذا في سورة البقرة.
@{ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيا إِلَىا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

قلت: { دينًا }: بدل من محل، " صراط "؛ لأن الأصل: هداني صراطًا مستقيمًا دينًا قيمًا، و { قَيِّمًا }: فيعل من القيام، فهو أبلغ من مستقيم، ومن قرأ بكسر القاف: فهو مصدر وصف به؛ للمبالغة، و { ملة إبراهيم }: عطف بيان الدين، { وحنيفًا }: حال من إبراهيم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم } بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج والآيات، { دينًا قيمًا }؛ مستقيمًا يوصل من تمسك به إلى جوار الكريم، في حضرة النعيم، وهو { ملة إبراهيم } أي: دينه، حال كونه { حنيفًا }: مائلاً عما سوى الله، { وما كان من المشركين } ، وهو تعريض لقريش، الذين يزعمون أنهم على دينه، وقد أشركوا بالله عبادة الأوثان.

الإشارة: قد أخذ الصوفية من هذا الدين القيم، الذي هدى الله إليه نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ خلاصته ولبابه، فأخذوا من عقائد التوحيد: الشهود والعيان على طريق الذوق والوجدان؛ ولم يقنعوا بالدليل والبرهان، وأخذوا من الصلاة: صلاة القلوب، فهم على صلاتهم دائمون من صلاة الجوارح، على نعت قوله:
{ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ }
[المؤمنون:2]، وأخذوا من الزكاة: زكاة نفوسهم بالرياضة والتأديب وإضافة الكل إليه. (العبد وما كسب لسيده)، مع أداء الزكاة الشرعية لمن وجبت عليه. وكان الشيخ أبو العباس السبتي رضي الله عنه يعطي تسعة أعشار زرعه، ويمسك العشر لنفسه.

وأخذوا من الصيام: صيام الجوارح كلها، مع صيام القلب عن شهود السِّوى. وأخذوا من الحج: حج القلوب إلى حضرة علام الغيوب، فالكعبة تشتاق إليهم وتطوف بهم، كما تقدم في آل عمران، ومن الجهاد: الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفوس، وهكذا مراسم الشريعة كلها عندهم صافية خالصة من الشوائب، بخلاف غيرهم، فلم يأخذ منها إلا قشرها الظاهر وعمل الأشباح، فهي صُور قائمة لا روح فيها؛ لعدم الإخلاص والحضور فيها. والله تعالى أعلم.

@{ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } * { لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذالِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } * { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىا ثُمَّ إِلَىا رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }

قلت: (ربًّا): حال من (غير).

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم يا محمد: { إن صلاتي ونسكي } أي: عبادتي كلها، وقرباتي أو حجي، { ومحياي ومماتي } أي: وعملي في حياتي، وعند موتي من الإيمان والطاعة، أو الحياة والممات أنفسهما، { لله رب العالمين لا شريك له } أي: هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره، { وبذلك } أي: بذلك القول والإخلاص، أمرني ربي، { وأنا أول المسلمين }؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

{ قل } لهم: { أغير الله أبغي ربًا } فأشرك مع الله، { وهو ربُّ كل شيء }؛ لأن كل شيء مربوب لا يصلح للربوبية. وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. { ولا تَكسِبُ كلُّ نفس } من شرك أو غيره { إلا عليها } وزره، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي، وهو رد على الكفار حيث قالوا له: اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك، ثم أوضح ذلك بقوله: { ولا تزر } أي: تحمل نفس { وازرة } أي: آثمة { وزر } نفس { أخرى } أي: لا يحمل أحد ذنوب أحد، { ثم إلى ربكم مرجعكم } بالبعث والحساب، { فينبئُكم } ، أي: يُخبركم { بما كنتم فيه تختلفون } من أمر الدين؛ فيبين الرشد من الغي، والمحق من المبطل.

الإشارة: الإخلاص سر من أسرار الله، يُودعه القلب من أحب من عباده، وهو أخلاص العبودية لله وحده، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه، وهذا شيء عزيز. ولذلك قيل:

وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه: الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الخالق، وأول الخلق: النفسن والإخلاص عند المحبين: ألا يعمل عملاً لأجل النفس، وألاَّ يدخل عليه مطالعة العوض، أو تشوف إلى حظ طبع، والإخلاص عند الموحدين: خروج الخلق من النظر إليهم، أي: لا يرون مع الله غيره في الأفعال، وترك السكون إليهم، والاستراحة إليهم في الأحوال. هـ.

@{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وهو الذي جعلكم خلائف الأرض } أي: يخلف بعضكم بعضًا، أو خلفاء الله في أرضه؛ تتصرفون فيها بإذنه، على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السابقة، على أن الخطاب للمسلمين، { ورفع بعضكم فوق بعض درجات } في الشرف والغناء والقوة والجاه، وفي العلوم والأعمال والأحوال والإخلاص والمعارف، وغير ذلك مما يقع به التفاضل بين العباد، { ليبلوكم فيما آتاكم } أي: ليختبر شكركم على ما أعطاكم، وأعمالَكم فيما مكنكم فيه من الخلافة.

{ إن ربك سريع العقاب } لمن كفر نعمه، إما في الدنيا لمن عجل أخذه؛ لأن كل آت قريب، { وإنه لغفور رحيم } لمن شكر نعمه وآمن وعمل بطاعته، جمع بين التخويف والترجيه ليكون العبد بينهما. وبالله التوفيق.

الإشارة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه، في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملَّكهم الله من الأملاك الحسية. والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفُون بالله، أمرُهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن ـ يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار، والحاصل: أن من بقي مع الأكوان شهودًا وافتقارًا، كان محبوسًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك كما تقدم.

وقال تعالى: { وهو الذي جعلكم خلائف الأرض } أي: خلفاء عنه تتصرفون في الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم في الأرض بأشباحكم، { ورفع بعضكم فوق بعض درجات }؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك، مما هو مذكور في محله. خرطنا الله في سلكهم ومنحنا ما منحهم، بمنِّه وكرمه، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حبيبه ونبيه. آمين ـ والحمد لله رب العالمين.